

رواية

ميلان كونديرا



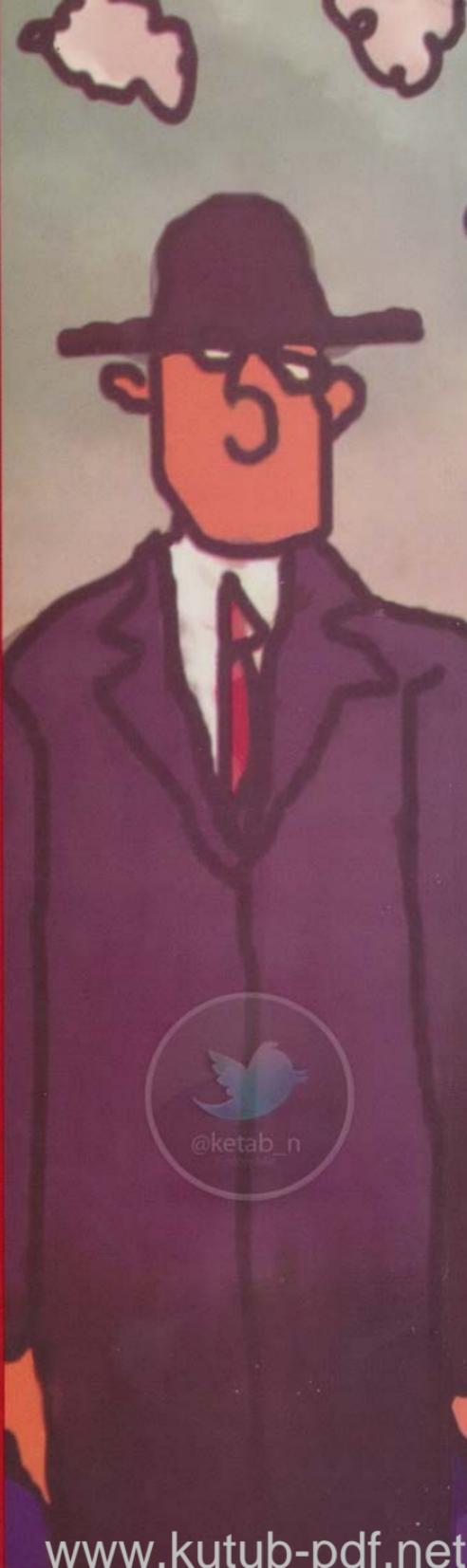
21.3.2015

كائن

لا تُتحمل خفتـه

ترجمة: ماري طوق

المركز الثقافي العربي



www.kutub-pdf.net

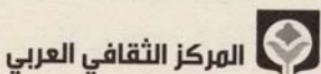
میلان کوندیرا

کائن لا تُحتمل خفته

@ketab_n

رواية

ترجمة
ماري طوق



میلان کوندیرا

کائن لا تُحتمل خفته

هذه ترجمة لرواية:
**L'insoutenable légèreté
de l'être**
© Milan Kundera, 1984

الكتاب
كائن لا تُحتمل خفته

تأليف
ميلان كونديرا
ترجمة
ماري طوق

الطبعة
الثالثة، 2013
عدد الصفحات: 320
القياس: 21.5 x 14.5
الترقيم الدولي : ISBN: 978-9953-68-271-6

جميع الحقوق محفوظة

الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء - المغرب
ص.ب : 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحاس)
هاتف: 0522 303339 - 0522 307651
فاكس: +212 522 305726
Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت - لبنان
ص.ب : 5158 - 113 الحمراء
شارع جاندارك - بناية المقدسي
هاتف: 01 352826 - 01 750507
فاكس: +961 1 343701
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

القسم الأول

الخفة والثقل

1

العَوْدُ الْأَبْدِي فَكْرَةٌ يَكْتَنِفُهَا الغَمْوُضُ وَبِهَا أَرْبِكُ نِيَّشَهُ الْكَثِيرُ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ: أَنْ نَتَصَوَّرَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَيَتَكَرَّرُ ذَاتٌ يَوْمَ كَمَا عَشَنَا فِي السَّابِقِ، وَأَنَّ هَذَا التَّكَرَّرَ بِالذَّاتِ سَيَتَكَرَّرُ بِلَا نِهَايَةٍ! مَاذَا تَعْنِي هَذِهِ الْخَرَافَةُ الْمَجْنُونَةُ؟

تُؤَكِّدُ خَرَافَةُ العَوْدِ الْأَبْدِيِّ، سَلْبًا، أَنَّ الْحَيَاةَ تَخْتَفِي نِهَايَاً، وَالَّتِي لَا تَعُودُ قَطُّ إِنْمَا هِيَ أَشْبَهُ بِظَلٍّ وَدُونٍ وَزِينٍ وَمِيَّةٍ سَلْفًا. وَمِمَّا تَكُنُ هَذِهِ الْحَيَاةُ فَظِيعَةً أَوْ جَمِيلَةً أَوْ رَائِعَةً فَإِنَّ هَذِهِ الْفَظَاعَةَ وَهَذَا الْجَمَالُ وَهَذِهِ الرَّوْعَةُ لَا تَعْنِي شَيْئًا. هِيَ غَيْرُ ذَاتٍ أَهْمَى مِثْلُ حَرْبٍ وَقَعَتْ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ بَيْنَ مَمْلَكَتَيْنِ أَفْرِيقِيَّتَيْنِ فَمَا غَيَّرَتْ شَيْئًا فِي وَجْهِ الْتَّارِيخِ، مَعَ أَنَّ ثَلَاثَمَائَةَ أَلْفَ زَنْجٍ لَاقُوا فِيهَا حَتْفَهُمْ وَفِي عَذَابَاتٍ تَفُوقُ الْوَصْفِ. فَهَلْ كَانَ سَيَتَغَيِّرُ شَيْءٌ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الْحَرْبُ بَيْنَ الْمَمْلَكَتَيْنِ الْأَفْرِيقِيَّتَيْنِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ قَدْ تَكَرَّرَتْ مَرَاتٍ لَا حَصْرٌ لَهَا فِي سِيَاقِ الْعَوْدِ الْأَبْدِيِّ؟

بَلِّي: كَانَتْ سَتَّوَوْلُ إِلَى كَتْلَةٍ مُتَرَاصِفَةٍ مِنَ الْجَمَاجِمِ، وَتَفَاهَتْهَا سَتَّكُونَ مُتَصَلَّةٍ دُونَ تَوْقُّفٍ.

ولو قُدِّرَ للثورة الفرنسية أن تتكرر باستمرار، لكان المؤرخون الفرنسيون أقل فخرًا بروبيسيير. ولكن، بما أنهم يتحدثون عن شيء لن يرجع ثانية، فإن السنوات الدامية تصير مجرد كلمات ونظريات ومجادلات؛ تصير أكثر خفة من الرَّغب ولا تعود مخيفة. هنالك فرق شاسع بين روبيسيير الذي لم يظهر سوى مرة في التاريخ وروبيسيير الذي يعود بشكل دائم ليقطع رؤوس الفرنسيين.

لنقل إذاً إن فكرة العود الأبدي تمثل أفقاً لا تبدو فيه الأشياء كما نعرفها: تظهر لنا من دون الظروف التخفيفية لعرضيتها. هذه الظروف التخفيفية تمنعنا في الحقيقة من إصدار حكم معين. فهل بالإمكان إدانة ما هو زائل؟ إن غيوم المغيب البرتقالية تضفي على كل شيء ألق الحنين، حتى على المقصلة.

منذ زمن ليس ببعيد باغتني شعور غير معقول: كنت أتصفح كتاباً عن هتلر فوجدت نفسي متاثراً أمام بعض من صوره. ذكرتني بزمن طفولتي التي عشتها خلال الحرب. كثيرون من أفراد عائلتي لاقوا حتفهم في معسكرات اعتقال نازية. ولكن ما أهمية موتهم أمام صورة هتلر التي ذكرتني بزمن غابر من حياتي، بزمن لن يعود؟

إن هذه المصالحة مع هتلر تفضح عمق الشذوذ الأخلاقي الملائم لعالم مبني أساساً على انعدام العَود. ذلك أن كل شيء في هذا العالم مختلف سلفاً وكل شيء مسموح به بوقاحة.

2

لو قُدِّرَ لكل ثانية من حياتنا أن تتكرر مرات لا حصر لها، لكتنا معلقين على الأبدية مثلاً عُلّق يسوع المسيح على صليبه. هذه الفكرة فظيعة. فهي عالم العَود الأبدي، كل حركة تحمل ثقل مسؤولية لا

تطاقي... وهذا ما جعل نيتشه يقول: إن فكرة العَوْدُ الأَبْدِي هي الحَمْلُ الأَكْثَر ثقلاً.

إذا كان العَوْدُ الأَبْدِي هو الحَمْلُ الْأَثْقَلُ، يمكن لحيواننا عندئذ أن تظهر على هذه القماشة الخلفية بكل خفتها الرائعة.

ولكن هل الثقل فظيع حقاً، والخففة جميلة؟

إن أكثر الأحمال ثقلاً يسحقنا، يلوينا تحت وطأته ويشدنا نحو الأرض. ولكن لو ألقينا مثلاً نظرة على شعر العشب خلال العصور كلها لرأينا أن المرأة ترغب في أن تتلقى حِمْلَ جسد الذَّكَر. إذاً، فالحمل الأكثر ثقلاً هو في الوقت ذاته صورة للاكتمال الحيوي في ذروته. فكلما كان الحِمْلُ ثقيلاً، كانت حياتنا أقرب إلى الأرض، وكانت واقعية أكثر وحقيقة أكثر.

وبالمقابل، فإن الكائن الإنساني عند الغياب التام للحمل يصير أكثر خفة من الهواء، محليقاً بعيداً عن الأرض وعن الكائن الأرضي. يصير شبه واعي وتصبح حركاته حرّة بقدر ما هي تافهة.

إذاً، ماذا ثُرانا نختار، الخفة أم الثقل؟

ذلك هو السؤال الذي طرّحه بارمينيدس على نفسه في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح. حسب رأيه، العالم منقسم إلى أزواج من الأضداد: النور - الظلمة؛ السميك - الرقيق؛ البارد - الكائن - اللاكائن. كان يعتبر أن أحد قطبي التناقض إيجابي (المنير، الحار، الرقيق، الكائن) والقطب الآخر سلبي. قد يبدو لنا هذا الانقسام إلى إيجابي وسلبي في نطاق سهولة صبيانية باستثناء حالة واحدة: أيهما هو الإيجابي، الثقل أم الخفة؟

كان بارمينيدس يجيب: الخفيف هو الإيجابي والثقيل هو السلبي. هل كان محقاً أم لا؟ هذا هو السؤال. شيء واحد أكيد: النقيضان - الخفيف هما الأكثر غموضاً والتبايناً بين كل المتناقضات.

منذ سنوات عديدة وأنا أنكر في توماس. غير أنني رأيته بوضوح للمرة الأولى في ضوء هذه الأفكار. رأيته واقفاً عند نافذة شقته وعيناه تحدقان بثبات عبر الجهة الأخرى من الفناء، إلى حائط المبني المقابل. ولم يكن يدرى ماذا عليه أن يفعل.

كان قد تعرف إلى تيريزا منذ ثلاثة أسابيع تقريباً في مدينة صغيرة من بوهيميا، حيث أمضيا معاً ساعة على الأكثر. اصطحبته إلى المحطة وانتظرت معه حتى استقلَّ القطار. بعد عشرة أيام جاءت تزوره في براغ حيث مارسا الحب في اليوم نفسه. وفي الليل أصابتها نوبة من الحمى فامضت عنده أسبوعاً كاملاً يلازمها الزكام.

عندئذ أحسَّ بحب لا يفسر نحو هذه الفتاة التي كان يجهلها في الواقع. بدت له مثل طفلة وُضعت في سلة مطلية بالقطaran وتركت في النهر ليقططها عند ضفة سريره.

مكثت عنده أسبوعاً، ثم بعد أن شفيت رجعت إلى المدينة التي تسكن فيها على بعد مئتي كيلومتر من براغ.. هنا تتموضع اللحظة الحاسمة في حياة توماس والتي كنت أحديثكم عنها لتوّي: إنه واقف عند النافذة وعيناه محدقان عبر الجهة الأخرى من الفناء، إلى حائط المبني المقابل ويفكر:

هل عليه أن يدعوها للإقامة في براغ؟ هذه مسؤولية ترعبه. لماذا لا يدعوها الآن إليه، هكذا تجيئه في الحال لتقدم له حياتها كلها. أو هل يجب التخلِّي عن هذه الفكرة؟ وفي هذه الحالة تبقى تيريزا خادمة في مشرب جعة في حيٍّ صغير من الريف، وهكذا لا يعود يراها.

هل يريدها أن تنضم إليه أم لا؟

ينظر عبر الفناء، عينة محدثتان إلى الحائط المقابل ويبحث عن حل.

يرجع أيضاً وأيضاً إلى صورة المرأة المستلقية على سريره، لم تكن تذكره بأحد من حياته السابقة. لم تكن عشيقة ولا زوجة. بل كانت طفلاً أخرجه من سلة مطلبة بالقطaran ووضعه على ضفة سريره. كانت قد غفت. جثا أمامها. كان لها المحموم متسارعاً وسمع تأوهها خافتًا. الصدق وجهه بوجهها وهمس لها كلمات مؤاسية أثناء نومها. في غضون لحظة بدا له أنها تتنفس بهدوء أكثر وأن وجهها يستدير تلقائياً نحو وجهه. كان يشم رائحة الحمى العاجزة من شفيتها وكان يتشقها وكأنه يريد أن يمتليء بحمى جسدها. عندما تصور أنها كانت تقيمه عنده منذ سنوات وأنها الآن تحتضر. أحسن فجأة أنه لا يمكن له أن يعيش بعد موتها. بل سيتمدد قربها ويموت معها. وإذا هزت كيانه هذه الرؤية، دفن وجهه في الوسادة قرب وجهها وبقي طويلاً على هذه الحال.

الآن، ما هو واقف عند النافذة يتذكر هذه اللحظة. هل كان ذلك غير الحب وقد أراد أن يعلن عن نفسه بهذه الطريقة؟

ولكن هل كان ذلك هو الحب فعلاً؟ كان متيناً من أنه كان يرغب في الموت إلى جوارها، وهذا الشعور كان مغالٍ فيه إلى حد بعيد، فهو يراها للمرة الثانية في حياته. أم كان بالأحرى رد فعل هستيريأً لرجل أدرك في أعماقه عدم قدرته على الحب فراح يلعب، لكن مع نفسه، مهزلة العشق؟ في الوقت ذاته، كان وعيه الباطن مرتخياً إلى درجة أنه اختار لتمثيليته هذه خادمة مقهى ريفية مسكونة لم يكن لها عملياً أي حظ في الدخول إلى حياته!

كان ينظر إلى حيطان الفناء المتتسخة من دون أن يفهم إذا كان ما يعانيه جنوناً أم حباً.

كان بإمكان رجل حقيقي في هذه الحالة أن يتصرف على الفور. لذلك كان يأخذ على نفسه هذا التردد وحرمان أجمل لحظة في حياته من كل معنى، (كان جائياً أمام سرير المرأة الشابة وهو مقنع بأنه لن يقوى على العيش من بعدها).

كان يُتقل على نفسه باللوم والتوبخ، ولكنه اقتنع في النهاية بأن عدم معرفته لما يريد له أمر طبيعي جداً.

لا يمكن للإنسان أبداً أن يدرك ماذا عليه أن يفعل، لأنه لا يملك إلا حياة واحدة، لا يسعه مقارنتها بحياة سابقة ولا إصلاحها في حيوات لاحقة.

أيهما هو الأفضل، العيش مع تيريزا أم البقاء وحيداً؟ لا توجد وسيلة لتحقيق أي قرار هو الصحيح، لأنه لا سبيل لأي مقارنة. كل شيء نعيشه دفعه واحدة، مرة أولى دون تحضير. مثل ممثل يظهر على الخشبة دون أي تمرين سابق. ولكن ما الذي يمكن أن تساويه الحياة إذا كان التمرين الأول هو الحياة نفسها؟ هذا ما يجعل الحياة شبيهة دائماً بالمخطط الأولي لعمل فني، ولكن حتى الكلمة «مخطط» لا تفي بالغرض. فهي تبقى دائماً مسوقة لشيء ما، رسمأ أولياً لللوحة ما. أما مخطط حياتنا فهو مخطط للاشيء ورسم أولي دون لوحة.

ردد توماس المثل الألماني القائل: مرة واحدة لا تُحسب، مرة واحدة هي أبداً. أن لا تستطيع العيش إلا حياة واحدة كأنك لم تعش البتة.

4

لكن، ذات يوم، وأثناء استراحة بين جراحتين، أبلغته ممرضة أنه مطلوب على الهاتف. سمع صوت تيريزا عبر السماعة. كانت تخبره

من المحطة. سرّ لذلك. لسوء الحظ كان مشغولاً هذا المساء فلم يدعها لزيارته إلا في اليوم التالي. ما إن أغلق السماعة حتى ندم لأنه لم يطلب منها أن تأتي في الحال. كان الوقت لا يزال يسمح له بإلقاء موعده. تسأله عما ستفعله تيريزا في براغ طوال الساعات الست والثلاثين التي تفصلهما عن لقائهما، فرغب في ركوب سيارته والانطلاق بها بحثاً عنها في شوارع المدينة.

وصلت مساء ذلك اليوم التالي. كانت تحمل حقيبة ذات حزام طويل. وجدتها أكثر أناقة من المرة السابقة. كانت تناسب كتاباً ضخماً: «آنا كارنينا» لتولستوي. كانت تصرفاتها مرحمة بل ربما صاحبة. وكانت تجهد لتبرهن أنّ مرورها لم يكن إلا من باب الصدفة وحسب، وبسبب ظروف خاصة: فوجودها في براغ كان لداعٍ مهنية وربما (كانت مزاعمها غامضة جداً) للبحث عن وظيفة جديدة.

بعدها، وجداً نفسها ممددين على السرير جنباً إلى جنب عاريين ومنهكين. كان المساء قد حلّ. سألها عن مكان إقامتها وأراد اصطحابها في السيارة. أجابت بانزعاج بأنها ستفضّل عن فندق وأنها أودعت حقيقتها في المحطة.

عشية البارحة ليس إلا، كان يخشى أن تأتي مانحة إياته حياتها فيما لو دعاها للمكوث عنده في براغ. الآن عندما سمعها تقول له إنّ حقيقتها كانت في المحطة، فكر أنها وضعت حياتها في هذه الحقيقة وأودعتها في المحطة قبل أن تمنحه إياها.

صعد إلى جانبها في سيارته المتوقفة أمام البناء، ذهب إلى المحطة فأمسك بالحقيقة (كانت ضخمة وثقيلة للغاية) وأتى بها وتيريزا إلى بيته.

كيف حدث أنه قرر بهذه السرعة في حين أنه كان يتتردد ما يقارب الخمسة عشر يوماً ولم يرسل لها حتى بطاقة بريدية؟

كان هو نفسه مدهوشًا: كان يتصرف بخلاف مبادئه. ها قد مررت عشر سنوات على طلاقه من زوجته الأولى، وهو يعيش طلاقه في جو من الابتهاج مثلما يحتفل أناس آخرون بزواجهم. كان قد فهم إذ ذاك أنه لم يُخلق ليعيش حياته مع امرأة واحدة، أيًّا تكون هذه المرأة، وأنه غير قادر على أن يكون هو نفسه إلا عازبًا. كان يحرص إذاً كل الحرص على تنسيق نظام حياته بشكل لا يمكن معه لأية امرأة أن تأتي لتقييم عنده مع حقيقتها. وعلاوة على ذلك، هو لا يملك إلا سريرًا واحدًا. ومع أنه سرير واسع بما فيه الكفاية، فإنه كان يؤكد لشريكاته أنه لا يستطيع النوم مع أحد على فراش مشترك. كان يُعيدهن جميعهن إلى منازلهن بعد حلول منتصف الليل. من جهة أخرى، حين بقيت تيريزا عنده في المرة الأولى بسبب الزكام، لم يتم إلى جوارها، بل أمضى ليتلته الأولى على مقعد كبير، وليلاليه المتتالية في عيادته في المستشفى على كرسي طويل كان يستعمله أثناء الخدمة الليلية.

لكنه في هذه المرة نام قربها. عندما استيقظ في الصباح وجد أن تيريزا لا تزال نائمة وهي تمسك بيده. هل بقيا ممسكين بأيديهما هكذا طوال الليل؟ كان يصعب عليه تصديق هذا الأمر.

كانت تتنفس بعمق أثناء نومها وتمسك بيده (بقوة، لم يكن قادرًا على الإفلات من قبضتها)، وكانت الحقيبة الثقيلة جداً ملقاة قرب السرير.

لم يكن يجرؤ على سحب يده من قبضتها لثلا يوقفها، فاستدار بحذر على جنبه ليتمكن من مراقبتها بشكل أفضل.

مرة أخرى قال في نفسه: إنَّ تيريزا طفل وضع في سلة مطلية بالقطaran ورميت في مجرى النهر. هل في إمكان المرء أن يترك سلة في داخلها طفل تنجف مع مياه النهر الهادرة؟ لو لم تُخرج ابنة فرعون سلة موسى الطفل من الماء لَمَا كان العهد القديم ولا كانت معه

حضارتنا! في بداية أساطير كثيرة هناك أحد ما ينقذ طفلاً لقيطاً. لو لم يلتقط «بوليت أوديب» الطفل لما كتب سوفوكليس أجمل مسرحياته التراجيدية.

لم يكن توماس يدرك من قبل أن الاستعارات شيء خطير. لا يمكننا أن نمزح مع الاستعارات. فالحب قد يولد من استعارة واحدة.

5

كان قد عاش ستين تقريباً مع زوجته وأنجب منها طفلاً. عهد القاضي في حكم الطلاق بالطفل للأم وأجبر توماس على أن يقدم لها ثلث معاشه. إلى جانب ذلك، كفل له بأنه يستطيع رؤية ابنه مرتين في الشهر.

ولكن كلما كان يريد رؤية ابنه كانت الأم تُرجئ الموعد. لو أغدق عليهما بهدايا فخمة لكان في وسعه طبعاً أن يراه بطريقة أسهل. أدرك إذاً أنه يفترض به أن يدفع للأم ثمن حب ابنه، وأن يدفع سلفاً. كان يتخيّل نفسه وهو يلقن ابنه أفكاراً تناقض في كل شيء أفكار أمه، وكانت هذه الفكرة بالذات تنهكه. منعه الأم ذات يوم أحد من الخروج مع ابنه في آخر لحظة، فقرر ألا يعود لرؤيته أبداً.

وعلى كل حال، ما الذي يجبره على التعلق بهذا الطفل دون سواه؟ لا شيء يربطه به غير ليلة طائشة. كان على استعداد لأن يدفع ما عليه من مال بأمانة ولكن لا يذهب بأحد الأمر إلى حد أن يطلب منه، باسم مشاعر أبوية غير محددة، أن ينضل لاكتساب حقه كأب!

من البديهي ألا يكون أحد على استعداد للقبول بهذا المنطق. فوالداه بالذات لاما وأوضحا له بأنه هو توماس، لو رفض الاهتمام بابنه فسيتوقفان هما أيضاً عن الاهتمام بابنهم. لذلك، كانا يستمران في

التعاطي مع كتهما بمودة تفاخرية، متتجحين أمام الأقارب بموقفهما النموذجي وبصواب أحکامهما.

نجح إذاً خلال فترة قصيرة في التخلص من زوجة وابن وأم وأب. ولم يتبق له مما مضى إلا الخوف من النساء. كان يرحب فيهن إنما كان يخاف منها. بين الخوف والحب وجب عليه أن يجد تسوية ما، تسوية سماها «الصداقة الجنسية». كان يؤكّد أمام عشيقاته: وحدها العلاقة المجردة من العواطف، حيث لا يمكن لأحد من الشريكين أن يدعى أن له حقوقاً على حياة الآخر وحريرته، يمكنها أن تجلب السعادة للاثنين معاً.

وحتى يتمّ له اليقين بأن الصداقة الجنسية لا تخلّي المكان أبداً لعدائية الحب، فإنه لم يكن يرى عشيقاته الدائمات إلا في فترات متباudeة جداً. كان يعتبر أن هذه الطريقة هي المثلثي، ويفتخر بها أمام أصدقائه: « علينا اعتماد القاعدة الثلاثية. يمكننا أن نرى المرأة نفسها في فترات متقاربة جداً شريطة ألا تزيد على ثلث مرات. أو يمكننا أن نعاشرها لسنوات طويلة لكن شريطة أن نترك على الأقل مهلة ثلاثة أسابيع بين اللقاء والآخر».

كان هذا النظام يمنحك إمكانية ألا يقطع علاقاته بعشيقاته الدائمات وأن يكون له في الوقت نفسه عشيقات عابرات. لم يكن أحد يفهمه. كانت سابينا وحدها من بين جميع صديقاته هي التي تفهمه. كانت رسامة. كانت تقول: أحبك كثيراً لأنك نقىض «الكيتش» تماماً. لا يمكنك أن تكون في أي سيناريو لفيلم أميركي أو لفيلم روسي غير حالة مثيرة للقرف.

والحالة هذه طلب من سابينا أن تساعدك على إيجاد عمل لتيزيزا. وحسب ما تلزم القواعد غير المكتوبة للصداقة الجنسية، وعدته بأن

تبذل جهدها. وفعلاً لم تتأخر في إيجاد وظيفة لها في مختبر للصور في إحدى المجالات الأسبوعية. لم تكن هذه الوظيفة تتطلب كفاءة معينة، ولكنها تمكنت من رفع تيريزا من منزلة الساقية في حانة إلى منزلة موظفة في الصحافة. قدمتها سابينا بنفسها إلى مكتب التحرير، ففكر توماس حينئذ أنه لم يجد في حياته صديقة أفضل منها.

6

كانت شرعة الصدقة الجنسية، غير المكتوبة، تستدعي إلغاء الحب من حياة توماس. فلو أنه خرق هذا الشرط لوجدت عشيقاته الآخريات أنفسهن في وضع دوني ولئن لذلك.

فقد دبر إذن لتييريزا شقةً صغيرةً مستأجرة من مستأجر حيث نقلت إلى هناك حقيبتها الثقيلة. كان راغباً في السهر عليها وحمايتها، وفي الاغباض بحضورها. لكنه لم يكن يشعر بحاجة تستدعيه لتغيير نمط حياته، ولم يكن يريد، إلى ذلك، أن يعرف أحد أنها تنام عنده. فالنوم المشترك هو جسم الجريمة في الحب.

لم يكن ينام قط مع النساء الآخريات. كان الأمر سهلاً حين يذهب لرؤيتها في بيتهن، فباستطاعته الذهاب والبقاء هذه ساعة يشاء. ولكن الأمر كان أكثر مشقة حين يأتين إلى عنده فيجد نفسه مضطراً لأن يشرح لهن بأنه سيرجعهن إلى بيتهن بعد حلول منتصف الليل. والسبب أنه يعاني من الأرق ولا يمكنه أن يغفو بوجود أحد ما في جواره. لم تكن هذه الحجة منافية للحقيقة، ولكن السبب الجوهرى كان أسوأ من ذلك، ولم يكن يجرؤ على الاعتراف به لشريكاته: في اللحظة التي تلي الجنس، كان يشعر برغبة جامحة في البقاء وحيداً. كانت تنفره فكرة أن يستيقظ في وقت متأخر من الليل ويجد نفسه بالقرب من كائن غريب. كان يمقت نهوض الزوجين عند

الصباح ولا يرغب في أن يسمعه أحد وهو يغسل أسنانه في الحمام، ثم إن ألفة الإفطار المزدوج لم تكن تستهويه.

من أجل ذلك فوجئ للغاية عندما استيقظ ووجد أن تيريزا تشد على يده بقوة! كان ينظر إليها غير مستوعب تماماً ما الذي حدث. فاستعاد الساعات التي مرّت وأحس أنه يتشق منه عطر سعادة غريبة.

منذ ذلك الحين وكلما يغبط سلفاً بالنوم سوية. وأميل تقريباً للقول بأن الهدف من الجماع بالنسبة لهما لم يكن النشوة بل النعاس الذي يعقبها. وهي، خاصة، لم تكن تستطيع أن تنام من دونه. لو صودف وبقيت وحيدة في شقتها الصغيرة (التي لم تعد إلا مجرد خدعة) كانت غير قادرة على إغماض جفن طوال الليل. أما بين ذراعيه فكانت تغفو دائماً مهما تكن درجة اضطرابها. كان يروي من أجلها بصوت خافت قصصاً يتدعوها أو ترثاً و كلمات مضحكة يعيدها بنبرة رتيبة. كانت هذه الكلمات تحول في مخيلتها إلى رؤى مشوشة تأخذ بيدها إلى الحلم الأول. كان يملك تأثيراً خارقاً على جعلها تغفو وكانت تغفو في الدقيقة التي يقرر هو أن يتقيها.

كانت تمسك به أثناء النوم كما فعلت في أول ليلة: تشد بقوة على معصميه أو على إصبع من أصابعه أو على عرقوبيه، وكان عليه أن يستعين بحيلة ما كي يفلت منها دون أن يوقظها. فيسحب إصبعه (معصميه أو عرقوبيه) من قبضتها، مما كان يجعلها تستيقظ قليلاً، ذلك أنها كانت تراقبه بانتباه حتى أثناء نومه. كان يدس في يدها بدلاً من معصميه شيئاً ما ليهدئ من روعها (بيجاما ملفوفة أو خفّاً أو كتاباً) فتضغط عليه في الحال وبقوّة كأنه قطعة من جسده.

ذات يوم كان يحاول أن يجعلها تغفو وكانت هي لا تزال في المدخل الأول للنوم وتقدر أن تردد على أسئلته. قال لها: «حسناً، إني

ذاهب الآن». سأله: «إلى أين؟». فقال لها بلهجة حازمة: «إنّي خارج». فانتصبت في سريرها وقالت: «سأذهب معك». قال: «لا، لا أريد. إنّي ذاهب للأبد». ثم خرج من الغرفة إلى المدخل. فنهضت وتبعته إلى المدخل وهي ترفرف بعينيها. كانت عارية تحت قميص قصير، وكان وجهها جاماً من دون تعابير ولكن حركاتها نشيطة. خرج من المدخل إلى الرواق (الرواق المشتركة للمستاجرین) وأغلق الباب في وجهها. ففتحت الباب بحركة عنيفة وتبعته مقتنة وهي عند حدود النوم أنه ينوي الذهاب إلى الأبد وأن عليها أن تستقيه. نزل طابقاً ثم توقف عند سفرة الدرج وانتظرها. فلحقت به وأمسكته من يده وأعادته إلى قربها في السرير.

فكّر توماس: إنّ مضاجعة امرأة والنوم معها رغبات ليستا مختلفتين فحسب بل متناقضتين أيضاً. فالحب لا يتجلّى بالرغبة في ممارسة الجنس (وهذه الرغبة تنطبق على عدد لا يُحصى من النساء) ولكن بالرغبة في النوم المشترك (وهذه الرغبة لا تخصّ إلّا امرأة واحدة).

7

عند منتصف الليل، أخذت تيريزا تتنحّب أثناء نومها. فأيقظها توماس ولكنها حين رأت وجهه قالت بحقد: «أغرب عن وجهي! أغرب عن وجهي!». ثم روت له ما رأته في المنام: كانا في مكان ويرفقهما سابينا، في غرفة شاسعة. كان هناك سرير في وسط الغرفة وكأنما وسط حلبة مسرح. أمرها توماس بالبقاء في الزاوية وضاجع سابينا على مرأى منها. كانت تنظر إلى هذا المشهد فيسبب لها عذاباً هائلاً. ثم أخذت تغرز إبرأً تحت أظافرها مطفلة ألم النفس بألم الجسد. «كان هذا يؤلمني بشكل فظيع»، قالت وشدّت على قبضتها كما لو أنّ يديها كانتا فعلاً مثختين بالجراح.

ضمها بين ذراعيه (كانت ترتجف دون توقف) فغفت شيئاً فشيئاً وهي تعانقه.

وإذ فكر صباح اليوم التالي في هذا الحلم تذكر شيئاً. فتح درج مكتبه وأخرج حزمة رسائل من ساينما. بلحظة عشر على المقطع التالي: «أرغب في أن أضاجعلك داخل مُحترفي وكأننا على حلبة مسرح. سيكون هناك أناس حوالينا ولن يكون لهم الحق في الاقتراب. ولكن لن يتمكنوا من إشاحة بصرهم عنا...».

والأسوأ أن هذه الرسالة كانت مرفقة بالتاريخ. كانت رسالة حديثة العهد مكتوبة بعد انقضاء وقت طويل على وجود تيريزا عند توماس.

استشاط غضباً: «فتشت في رسائلي!»

قالت من دون أن تحاول الإنكار: «حسناً، بإمكانك طردي!». لكنه لم يطردها. كان يراها هناك، تلتتصق بحائط محترف ساينما وهي تغزز إبراً تحت أظافرها. فضمّ أصابعها في يديه وداعبها ثم حملها إلى شفتيه وقبلها وكان آثاراً من دم فضلاً هناك.

ولكن ابتداء من هذه اللحظة بدا وكان كل شيء يتآمر ضده. فلم يكن ليمر يوم إلا وتعرف فيه شيئاً جديداً عن مغامراته السرية.

في بادئ الأمر كان ينفي كل شيء، ولكن حين تكون الأدلة صارخة، كان يحاول أن يثبت أن لا تناقض بين حياته كرجل مرتبط بعده نساء وبين حبه لتيريزا! لم يكن منطقياً في ما يقول. فتارة كان ينفي خياناته، ويتبرأها تارة أخرى.

كان يتصل ذات يوم بصديقه له ليتفق معها على موعد. حين أغلق الخط سمع ضجة غريبة في الغرفة المجاورة، ضجة تشبه اصطدام الأسنان.

كانت قد جاءت إليه صدفة على غير علم منه. وكانت تمسك في

يدها زجاجة مهدئ وتشرب من عنقها فترتجف يدها ويرتطم زجاج
القنية بأسنانها.

هب لنجذتها كمن يريد تخلصها من الغرق. سقطت قنينة الناردين
وأحدثت بقعة كبيرة على السجادة. كانت تتخطب بين ذراعيه محاولة
الإفلات منه فظلّ ممسكاً بها هكذا لمدة ربع ساعة، إلى أن هدأت.
كان يدرك أنّ حالته متعدّر تبريرها لأنّها مبنية أصلاً على لامساواة

تمامة:

كانا قد ذهبا معاً، قبل اكتشافها لمراسلاتِه مع سابينا بوقت طويل،
إلى ملهي برقة بعض الأصحاب احتفالاً بتسلّم تيريزا وظيفتها الجديدة.
كانت قد تركت مختبر الصور لتصبح مصوّرة في المجلة. وبما أنه لا
يهوى الرقص، تولّى إذاً أحد زملائه الجدد في المستشفى أمر تيريزا،
كانا يتزلقان بخفة رائعة على حلبة الرقص، وبدت له تيريزا أجمل من
أي وقت مضى. كان مذهولاً عندما رآها تستيقن رغبة مراقصها بدقة
وانصياع وبأقلّ من ثانية بدت له هذه الرقصة وكأنّها تؤكّد أنّ إخلاص
تيريزا ورغبتها الجارفة في أن تنفذ ما يجول في خاطر توماس ليسا
مرتبطين بالضرورة بشخص توماس، إنما هما على أهبة للتجاوب مع
نداء أيِّ رجل تصادفه. لم يكن أسهل عليه من تصور تيريزا وهذا
الزميل الشاب في وضع عاشقين. كانت هذه السهولة التي كان يستطيع
معها أن يتصورهما في مثل هذا الوضع، تجرحه! كان جسد تيريزا قابلاً
 تماماً لأن يتصوره مستغرقاً في عناق عاطفي مع أيِّ جسد ذكر كان، هذه
الفكرة عكّرت مزاجه. عندما رجعوا في وقت متأخر من الليل، اعترف
لها بأنه كان يشعر بالغيرة.

كانت هذه الغيرة غير المبررة والمنبثقة من تصور نظري بحت،
برهاناً على أنه يعتبر وفاءها له شرطاً واجباً. ولكن، والحالة هذه،
كيف بإمكانه إذاً أن يستاء منها حين تغار من عشيقاته الموجودات فعل؟

أثناء النهار، كانت تيريزا تحاول جاهدة (لكن دون أن تتمكن فعلاً) أن تصدق ما ي قوله توماس وأن تكون سعيدة كما فعلت حتى الآن. غير أن الغيرة المكبوتة في النهار كانت تظهر بشكل أكثر عنفاً في أحلامها التي تنتهي دائمًا بتحبيب لا ينقطع إلا حين يوقظها توماس.

كانت أحلامها تتكرر على شكل حلقات متنوعة أو مسلسل تلفزيوني. ثمة حلم كان يتكرر باستمرار على سبيل المثال، وهو حلم الهررة التي تقفز إلى وجهها مُنشبة مخالبها في جلدتها. في الحقيقة يمكن تفسير هذا الحلم بسهولة: الهرة في اللغة التشيكية كلمة عامة تعني فتاة جميلة. كانت تيريزا إذاً تشعر أنها مهددة من النساء، كل النساء. فالنساء كلهن عشيقات محتملات لتوماس ولهذا فهي تخاف منهن.

في سلسلة أخرى من الأحلام، كانت تُرسل إلى الموت. أيقظها ذات ليلة وهي تزرع من الذعر فروت له هذا الحلم: كانت هناك بركة سباحة كبيرة مسقوفة. كنا نحو العشرين من النساء فقط. كنا جميعاً عاريات وكان علينا أن نسير الواحدة تلو الأخرى حول البركة. كانت هناك سلة كبيرة تتدلى من السقف وفي داخلها رجل يرتدي قبعة كبيرة والأطراف تخفي وجهه، لكنني كنت أعلم أنه أنت. كنت تعطينا الأوامر وتصرخ، وكان علينا أن نغنى، ونحن نسير، وثنى ركابنا، وحين تنسى امرأة أن ثنى ركبتيها، كنت تطلق عليها الرصاص من مسدس فتسقط قتيلة داخل البركة، فتأخذ الآخريات في الضحك ثم في الغناء بقوة أكبر. أما أنت فلم تكن تفارقنا لحظة واحدة، ما إن تخطي واحدة حتى تُرديها قتيلة. كانت البركة ملأى بالجثث العائمة على وجه الماء. وأنا كنت أعرف أنني لن أقدر على تنفيذ اثناءتي المقبلة وأنك ستقتلني.

أما السلسلة الثالثة من أحلامها فكانت تروي ما الذي يحدث لها بعد موتها.

كانت ترقد في عربة كبيرة للموتى شبيهة بشاحنة نقل انتشرت حولها جثث نساء لا عد لها بحيث إن الباب الخلفي بقي مفتوحاً وتدلّت منه السيقان.

كانت تيريزا تزعق: «انظروا! لست ميتة، ما زلت أحافظ بحواسِي كافية!»

- «نحن أيضاً لا نزال نحافظ بحواسنا كلّها»، قالت الجثث هازئة.
كان ضحكتهن يشبه تماماً ضحك أولئك النساء اللواتي لا يزلن على قيد الحياة، اللواتي كن يقلن لها فيما مضى ويمتعة إنّ أسنانها ستسعد وإنّ مبيضنها سيسعّدهما المرض وإنّ التجاعيد ستغزوها. وهذا طبيعي جداً، لأنّ أسنانهن، هنّ، قد فسّدت ومبغضهن أصابه المرض وقد غزّتهن التجاعيد. وهما هنّ يشرحّن لها الآن، وهنّ يضحكن الضحكة ذاتها، أنها ميتة وأنّ كل شيء متنظم.

فجأة شعرت برغبة في التبول فصرخت: «لكن بما أنا أشعر برغبة في التبول فهاكن الدليل على أنني لست ميتة!».

ومن جديد ضحكن ملء أشداقهن: «هذا أيضاً طبيعي أن تشعري برغبة في التبول، فحواسك ستبقى كما عهّدتها لوقت طويل، كمثل الأشخاص الذين بترت لهم أيديهم، إذ يتباهم الشعور بوجودها لوقت طويل. نحن أيضاً لم يعد لدينا بول ونشعر مع ذلك برغبة دائمة في التبول.

التصقت تيريزا بتوماس بقوّة في السرير وهي تقول: «كن جميعهن يخاطبني بلا كلفة وكأنهن يعرفنني منذ الأزل، كأنهن كن صديقاتي. أما أنا فكنت خائفة من أجبر على البقاء معهن إلى الأبد».

جميع اللغات المتحدرة من أصل لاتيني تصوغ كلمة «كومباسيون» أي الشفقة انتلافاً من أداة التصدير "com" مع إضافة الجذر "passio" الذي يعني في الأصل «الم». ترجم هذه الكلمة في اللغات الأخرى، في التشيكية مثلاً أو البولونية أو الألمانية أو السويدية، إلى كلمة مؤلفة من أداة تصدير مماثلة ومتبوعة بكلمة «شعور». (إلى سو - سيت soucit في التشيكية؛ wspolczucie في البولونية، mit-gefühl في الألمانية؛ med-kânsla في السويدية).

كلمة «شفقة» تعني في اللغات المتحدرة من أصل لاتيني أننا لا نستطيع أن نشاهد المأساة بقلب بارد. وبكلمة أخرى: نشعر بالتعاطف مع من يتالم. هناك كلمة أخرى لها المعنى نفسه تقريباً وهي الرأفة (في الإنكليزية "pity" وفي الإيطالية "pietà"، إلخ). وهي توحى أيضاً بنوع من الرأفة نحو الكائن الذي يتالم. أن نشعر بالرأفة تجاه امرأة فهذا يعني أن تكون أوفر حظاً منها، وأن نحن ننزو لا حتى مستواها.

من هنا فإنَّ كلمة «شفقة» توحى عموماً بالارتياح، وهي تعني شعوراً يُعتبر أقل منزلة ولا علاقة له بالحب إطلاقاً. أن نحب أحداً شفقة به فهذا يعني أننا لا نحبه حقاً.

في إطار اللغات التي تصوغ كلمة «شفقة»، ليس من الجذر «الم» "passio" وإنما من كلمة "sentiment" أي شعور، تستعمل الكلمة في المعنى نفسه تقريباً. لكن يصعب القول إن كانت تحدد شعوراً سيناً أو وضيعاً. فالقوة الخفية الكامنة في اشتقاق هذه الكلمة تضفي عليها ضوءاً آخر وتضمنها معنى أغنى: أن نشعر بالشفقة (مشاطة الشعور) "co-sentiment" فمعنى ذلك أن نتمكن من مشاطرة الآخرة تعاسته.

بل معنى ذلك أيضاً أن نشاطه مطلق شعور آخر: الفرح أو القلق أو السعادة أو الألم. هذه الشفقة بالذات (بمعنى *soucit* و *współczucie* و *mit-gefühl*) تعني إذاً القدرة القصوى على التخيل العاطفى وفن التخاطر بين الانفعالات. وهذا الشعور هو الأسمى في سلم المشاعر.

عندما حلمت تيريزا في نومها بأنها تغزو إيرا تحت أصابعها فضحت نفسها وكشفت بذلك لتوomas أنها كانت تفتش في أدراجه سراً. لو أنّ امرأة أخرى تصرفت كذلك لكان توomas امتنع نهائياً عن التعاطي معها. وبما أنّ تيريزا كانت واعية لهذا الأمر، فقد قالت له: «اطردني». ولكن توomas لم يمتنع عن طردها فحسب، بل أمسك يدها وقبّل رؤوس أصابعها. لأنّه في هذه اللحظة كان يعاني هو أيضاً من الألم الذي كانت تشعر به تحت أظافرها، لأنّ أعصاب أصابع تيريزا متصلة مباشرة بدماغه هو.

من لا يملك الأعطية الشيطانية للشفقة (أي مشاطرة الشعور) سيُدين تصرف تيريزا ببرودة، لأنّ حياة الآخر الخاصة شيء مقدس، ولأنّه يجب ألا نفتح الأدراج حيث يحتفظ برسائله الشخصية. ولكن، وبما أنّ الرأفة أمست قدر توomas (أو لعنة حياته)، خُتيل إليه إذاً أنه هو نفسه جثا أمام درج مكتبه المفتوح، غير قادر على إشاحة بصره عن الجمل المكتوبة بيد سابينا. كان يتفهم شعور تيريزا ولم يكن قادراً على الحقد عليها فحسب، بل كان جبه لها يزداد أكثر فأكثر.

10

كانت تصرفات تيريزا تزداد فظاظة وتشوشًا. ها ستان قد مرّتا على اكتشافها خياناته، وكل شيء يسير من سيئ إلى أسوأ. كان ذلك دون خلاص.

كيف ذلك! ألا يمكنه أن يحسّم أمره مع صداقاته الجنسية؟ لا،

فهذا الأمر قد يفتهن .. لم تكن لديه القدرة ليتحكم بشهيته للنساء الأخريات . وحتى لو حصل هذا الأمر فماذا سيتفع . لا أحد مثله يعرف أن مغامراته لا تشكل أي خطر على تيريزا . فلماذا الإقلاع عنها إذا؟ كان هذا الافتراض يبدو له سخيفاً قدر ما هو سخيف الإقلاع عن الذهاب لحضور مباراة في كرة القدم .

ولكن لا يزال في المستطاع الحديث عن المتعة؟ كان ما إن يذهب لموافاة إحدى عشيقاته حتى يشعر بالعدائية حيالها مقسمًا على أنها المرة الأخيرة التي سيراهما فيها . كان يرى صورة تيريزا مائلة أمام عينيه ، وكان عليه أن يسكت على عجل كي لا يعود للتفكير فيها . فمنذ أن عرفها وهو غير قادر على مضاجعة النساء الأخريات من دون اللجوء إلى الكحول ! ولكن لهاهه الذي تفوح منه رائحة الكحول كان بمثابة دليل بسيط يفسح المجال أمام تيريزا لتكتشف خياناته بسهولة أكبر .

ها قد انغلق الفخ عليه : ما إن يذهب لموافاتها حتى لا يعود يشعر بالرغبة فيهن . ولكن ما إن يمر عليه يوم واحد دونهن ، حتى يختلق رقم هاتف ليحدد موعداً مع إحداهم .

كان يشعر أنه أحسن ما يكون عند سايينا . فهو يعرف أنها كتمة ، وعندما يكون معها عليه ألا يخشى من افتضاح أمره . كانت ذكرى حياته النموذجية كرجل عازب تطفو أمامه في المحترف مثل ذكرى غابرة .

ربما لم يكن يدرك هو نفسه إلى أي حد قد تغير : كان يخاف أن يرجع متاخرًا إلى البيت لأن تيريزا في انتظاره . لاحظت سايينا ذات مرة أنه كان ينظر إلى ساعته خلال المضاجعة ، وأنه كان يسعى إلى تسريع النهاية .

ثم أخذت تجول المحترف عارية وبمشية متكسرة . ثم توقفت أمام لوحة غير مكتملة موضوعة على حامل اللوحات ، وأخذت تسترق النظر

إلى توماس الذي كان يرتدي ثيابه على عجل .
ارتدى ثيابه وظللت إحدى قدميه عارية . فنظر حواليه ثم زحف وأخذ يفتش عن شيء ما تحت الطاولة .

قالت : « حين أنظر إليك ، أشعر أنك موشك على التماطل مع موضوع لوحاتي الأبدى : التقاء عالمين في عرض مزدوج . فمن خلف هيئة توماس الإباحي وجه لا يصدق للعاشق الرومانسي . أو على العكس : من خلال صورة تريستان الذي لا يفكر إلا في تيريزا يلوح العالم الجميل المعدور للإباحي » .

انتصب توماس وسمع بأذن شاردة كلمات ساينيا :
« سأله : عمَّ تفتش ؟
- عن جوربي .

فتشت معه في الغرفة ثم زحفت وأخذت تبحث تحت الطاولة :
- قالت ساينيا : لا يوجد جورب هنا .. من المؤكد أنك نسيت أن ترتديه قبل مجئك .
- كيف لم أرتديه ! زعق توماس وهو ينظر إلى ساعته . فلم آت بجورب واحد طبعاً .
- ليس هذا بأمر مستبعد . أنت ساهمُ معظم الوقت منذ فترة .
مستعجل دائماً وتنظر إلى ساعتك . ليس بالمستغرب إذاً أن تكون قد نسيت ارتداء جوربك » .

عندها قرر أن يرتدي حذاءه حتى يقدم عارية .

« الجو بارد في الخارج ، قالت ساينيا . سأغيرك جورباً .

كان يعرف جيداً أن هذه طريقة للانتقام . لقد قامت بإخفاء جوربه لتعاقبه على أنه نظر إلى ساعته خلال الجماع . ولكن مع هذا البرد في

الخارج لم يتبق له إلا الخضوع. رجع إلى البيت وهو يرتدي جورباه في قدم، وفي القدم الأخرى جوربأاً نسائياً أبيض ملفوفاً عند عرقوبه.

كان واقعاً في ورطة لا خلاص منها: ذلك أنه كان موسوماً في نظر عشيقاته بالوصمة الشائنة لحبه لتيريزا، وموسوماً في نظر تيريزا بالوصمة الشائنة ل GAMERاته مع عشيقاته.

11

تزوجها ليخفف من عذابها، (صار في إمكانهما أخيراً أن يلغيا عقد الإيجار من المستأجر، فهي لم تسكن في الشقة الصغيرة منذ فترة بعيدة) واقتني لها جرو كلب صغيراً.

كانت الكلبة الأم من فصيلة سان - برنار تخص زميلاً لتوomas، والأب عسبور أحد الجيران من فصيلة (الكلب الذئب). لم يعد أحد منهما راغباً في تربية هجناء صغار، وكانت فكرة قتلها تعذب زميله.

كان على توماس إذاً اقتناه أحد الجراء عارفاً أن الجراء التي لا يقتنيها ستموت. كان يشعر بأنه مثل رئيس جمهورية يقف أمامه أربعة محكومين بالإعدام، وهو لا يمكنه أن يعفو إلا عن واحد فقط. وفي النهاية اختار أحد الجراء وكان أثني يشبه جسدها أبيها العسبور ورأسها يذكر بأمها (السان - برنار). أخذها إلى تيريزا فحملت العبرة وضمتها إلى صدرها فباتت فوراً على قميصها.

وجب عليهما بعد ذلك إيجاد اسم للكلبة. كان توماس يرغب في اسم يعرف الآخرون من خلاله بأن هذه الكلبة تخص تيريزا دون غيرها. فتذكر عندي الكتاب الذي كانت تتأبّطه حين جاءت إلى براوغ دون أن تعلمه. واقتصر بأن تسمى الكلبة «تولستوي».

لكن تيريزا احتجت:

- «لا يمكنك أن تسمّيها تولستوي فهي أنتي. فلنسمّها بالأخرى آنا كارنينا».

- ليس في الإمكان تسميتها آنا كارنينا، لأن لا وجود لامرأة تملك مثل هذا الفم الضحوك، قال توماس. فلنسمّها كارنينا بالأخرى، أجل كارنينا، هذه بالضبط الصورة التي تخيلتها فيها.

- لكن ألن تُربك تسميتها كارنينا حياتها الجنسية؟

- محتمل، قال توماس. أن تصير الكلبة ذات ميول سحاقيّة إذا ناداها أصحابها باسم كلب.

وأغرب ما في الأمر أن تكهن توماس كان في محله. تتعلق الكلبات عادة ب أصحابها أكثر مما تتعلق ب أصحابتها. ولكن حالة كارنينا كانت بخلاف ذلك. قررت أن تتعلق بتيريزا وكان توماس ممتناً لها.. كان يداعب رأسها وهو يقول: «أنتِ على حق يا كارنينا. هذا بالضبط ما كنت أنتظره منك. بما أنني لن أتوصل إلى ذلك بمفردي وجب عليك أن تساعديني».

ولكنه لم يكن يتوصّل إلى إسعاد تيريزا حتى بمعونة كارنينا. أدرك ذلك بعد مرور عشرة أيام على احتلال الدبابات الروسية لبلاده. كان ذلك في آب/أغسطس 1968 وكان يتصل بتوماس يومياً مدير مستوصف خاص في زوريخ كان تعرّف إليه خلال مؤتمر عالمي. كان خائفاً على مصير توماس فعرض عليه الذهاب لتولي منصب هناك.

12

إذا كان توماس قد رفض بلا تردد عرض الطبيب السويسري فهذا بسبب تيريزا.. كان يعتقد أنها لا ترغب في الذهاب إلى هناك. من جهة أخرى، أمضت تيريزا الأيام السبعة الأولى من الاحتلال في حالة

من الرعدة أشبه بالسعادة. كانت تجول الشوارع وفي يدها آلة تصوير. كانت توزع أفلامها على الصحفيين الأجانب الذين يتقاتلون للحصول عليها.. وذات يوم أظهرت جسارة فائقة والتقطت عن قرب صورة لضابط روسي وهو يشهر مسدسه في وجه المتظاهرين. فأُلقي القبض عليها وأمضت ليلة في المركز الروسي العام. ومع أنهم هددوها بالقتل عادت لتلتقط الصور في الشوارع ما إن أطلقوا سراحها.

لكن كم كانت دهشة توماس كبيرة عندما قالت له في اليوم العاشر للاحتلال:

- «أحقاً لا تريد الذهاب إلى سويسرا؟

- ولماذا أذهب؟

- هنا يريدون محاسبتك».

فاستدرك توماس بلهجة مستسلمة:

- ومن لا يريدون محاسبته. ولكن قولي لي: هل أنت قادرة على العيش في الخارج؟

- وما الذي يمنع؟

- بعدما رأيتكم مستعدة للتضحية بحياتكم من أجل بلادكم، أسئل الآن كيف بإمكانكم أن تغادريها؟

- «مذ رجع دوبتشك، تغير كل شيء». قالت تيريزا.

كان هذا صحيحاً: المرح العام لم يدم إلا فترة الأيام السبعة الأولى للاحتلال.. ذلك أن الجيش الروسي اقتاد رجال الدولة التشيكيين وكأنهم مجرمون. لا أحد كان يعرف أين مكانهم، وكان الجميع خائفين على مصيرهم، وكان الحقد على الروس يُسكر مثل الكحول. كانت تلك أيام العيد المskر للكرابية. كانت تغطي مدن بوهيميا آلاف الملصقات المرسومة باليد والمرفقة بكتابات تهكمية،

وقصائد هجاء ورسوم كاريكاتورية تصور بريجنيف وجيشه. كان الجميع يهزأون منه كمن يهزأ من فرقة مهرجين جهلاء. ولكن لا يمكن لعبد أن يستمر إلى الأبد. خلال هذا الوقت كان الروس قد أرغموا رجال الدولة التشيكيين المخطوفين على توقيع تسوية في موسكو. ثم رجع دوبتشك مع هذه التسوية إلى براغ وقرأ خطابه عبر الإذاعة. كانت أيام الاحتجاز الستة قد أضفته إلى درجة لم يعد يستطيع معها الكلام إلا بصعوبة. كان يتأنى ويلتقط أنفاسه عند متصرف كل جملة مسجلاً وقوفات لا تنتهي تدوم ما يقارب نصف الدقيقة.

أنقذت التسوية البلاد مما هو أسوأ: الإعدامات، والنفي بالجملة إلى سiberيا الذي كان يخيف الجميع. ولكن شيئاً واحداً بدا واضحاً في تلك الساعة: كان على بوهيميا أن تتحنى أمام الغازي وأن تتأني إلى الأبد وأن تلتقط أنفاسها كما فعل ألكسندر دوبتشك. فالعبد انتهى وتم الدخول في معرك الذل اليومي.

كانت تيريزا تشرح كل هذا لتوomas وكان يعلم أن ما تقوله صحيح. لكن خلف هذه الحقيقة يختبئ سبب آخر أكثر أهمية وهو ما يجعل تيريزا راغبة في ترك براغ: أصبحت حياتها هنا تعيسة.

عاشت أجمل أيام حياتها وهي تلتقط صوراً للجنود الروس في شوارع براغ، معرضاً نفسها للخطر. خلال تلك الأيام فقط انقطع المسلسل التلفزيوني لأحلامها، وصارت لياليها ناعمة البال. فقد حمل الروس لها الصفاء مع دباباتهم. أما الآن وقد انتهى العيد، عادت تخف من لياليها وترغب في الفرار منها. وبعد أن اكتشفت أن هناك ظروفاً معينة تستطيع أن تشعر فيها أنها أكثر قوة ورضا عن ذاتها، وقد رغبت في السفر عليها تحظى بظروف مماثلة هناك.

- «ألا يزعجك أن تكون سابينا هاجرت إلى سويسرا؟». سأل توomas.

قالت تيريزا: جنيف ليست زوريخ. هناك ستزعجني أقل مما كانت نزعجني في براغ، أنا متأكدة.

ليس بعيداً من يرغب في ترك المكان الذي عاش فيه. امثلت توماس لرغبة تيريزا هذه في الهجرة كما يمثل متهم لحكم المحكمة. فخضم للأمر وألفى نفسه فيما بعد بصحبة تيريزا وكارينا في أكبر مدينة من مدن سويسرا.

13

اشترى توماس سريراً ليتمكن من الإقامة في منزل جديد فارغ (إذ لم يكن في حوزتهما مال لشراء أثاث آخر) وأكبَّ على العمل بهمَّة رجل مسحور يبدأ حياة جديدة وهو في سن الأربعين.

اتصل مرات عديدة بسابينا في جنيف.. من حسن حظها أنها كانت تفتح معرضها هناك قبل ثمانية أيام من الاجتياح الروسي، فاشترى هواة الرسم السويسريون جميع لوحاتها بداعي التعاطف مع بلدتها الصغير.

«أصبحت ثرية بفضل الروس!». قالت وهي تقهقه عبر الهاتف. ثم دعت توماس لزيارة محترفها الجديد مؤكدة له أنه لا يختلف في شيء عن محترفها في براغ.

كان راغباً بكل طيبة خاطر في الذهب لرؤيتها ولكنه لم يكن يجد ذريعة ليبرر سفره أمام تيريزا. وهذا ما دفع بسابينا للمجيء إلى زوريخ. نزلت في أحد الفنادق. ذهب توماس لرؤيتها بعد انتهاءه من عمله وأنبأها بقدومه من مكتب الاستعلامات ثم صعد إلى غرفتها. فتحت له الباب ثم انتصبت أمامه على ساقيها الجميلتين الرشيقتين وهي متعرية إلا من سلبيب وصدرية. كانت تضع على رأسها قبعة وتمعن النظر إلى

توماس من دون أن تتحرك أو تنبس بكلمة. وبقي توماس هو أيضاً جاماً وصامتاً. ثم أحس أنه كان منفعلاً جداً. فنزع القبعة عن رأسها ووضعها على طاولة السرير ثم تضاجعا دون أن ينبعا بكلمة.

عندما قفل عائداً من الفندق إلى منزله في زوريغ، (المؤثر منذ فترة طويلة بطاولة وكراسي وكنبات وسجادة) فكر وهو مغتبط بأنه يحمل معه نمط حياته كما تحمل الحلزونة بيتها. كانت تيريزا وسايينا تولفان قطبي حياته، قطبين متبعدين ومتناقضين، ومع ذلك، جميلين.

وبما أنه كان يحمل معه نمط حياته إلى كل مكان كشيء زائد في جسده، كانت تيريزا تستمر في رؤية الأحلام نفسها.

بعد أن مرّت على وجودهما في زوريغ ستة أو سبعة أشهر، وجد عند عودته متأخراً ذات مساء، رسالة على الطاولة. كانت تخبره فيها أنها رجعت إلى براغ، وأنها رحلت لأنها لم تعد تقوى على العيش في الخارج.. كانت تعي جيداً أنه يفترض بها أن تكون سندأ لتوماس لكنها تعي أيضاً أنها غير قادرة على ذلك. كانت لسذاجتها تظن أن الحياة في الخارج سوف تغيرها. إذ خُيل إليها أنها لن تعود خسيسة بعدما عايشت أيام الاجتياح، بل سوف تصبح من الآن فصاعداً ناضجة ومتعلقة وشجاعة. إلا أنها بالفت في تقدير نفسها. فاكتشفت لاحقاً أنها بمثابة عباء عليه وهذا بالضبط ما لم تكن ترغب فيه. فأرادت استدراك التائج قبل فوات الأوان. وليس مرحها أيضاً لأنها اصطحبت كارنينا معها.

تناول حبوباً منومة من عيار قوي لكن لم يغمض له جفن حتى الصباح، ومن حُسن الحظ أن اليوم كان يوم سبت وفي إمكانه البقاء في منزله. للمرة الخمسين راجع الموقف برمتته: لم تعد الجدود بين بوهيميا وبقية دول العالم مفتوحة كما كانت إبان الفترة التي سافرا فيها. فلا البرقيات ولا الاتصالات كانت لتعيد تيريزا، لأن السلطات لن

تسمح لها بالخروج. كان رحيل تيريزا نهائياً وكان هو غير قادر على أن يصدق ذلك.

14

كانت فكرة أنه عاجز عن فعل شيء تغرقه في حالة من الذهول وتهديء من روّعه في آن. لا أحد كان يجبره على أن يأخذ قراراً. ولا عاد بحاجة إلى تأمل حائط المبني المقابل وهو يتساءل إذا كان راغباً في العيش معها أم لا. لقد قررت تيريزا بنفسها كل شيء.

ذهب ليتناول غداءه في مطعم. كان يشعر أنه حزين. لكن يأسه الأولى أخذ يتلاشى، أثناء تناوله الوجبة، وكأنه قد فتّر وفقد من زخمه، مُخلياً المكان للكابة. كان يستعيد السنوات التي أمضتها برفقتها ويفكر أن قصتهما لا يمكنها أن تنتهي بشكل أفضل. فحتى لو خُلقت من جديد لما فدر لها أن تنتهي بطريقة أخرى:

ذات يوم جاءت تيريزا لزيارته دون أن تعلم. وذات يوم رحلت بالطريقة نفسها، وصلت مع حقيقة ثقيلة وعادت بحقيقة ثقيلة.

دفع ثمن الغداء وخرج من المطعم، ثم ذهب للقيام بجولة في الشوارع مفعماً بكآبة كان شعوره بلذتها يتزايد. وراءه سبع سنوات مع تيريزاوها قد اكتشف الآن أن هذه السنوات هي أجمل في الذكرى منها في الواقع.

كان الحب بينه وبين تيريزا جميلاً، بكل تأكيد، ولكنه كان متعيناً وجوب عليه دائماً أن يخفي أمراً ما، وأن يتكتم، وأن يستدرك، وأن يرفع من معنوياتها، وأن يواسيها، وأن يثبت باستمرار حبه لها، وأن يتلقى ملامات غيرتها وألمها وأحلامها، وأن يشعر بالذنب، وأن يبرر نفيه وأن يعتذر.. الآن لقد زال التعب ولم تبق إلا الأشياء الجميلة.

كانت سهرة السبت لا تزال في بدايتها. وكان يتجلو وحيداً للمرة الأولى في زوريخ ويتشق عميقاً عطر حريته. ها إنَّ المغامرة تترصد له عند زاوية كل شارع، وها إنَّ المستقبل يرجع غامضاً من جديد.. كان يعود إلى حياته كعازب، هذه الحياة التي كان على يقين من أنه مقدر لها، لأنها الحياة الوحيدة التي يمكن أن يكون فيها الشخص الذي هو حقاً.

عاش سبع سنوات متقيداً بتييريزا، وتيريزا لاحقت بنظراتها كل خطوة من خطواته، كما لو أنها أوثقت قدميه بكرة المحكومين بالإعدام. أما الآن فقد صارت خطوطه فجأة أكثر خفة.. كان يحلق تقريباً في فضاء بارمينيدس السحري: كان يتذوق الطعم العذب لخفة الكائن.

هل كان راغباً في الاتصال بسابينا في جنيف أو مخابرة إحدى نساء زوريخ اللواتي تعرف إليهن مؤخراً؟ لا لم تكن لديه أدنى رغبة في ذلك. كان يعرف أنَّ ذكرى تيريزا سوف تسبب له ألمًا مبرحاً إنْ هو اجتمع بواحده أخرى.

15

دام هذا الافتتان الغريب الكثيف حتى مساء الأحد. نهار الإثنين تغير كل شيء. غزت تيريزا فكره فجأة: كان يحسّ بما كانت تعانيه وهي تكتب رسالتها الوداعية. أحسّ كم أن يديها ارتجفنا. كان يراها تجرّ حقيقتها الثقيلة ورسن كارنينا باليد الأخرى، وكان يتخيّلها تدبر المفتاح في قفل الشقة في براغ فيشعر بأسى الوحدة يعصف في وجهها عندما تفتح الباب.

كان شعوره بالشفقة، (العنة تبادل العواطف من شخص لأخر) خلال هذين اليومين من الكآبة العذبة، يستريح. كانت الشفقة ترقد كما

يرقد عامل المنجم يوم الأحد بعد أسبوع مضي لكي يتمكن من العودة للعمل في الأعماق نهار الإثنين.

كان توماس يعاين مريضاً في عيادته فإذا به يتخيّل تيريزا مكانه. فذَرَ نفسه: لا تفكّر فيها! لا تفكّر فيها! وقال في نفسه: أنا مريض بالشقيقة. جيد أنها فكرت في الذهاب وأنني لن أراها بعد اليوم. علىَّ أن أتحرّر ليس منها فحسب بل من شفقتني أيضاً، ذلك المرض الذي لم يكن لي عهد به والذي انتقلت إلىَّ جرثومته العصبية على الشفاء.

كان قد أحسَّ يومي السبت والأحد بعذوبة خفة الكائن تأتيه من عمق المستقبل. أما يوم الإثنين فأحسَّ نفسه تحت ثقل حمل لا عهد له به من قبل. فالأطنان الحديدية للدبابات الروسية مجتمعة لم تكن شيئاً مقارنة بهذا الحمل. إنَّ المُنا الشخصي ليس أثقل من الألم الذي نعانيه مع الآخر ومن أجل الآخر وفي مكان الآخر؛ ألم يضاعفه الخيال وترجعه مئات الأصداء.

كان ينهر نفسه ويأمرها بـألا تتمثل للشقيقة، وكانت الشقيقة تُصغي إليه حانة الرأس كأنها متهم. كانت الشقيقة تعرف بأنها تتجاوز حدودها ولكنها ظلت تعاند سرًا. مما حدا توماس بعد خمسة أيام من رحيل تيريزا على إبلاغ رئيس العيادة (وهو الشخص ذاته الذي كان يتصل به يومياً في براغ إبان الاجتياح الروسي) بأنَّ عليه أن يعود على وجه السرعة. كان يشعر بالخجل عارفاً بأنَّ المدير سيجد تصرّفه هذا غير مسؤول ولا يُغتفر. رغب ألف مرة في أن يعترف له بكل شيء وفي أن يحدّثه عن تيريزا والرسالة التي تركتها على الطاولة. ولكنه لم يفعل. إنَّ طبيباً سويسرياً لا يمكنه أن يرى في تصرّف تيريزا غير عمل هستيري يسبب الغيظ. وتوماس لن يسمح لأحد بأن يُسيء الفتن بتيريزا.

كان المدير مغتاظاً بالفعل.

هزّ توماس كتفيه وقال: «ليس من ذلك بدّ». كان ذلك تلميحاً إلى العبارة الموسيقية الأخيرة من رباعية بيتهوفن الأخيرة التي تتألف من هاتين الفكريتين.

اليس من ذلك بدّ؟

ليس من ذلك بدّ. ليس من ذلك بدّ.

ولكي يكون معنى هذه الكلمات واضحاً جلياً، دون بيتهوفن في مطلع العبارة الموسيقية الأخيرة الكلمات التالية: «القرار الموزون بصرامة».

كان توماس يجد نفسه، من الآن، بفضل هذا التلميح إلى بيتهوفن، في جوار تيريزا. فهي كانت أجبرته على شراء أسطوانات لرباعيات بيتهوفن وسوناتاته.

في آية حال، كان هذا التلميح مؤاتياً أكثر مما تصور، فالمدير كان مولعاً بالموسيقى. قال له وهو يبتسم ابتسامة مشرقة مقلداً بصوته نَعَم بيتهوفن: «أليس من ذلك بدّ؟»

وقال توماس مرة أخرى: «أجل، ليس من ذلك بدّ».

16

يبدو أنَّ بيتهوفن بخلاف بارمينيدس، كان يعتبر الثقل شيئاً إيجابياً. فعبارة «القرار الموزون بصرامة» مقرونة بصوت القدر («ليس من ذلك بدّ»). إذاً الثقل والضرورة والقيمة ثلاثة مفاهيم متلازمة جوهرياً: لا شأن إلا لما هو ضروري، ولا قيمة إلا لما له وزن.

هذه القناعة نابعة من موسيقى بيتهوفن. ومع أنه من الممكن (إن لم يكن على الأرجح) أن تقع مسؤوليتها على شارحي بيتهوفن أكثر مما تقع على بيتهوفن نفسه، فإننا جميعاً نشاطرها اليوم: فما يصنع عَظَمة

الإنسان بالنسبة لنا هو أن يحمل قدره كما كان «أطلس» يحمل قبة السماء فوق كتفيه. إنّ البطل البيتهوفن رجاع يرفع أنقالاً ميتافيزيقية.

كان توماس يسير باتجاه الحدود السويسرية، وفي تصوري أنّ بيتهوفن كان شخصياً بحسبه المقطب وشعره الأشعث، يديير جوقة موسيقى الإطفائيين المحليين عازفاً على شرف وداعه للهجرة لحن مارش عسكري عنوانه: «ليس من ذلك بدّا».

ولكته وجد نفسه، بعد عبوره الحدود التشيكية، وجهاً لوجه أمام رتل من الدبابات الروسية. فأوقف سيارته عند مفرق طريق وانتظر مدة نصف ساعة إلى أن مرّت.

تمرّكز جنديٌّ دبابةٌ مخيفٌ يرتدي بدلة سوداء وسط مفرق الطرق وأخذ ينظم السير وكأنّ طرق بوهيميا تحصنه هو دون سواه.

«ليس من ذلك بدّا!». كان توماس يردد في نفسه ولكنه لم يلبث أن يشك في ذلك: «أكان لا بدّ من ذلك حقاً؟».

نعم، كان البقاء في زوريخ وترك تيريزا وحدها في براغ، أمراً غير محتمل.

ولكن كم من الوقت كان سيمّ والشفقة تعذبه؟ الحياة بطولها؟ أم سنة؟ أم شهر؟ أم أسبوع واحد؟

كيف بإمكانه أن يعرف، كيف بإمكانه أن يتحقق من ذلك؟

يمكن لأي طالب خلال قيامه بالتمارين العملية للفيزياء، أن يقوم بتجارب معينة لإثبات صحة الافتراض العلمي. أما الإنسان فلا يملك إلاّ حياة واحدة ولا يملك أية إمكانية لإثبات الافتراض عبر التجربة.. لذلك، فهو لن يعرف أبداً إن كان على حق أم لا في امثاله لشعوره.

هذا ما كان يفكر فيه وهو يفتح باب الشقة. قفزت كارنينا إلى وجهه مما سهل لحظة اللقاء. كانت الرغبة في الارتماء بين ذراعي

تيريزا، (هذه الرغبة التي كانت تجتاحه لحظة صعوده إلى السيارة في زوريخ)، قد تلاشت تماماً. لقد كانا يقفن وجهًا لوجه وسط سهل يغطيه الثلج وكانا يرتجفان من البرد.

17

منذ اليوم الأول للاحتلال والطائرات الروسية تحلق طوال الليل في أجواء براغ. كان توماس غير قادر على النوم لأنَّه فقد التعود على هذه الضجة. أخذ يتقلب في جميع الاتجاهات إلى جانب تيريزا المستقرة في النوم. كان يفكر في حديث جرى منذ سنوات تحدثاً خالله عن صديقه ز...، حيث صرَّحت له آنذاك بذلك: «لو لم ألتقي بك لوقعت في غرامه بالتأكيد».

منذ ذلك الحين أغرت هذه الكلمات توماس في كآبة غريبة. كأنَّه فهم فجأة أنَّ الصدفة هي التي جعلت تيريزا تتيئم به هو بدلاً من صديقه ز...، وأنَّه يوجد، خارج نطاق حبها المتحقق لتوماس، إمكانات لا حصر لها من احتمالات الواقع في غرام رجال آخرين.

في اعتقادنا جميعاً أنه لا يُعقل لحبّ حياتنا أن يكون شيئاً ما خفيفاً، دون وزن. كلنا نتصور أنَّ حبنا هو قدرُنا وأنَّ حياتنا من دونه لن تعود حياتنا. كما وأننا نقنع أنفسنا بأنَّ بيتهوفن شخصياً بحسبه المقطَّب وشعره الأشعث، يعزف من أجل حبنا الكبير لحن: «ليس من ذلك بدّ».

كان توماس يتذكر تعليق تيريزا حول صديقه ز... مستنتاجاً أنَّ قصة حب حياته لا ترتكز في النهاية على «ليس من ذلك بدّ»، بل تستند بالأحرى إلى «كان من الممكن أن يحدث هذا تماماً بطريقة مغايرة...».

لسبع سنوات خَلَّتْ أُعلنَ «صُدفة» عن وجود حالة خطيرة لالتهاب السحايا في مستشفى المدينة التي تسكن فيها تيريزا. فاستدعي رئيس القسم في المستشفى الذي كان توماس يعمل فيه لمعاينة هذه الحالة على وجه السرعة. ولكن، وعلى سبيل «الصادفة»، كان رئيس القسم يعاني من ألم عرق النّسا، ولم يكن بإمكانه أن يتحرك. فأرسل توماس نيابة عنه إلى ذلك المستشفى الريفي.. كان في المدينة خمسة فنادق، ولكن توماس نزل «صُدفة» في الفندق الذي تعمل فيه تيريزا. وجلس «صادفة» في مشرب الجمعة لتمضية الوقت قبل مجيء القطار. وكانت تيريزا تقوم بعملها «صادفة» فقدَّمَتْ «صُدفة» المشروب لتوماس. وهكذا وجب إذاً وجود حلقة من ست صُدفٍ لتدفع بتوماس إلى تيريزا. وكانه في حال ترك لذاته، لما كان اقتاده شيءٌ إليها.

رجع إلى بوهيميا من أجلها. إنَّ قراراً بهذه الأهمية يستند إلى علاقة حب هي من العَرضية بحيث إنها لم تكن لتبصر النور لو لم يُصبِّ رئيس القسم بعرق النّسا منذ سبع سنوات.وها إنَّ هذه المرأة التي هي التجسيد المطلق للصادفة، تنام الآن إلى جانبه وهي تتنفس تنفساً عميقاً.

كان الوقت متاخراً وبدأ توماس يشعر بألم في معدته، كما يحصل له عادة في لحظات الضيق.

تحولَّ تنفس تيريزا لمرة أو لمرتين إلى غطيط خفيف. لم يكن توماس يشعر بأدنى شعور من الشفقة. شعور واحد فقط: ضغطٌ في فجوة معدته، وخيبة من قراره بالعودة.

القسم الثاني

الروح والجسد

1

ستكون سذاجة من قبَل الكاتب أن يجعل القارئ يعتقد أن شخصياته وُجِدت فعلاً. لا، هي لم تخلق من جسد امرأة أم بل من بعض جمل موحية أو من موقف حرج. توماس مثلاً خُلِقَ من جملة: مرة واحدة لا تُحسب، مرة واحدة هي أبداً. أما تيريزا فُخُلِقتَ من بعض قرقرات معوية.

حين تخطت في المرة الأولى عتبة شقة توماس، أخذت أمها تقرقر. يجب ألا تُفاجأ فهي لم تتناول غدائها ولا عشاءها بعد، بل اكتفت بسندويش تناولته آخر الصبيحة على رصيف المحطة، قبل أن تصعد إلى القطار. ذلك أنها كانت مأخوذة بفكرة سفرها الجريئة مما أنساها الأكل. لكن حين لا نهتم بجسدها، نصير عنديَّن ضحايا له بسهولة. أي عذاب في أن تسمع بطنها يتكلم وهي تقابل توماس! أوشكت أن تبكي. ولكن توماس، لحسن الحظ، عانقها بعد عشر ثوانٍ واستطاعت بذلك أن تنسى أصوات بطنها.

خُلِقَتْ تيريزا إِذَاً مِنْ حَالَةٍ تَعْبَرُ بِشَكْلٍ سَافِرٍ عَنْ ثَانِيَةِ الْجَسْدِ وَالرُّوْحِ، تِلْكَ التَّجْرِيْبَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْأَسَاسِيَّةُ.

قَدِيمًاً، كَانَ الإِنْسَانُ يَسْمَعُ بِدَهْشَةٍ هَذَا الضَّرْبُ الْمُتَظْمَمُ الَّذِي يَأْتِيهِ مِنْ عَمْقِ صَدْرِهِ، وَيَتْسَاءِلُ عَمَّا يَكُونُ. لَمْ يَكُنْ يَأْمُكَانُهُ أَنْ يَعْدَ نَفْسَهُ مَمَاثِلًا لِشَيْءٍ مَجْهُولٍ وَغَرِيبٍ اسْمُهُ الْجَسْدُ. كَانَ الْجَسْدُ بِمَثَابَةِ قَفْصٍ، فِي دَاخِلِهِ شَيْءٌ مَا يَنْظَرُ وَيَسْمَعُ وَيَخَافُ وَيُفْكِرُ وَيُدْهَشُ. وَهَذَا الشَّيْءُ، هَذِهِ الْبَقِيَّةُ الْبَاقِيَّةُ، هَذِهِ النَّتِيْجَةُ الْحَاصِلَةُ عَنِ الْجَسْدِ، هُوَ الرُّوْحُ.

الْيَوْمُ، كَفَّ الْجَسْدُ بِالْتَّأْكِيدِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِغَزَّاً: فَالَّذِي يَدْقُ في الصَّدْرِ هُوَ الْقَلْبُ كَمَا بَاتَ مَعْرُوفًا، وَالْأَنْفُ لَيْسَ إِلَّا نَهَايَةُ الْقَصْبَةِ الْثَّالِثَةِ عَنِ الْجَسْدِ الَّتِي تَوَصِّلُ الْأُوكْسِيْجِينَ إِلَى الرَّئِتِينِ. أَمَّا الْوَجْهُ فَهُوَ لَوْحَةُ دَقَّةِ الْقِيَادَةِ الَّتِي تَرْسُو عَلَيْهَا أَعْمَالُ الْجَسْدِ كُلَّهَا: الْهَضْمُ وَالنَّظَرُ وَالسَّمْعُ وَالْتَّنْفِسُ وَالْتَّفْكِيرُ.

لَحْظَةً اسْتَطَاعَ الإِنْسَانُ أَنْ يَسْمَيِّ أَجْزَاءَ الْجَسْدِ، صَارَ الْجَسْدُ يُشَغِّلُهُ أَقْلَى. كُلُّنَا نَعْرُفُ أَنَّ الرُّوْحَ مَا هِيَ إِلَّا نَتِيْجَةُ نَشَاطِ الْمَادِهِ السِّنْجَابِيَّهِ فِي الدَّمَاغِ. وَأَنَّ ثَانِيَةَ الرُّوْحِ وَالْجَسْدِ اخْتَفَتْ خَلْفَ عَبَاراتِ عَلْمِيَّهِ، وَهِيَ لَمْ تَعْدِ الْيَوْمَ إِلَّا مَزَاعِمَ عَفَا عَلَيْهَا الزَّمْنُ، وَمُثِيرَهُ لِلْسَّخْرِيَّهِ. لَكِنْ يَكْفِي أَنْ نَحْبَ حَتَّىِ الْجَنُونَ وَأَنْ نَسْمَعَ مَعَ ذَلِكَ أَمْعَانَا تَقْرَرُ فَتَخْتَفِي مَقْوِلَهُ وَحْدَهُ الْجَسْدُ وَالرُّوْحُ، وَيَخْتَفِي مَعَهَا ذَلِكَ الْوَهْمُ الْمُثَالِيُّ لِلْعَصْرِ الْعَلْمِيِّ.

كَانَتْ تَحَاوُلُ أَنْ تَرَى رُوحَهَا مِنْ خَلَالِ جَسْدِهَا. لِذَلِكَ كَانَتْ تَنْظَرُ مَرَارًا إِلَى نَفْسِهَا فِي الْمَرَآةِ. وَبِمَا أَنَّهَا كَانَتْ تَخَافُ مِنْ أَنْ تَبَاغِتْهَا أَمْهَا وَهِيَ فِي هَذَا الْوَضْعِ، فَإِنْ هَذِهِ النَّظَرَاتِ كَانَتْ تَحْمِلُ إِذَاً طَابِعَ آفَةِ سَرِيَّهِ.

لم يكن اعتدادها بنفسها هو الذي يجذبها إلى المرأة، بل دهشتها من اكتشافها لذاتها فيها. كانت تنسى أنها أمام لوحة الدقة التي تخصّ أعمال الجسد. كانت تظن أن روحها تنكشف عبر ملامح وجهها، ناسية أن الأنف هو نهاية القصبة التي توصل الهواء إلى الرتتين، لترى فيه تعبيراً صادقاً عن طبيعتها.

كانت تتأمل نفسها طويلاً في المرأة. وكان يزعجها أحياناً أن ترى على وجهها ملامح وجه أمها. لذلك، كانت تواصل بعناد متزايد النظر إلى نفسها في المرأة، وهي ترکز كل جهودها لتتنزع عنها سيماء أمها فيصير الوجه صفة بيضاء لا يتبقى عليها إلا ما يخصها هي. كانت اللحظة التي تستطيع فيها أن تنبع في ذلك لحظة مُسكرة: كانت الروح حينئذ تطفو على سطح الجسد شبيهة بطاقم يقفز من قلب السفينة ويحتاج الجسر ملواحاً بذراعيه نحو السماء، وهو يغتني.

4

لم تكن تشبه أمها من ناحية الشكل فحسب إنما أشعر أحياناً أن حياتها أيضاً ليست إلا امتداداً لحياة أمها. كما أن جريان كرة البليارド هو امتداد للحركة التي قامت بها ذراع اللاعب.

متى وأين بدأت هذه الحركة التي تحولت فيما بعد إلى حياة تيريزا؟

كان ذلك بالضبط حين امتدح تاجر من براغ جمال ابنته، أم تيريزا. كانت الأم حينذاك في سنّ الثالثة أو الرابعة، وكان يقول لها إنها تشبه عذراء (مادونا) رافائيل. فحفظت هذا الأمر جيداً، وبدل أن تصفعي، وهي على مقاعد الدراسة، للأستاذ، كانت تتساءل أي رسم يمكن أن تشبه.

عندما صارت في السن التي تؤهلها للزواج، كان لديها تسعة عشاق. كانوا يطوقونها جاثين أمامها، وهي في وسط هذه الدائرة مثل أميرة. ولم تكن تعرف أيهم اختار: فال الأول كان الأجمل ، والثاني الأرهف ، والثالث الأكثر ثراء ، والرابع الأقوى كرياسي ، والخامس من عائلة محترمة ، والسادس ينشد لها أشعاراً ، والسابع جال حول العالم ، والثامن عازف كمان ، والتاسع الأكثر فحولة بين الرجال . ولكنهم كانوا جميعاً يبحثون بالطريقة نفسها ، وعلى رُكِبِهم الانتفاخات نفسها.

واختارت في النهاية ، التاسع ليس لأنه الأكثر فحولة ، بل لأنه كان يتقصد عدم الانتباه عندما كانت تهمس في أذنه أثناء الجماع : «احترس جيداً! احترس جيداً!». لذلك اضطرت للاستعجال في الزواج لأنها لم تجد طيباً يجهضها . وهكذا ولدت تيريزا . توافد أفراد العائلة الذين لا يحصى عددهم من كل صوب ، انحنوا فوق المهد وأخذوا يُناغون . أما أم تيريزا فلم تكن تناغي . بل كانت تصمت وتفكر في العشاق الآخرين فتجدهم كلهم أفضل من التاسع . كانت أم تيريزا تحب كثيراً ، مثل ابنتها ، النظر في المرأة . لاحظت ذات يوم وجود تجاعيد حول عينيها ففكّرت أنّ الزواج لا معنى له . التَّقَّتْ ذات يوم رجلاً لم يكن فعلاً إطلاقاً وكان يجرّ وراءه عدة أعمال احتيال وطلاقين . وبما أنها لم تعد تحب العشاق المتفحة رُكَبِهم ، شعرت إذاً برغبة جامحة في أن تجنو بدورها فسقطت راكعة أمام النصاب وتركت زوجها وتيريزا .

أصبح الأكثر فحولة بين الرجال أنفسهم . كان تعيساً إلى درجة أنه لم يعد يبالي بشيء ، يقول ما يفكّر فيه بصوت عالٍ وفي كل مكان . فانزعت الشرطة الشيوعية من أفكاره غير اللائقة فاستجوبته وزجّته في السجن .. وهكذا طُردت تيريزا من البيت الذي خُتم بالشمع الأحمر ، وانتقلت لتعيش مع أمها .

بعد فترة قصيرة توفّي أتعس الرجال في السجن . أما الأم التي

لحقت بها تيريزا فانتقلت لتعيش مع النصاب في مدينة صغيرة عند أسفل الجبال. كان زوج الأم موظفاً في مكتب والأم بائعة في أحد المخازن. رُزقت ثلاثة أولاد أيضاً. ثم، نظرت ذات يوم إلى هيئتها في المرأة فاكتشفت أنها صارت عجوزاً وذهب جمالها.

5

وإذ أدركت أنَّ كل شيء ضاع من يدها، أخذت تفتش عن مذنب. ومذنباً كان الجميع: مذنب زوجها الأول الفحل واللامحبوب، فهو لم يطعها عندما همست في أذنه بأن يتبه. مذنب زوجها الثاني المحبوب والأقل فحولة، لأنَّه اقتادها بعيداً عن براغ إلى مدينة ريفية صغيرة، ولأنَّه كان يجري وراء تنانير النساء إلى درجة أنها عاشت حياة من الغيرة المتواصلة. حيال زوجينها كانت عزلاء، دون سلاح. أما الكائن الوحيد الذي يتسمى إليها دون أن يتمكن من الإفلات منها، والرهينة التي يمكن أن تكفر عن الآخرين كافة، فكانت تيريزا.

على أية حال، ربما كان صحيحاً أنها مسؤولة عما حصل لأمها. فهي التقاء آخر لحيوان منوي من الأكثر فحولة بين الرجال، وبويضة من أجمل النساء. بدأت الأم انطلاقاً من هذه الثانية المقدَّرة التي اسمها تيريزا، ماراتون حياتها الفاسدة.

كانت ترددُ من غير كمل على مسامع تيريزا بأنَّ كون المرأة أمَا يعني أنَّ عليها أن تضحي بكل شيء. كانت كلماتها مقنعة، فهي تعتبر عن تجربة امرأة أضاعت كل شيء بسبب ابنتها. كانت تيريزا تصفي إليها وهي مقتنعة بأنَّ أعظم قيمة في الحياة هي الأمومة، وأنَّ الأمومة هي التضحية المثلثي. إذا كانت الأم تمثل التضحية بحد ذاتها، فالابنة كونها بنتاً هي الخطيبة التي لا يمكن التكثير عنها.

بطبيعة الحال، لم تكن تيريزا على علم بواقعة تلك الليلة التي همست أنها فيها في أذن الرجل الأكثر فحولة بين الرجال، لأن ينتبه. كان الشعور بالذنب الذي أحست به مبهمًا كالخطيئة الأصلية. وكانت تفعل كل ما في وسعها للتوكفير عنه. فبعد أن أخرجتها أنها من المدرسة وهي في سن الخامسة عشرة، عملت كساقة، وكانت تعطيها كل ما تجنيه. كانت على استعداد للقيام بكل ما يجعلها تستحق حبها. كانت تقوم بتنظيف البيت وتُعني بإخواتها وأخواتها وتمضي طوال نهار الأحد في الفرك والغسيل. كان هذا الأمر يدعو إلى الأسف لأنها كانت الأذكي في صفتها. كانت راغبة في أن ترتفق ولكن أتى لها أن ترتفق في هذه المدينة الصغيرة؟ كانت تغسل الثياب واضعة كتاباً قرب المغطس، فيبتل الكتاب ب قطرات الماء وهي تقلب الصفحات.

كان الاحتشام معدوماً داخل المنزل، فأمها تتجول في الشقة وهي في ملابسها الداخلية، وأحياناً دون صدرية، وأحياناً أخرى عارية تماماً في أيام الصيف. أما زوج والدتها فلم يكن يتجلو قط وهو عاري تماماً، إلا أنه كان يتحين دائماً فرصة وجود تيريزا في المغطس لكي يدخل إلى الحمام. فأفقلت على نفسها ذات يوم بالمفتاح ولكن أنها وبختها قائلة: «من تعتبرين نفسك؟ ماذا تعتقدين؟ لن يلتهم لك جمالك!».

(هذا الموقف يُظهر بوضوح أنَّ كراهية الأم لابتها كانت أقوى من غيرتها على زوجها. وبما أنَّ غلطة الابنة لا حدود لها فإنها كانت تشمل أيضاً خيانات الزوج. فإن تجرأ الابنة على الاستقلال برأيها والمطالبة بحقوقها كحقها مثلاً في أن تُقفل الباب على نفسها في غرفة الحمام - أمر ترفضه الأم أكثر مما ترفض الإقرار بنية جنسية محتملة يضمها الزوج لـ تيريزا).

ذات يوم من أيام الشتاء، كانت الأم تتجول عارية والغرفة مضاءة. فهرعت تيريزا لإزالة الستارة لكي لا يرى أحد أنها من البناءة المقابلة. فسمعتها تضحك خلف ظهرها. في اليوم التالي، جاءت بعض الصديقات لزيارة أمها: جارتها وصاحتها في المخزن، ومعلمة الحي، وامرأتان أو ثلاثة كنْ يأتيين بانتظام. جاءت تيريزا لتجلس معهن لحظة ويرفقتها ابن إحدى هؤلاء النساء وهو صبي في السادسة عشرة من عمره.

فاغتنمت الأم الفرصة لتروي لصديقاتها كيف أرادت تيريزا أن تحافظ على الاحتشام. كانت تضحك وجميع النساء كنْ يفهمن. ثم قالت الأم: «تيريزا لا تريد أن تعرف بأنَّ الجسد الإنساني يبول ويضرط». كانت تيريزا تحرمَ خجلاً، لكنَّ أمهاتابعت مع ذلك: «وما الضرر في ذلك؟». ورددت بنفسها على سؤالها فأفلتت للحال بضع ضربات طنانة. فانفجرت النساء كلُّهن بالضحك.

7

تمخط الأم بصوتٍ عاليٍ وتروي أمام الناس تفاصيل من حياتها الجنسية وتعرض طقم أسنانها. وهي تتفتن في سحبه بضررية لسان واحدة وببراعة لافتة فتركت الفك الأعلى يسقط فوق الأسنان السفلية وهي تبتسم ملء فمها، فيصبح وجهها مقشعراً مثل جلد دجاجة. لم يكن سلوكها برمته إلا حركة عنيفة تقذف بها شبابها وجمالها. حين كان العشاق التسعة يتحلقون جائين أمامها، كانت تحرض على عريها كل الحرث. وكانت تقيس قيمة جسدها بمعيار حشمتها. إذا كانت قد أصبحت فاحشة الآن فهذا لأنها تريد أن تسدل ستاراً سميكاً على حياتها السابقة، وأن تصرخ بأعلى صوتها قائلة إنَّ الشباب والجمال اللذين غالٍ في تقديرهما لا يساويان شيئاً في الحقيقة.

تبدو لي تيريزا إذاً وكأنها امتداد لهذه الحركة التي قذفت بها أنها، بعيداً، حياتها كامرأة جميلة.

(وإذا رأينا أن تيريزا نفسها حركات عصبية وأن تصرفاتها تفتقر إلى التمهّل الأنثيق، فيجب ألا نفاجأ: فهذه الحركة العنيفة الصادرة عن أنها، والمدمّرة لذاتها، هي تيريزا، تيريزا بالذات...).

8

تطالب أم تيريزا بأن تُنصف ويعاقب المتهם، تصرّ على أن تبقى ابنتها معها في عالم الفحش، حيث الشباب والجمال لا يساويان شيئاً، وحيث العالم مجرد معسكر اعتقال كبير للأجساد المتشابهة وحيث الأرواح متوازية.

الآن، يمكننا أن نفهم بشكل أفضل آفة تيريزا السرية ونظراتها المتكررة أمام المرأة، فالامر هو بمثابة صراع مع أنها ورغبة في إلا تكون جسداً كبقية الأجساد، بل في أن ترى طاقم بحارة الروح يتدقن من قلب السفينة ليستقر على صفحة وجهها. لم يكن الأمر سهلاً فروحها كانت تخبيء في قعر الأحشاء حزينة وخائفة وخجلة من أن تظهر نفسها.

كانت على هذه الحال عندما التقى توماس للمرة الأولى. كانت تتغلغل بين السكارى في مشرب الجعة وجسدها ينوء تحت ثقل أكواب الجعة التي كانت تحملها فوق الصينية.. وكانت روحها هناك في جوف معدتها أو في البنكرياس. في هذه اللحظة سمعت توماس يناديها. كان هذا النداء ذا شأن فهو صادر عن شخص لا يعرف أنها ولا السكارى الذين تسمع كل يوم تعليقاتهم الفاحشة الرخيصة. كان وضعه كغريب يضعه في مرتبة فوق الآخرين.

وثمة شيء آخر: كان هناك كتاب مفتوح على الطاولة.. وفي هذا

المقهى لم يكن لأحد من قبل كتاب مفتوح على الطاولة. كان هذا الكتاب بالنسبة لتيريزيا علامة على وجود أخوة سرية. فهي لم تكن تملك، في مواجهة عالم التفاهة الذي يحيط بها، إلا سلاحاً واحداً: الكتب التي تستعيرها من مكتبة البلدية وخصوصاً الروايات. كانت تقرأ أكداساً منها، ابتداءً بـ «فيلدنخ» وانتهاءً بـ «توماس مان». كانت هذه الروايات تمنحها فرصة للهروب الخيالي، وتقتلعها من حياة لم تكن تمنحها أي إحساس بالرضى. لكنها كانت أيضاً كانت ذات مغزى بصفتهاأشياء: كانت تحب أن تنتزه وهي تتأبط كتاباً. كانت تميّزها عن الآخرين مثلما كانت العصا تميّز المتألق في القرن الفاتح.

(المقارنة بين الكتاب وعصا المتألق ليست صحيحة تماماً. فالعصا التي تميّز المتألق كانت تجعل منه شخصاً عصرياً و«على الموضة». أما الكتاب الذي يميّز تيريزيا عن النساء الأخريات فيجعلها خارج زمانها. كانت طبعاً أكثر شباباً من أن تفهم ما هو «قديم الري» في شخصيتها. كانت تجد المراهقين الذين يتنتزرون حولها حاملين ترانزستورات زاعقة، بلّه، ولم يكن يخطر في بالها أنهم عصريون).

إذاً، الرجل الذي كان يناديها غريب وعضو في أخوة سرية. كان يتكلم بلهجة مؤدبة، فأحسست تيريزيا عندئذ أن روحها تندفع إلى السطح عبر شرائينها كلها، وعبر جميع أوعيتها الشعرية ومسامها، لكي تتيح له رؤيتها.

٩

شعر توماس، بعد رجوعه من زوريغ إلى براغ، بضيق حين فكر أن لقاءه بتيريزيا كان حصيلة صدف ست بعيدة الاحتمال. لكن، خلافاً لذلك. أفلأ تقادس أهمية حدث وكثرة معانيه بارتباطه بأكبر عدد ممكن من الصدف؟

وحدها الصدفة يمكن أن تكون ذات مغزى. فما يحدث بالضرورة، ما هو متوقع ويترکرر يومياً يبقى شيئاً أبكم. وحدها الصدفة ناطقة. نسعى لأن نقرأ فيها كما يقرأ الغجريون في الرسوم التي يخطها ثفل القهوة في قعر الفنجان.

كان وجود توماس، بالنسبة لتيريزا، في مشرب الجمعة حيث تعلم، تجسيداً مطلقاً للصدفة. كان جالساً وحده إلى طاولة أمام كتاب مفتوح. ثم رفع عينيه ناحيتها وابتسم: «واحد كونياك».

كانت الموسيقى، في هذه اللحظة بالذات، تَبَثُّ عبر الراديو. ذهبت تيريزا لإحضار كأس كونياك عن طاولة المَشرب. وأدارت زر الراديو لتزيد من قوة الصوت فهي تعرف أنَّ هذه الموسيقى لبيتهوفن، الذي تعرفت إليه يوم أتى رباعي موسيقي من براغ للقيام بجولة في المدينة الصغيرة. ذهبت تيريزا (التي كانت تترقب «اللارتقاء» كما نعلم) إلى الحفلة الموسيقية حيث كانت الصالة خالية، وهي وحدها مع الصيدلي وزوجته. كان هناك رباعيٌّ من الموسيقيين على حلبة المسرح وثلاثيٌّ من المستمعين في الصالة. ولكن الموسيقيين كانوا لطفاء جداً فلم يلغوا الحفلة بل عزفوا لهم وحدهم، طوال السهرة، الرباعيات الثلاث الأخيرة لبيتهوفن.

دعا الصيدلي الموسيقيين إلى العشاء بعد انتهاء الحفلة، ثم توسل إلى المستمعة المجهولة أن تنسِّم إليهم. منذ ذلك الحين صار بيتھوفن بالنسبة لها صورة عن الجانب الآخر من العالم. والآن، وفيما كانت راجعة لتقديم توماس كأس الكونياك التي تناولتها عن طاولة الشرب، حاولت جاهدة القراءة في هذه الصدفة: كيف اتفق أنها سمعت موسيقى بيتھوفن في اللحظة نفسها التي استعدت فيها لتقديم الكونياك إلى هذا الغريب الذي استهواها؟

للصدفة وحدها مثل هذا السحر، لا الضرورة. وكيف يكون حينها غير قابل للنسیان، يجب أن تجتمع الصدف من اللحظة الأولى مثلاً اجتمعت العصافير فوق كتفي القديس فرنسيس الأسيزي.

10

ناداها ليدفع الحساب. ثم أغلق الكتاب (هذه العلامة المميزة على وجود أخوة سرية) فرغبت في معرفة ماذا كان يقرأ.
سألها: هل يمكنك أن تسجلني الثمن على ورقة حسابي في الفندق؟

- بالتأكيد. ما هو رقم غرفتك؟

دلّها على مفتاح معلق في نهاية لوحة خشبية تحمل الرقم 6 مكتوبًا باللون الأحمر.

قالت: «غريب. أنت تقيل في الغرفة رقم 6».

فسألها: «وما الغريب في الأمر؟».

تذكرت أنَّ البناءة التي كانت تقيل فيها مع أهلها في براج قبل طلاقهما، كانت تحمل الرقم 6. ولكنها قالت شيئاً آخر تماماً (ولا يمكننا إلا أن نُعَجِّب بحيلتها): «أنت في الغرفة رقم 6. وأنا أنهي عملي في الساعة السادسة».

قال الغريب: وأنا سأستقلّ قطار الساعة السابعة.

لم تدرِّ ماذا تقول. مدّت له ورقة الحساب ليوقع عليها وحملتها إلى مكتب الاستقبال. عندما أنهت عملها كان قد ترك الطاولة، فهلفهم قصدها الخفي؟ أحبت أنْها متوفّزة عند خروجهما من المطعم.

في الجهة المقابلة، وسط المدينة الصغيرة القدرة، كانت هناك

حديقة صغيرة كثيبة، شكلت لها دائمًا جزيرة جمال صغيرة: مرجة وأربع شجرات حور ومقاعد وصفصافة باكية وجنبات فرسينية^(*).

كان جالساً على مقعد يمكن منه رؤية مدخل مشرب الجمعة. كانت تجلس على المقعد ذاته مساء البارحة وهي تحمل كتاباً فوق ركبتيها! فهمت حينئذ (كانت عصافير الصدفة تتجمع على كتفيها) أنَّ هذا الغريب مقدَّر لها. ناداها ثم دعاها للجلوس قربه. (فأحسست تيريزا أنَّ طاقم بخاره الروح يندفع ليجتاح جسر جسدها). رافقته بعد ذلك إلى المحطة، وقبل أن يغادر أعطاها بطاقة دعوة ورقم هاتفه: «فيما لو أتيت صدفة إلى براغ..».

11

ولكن، وأكثر من بطاقة الدعوة هذه التي أعطاها إياها في آخر لحظة، ما شجع تيريزا على الرحيل عن بيتها وتغيير حياتها هو نداء الصدف (الكتاب، بيتophone، الرقم 6، المقعد الأصفر في الحديقة الصغيرة). ربما هذه الصدف القليلة (والتي هي على كل حال بسيطة وعادية وجدية فعلاً بهذه المدينة التافهة) هي التي حرَّكت حبها وصارت مصدر الطاقة الذي سترتوي منه حتى النهاية.

إن حياتنا اليومية مفخخة بالصدف وتحديداً باللقاءات العرضية بين الناس والأحداث، أي ما نسميه المصاداتفات: والمصادفة هي لحظة يقع حدثان غير متوقعين في الوقت نفسه فيتقابلان: توماس يظهر في مشرب الجمعة لحظة تُثبت موسيقى ليتهوفن عبر الراديو. في أغلب الأحيان تمر مصادفات كثيرة دون أن نلاحظها إطلاقاً. فلو أن اللحام في الزاوية جلس أمام الطاولة مكان توماس، لما كانت تيريزا لاحظت أن الراديو

(*) (forsythias) نو من النبات المعرش.

يُث موسيقى بيتهوفن (مع أن تلاقي بيتهوفن واللحم يعُدُّ أيضاً مصادفة غريبة). لكن الحب المُبرعم عزّ في داخلها الشعور بالجمال وهي أبداً لن تنسى هذه الموسيقى. وفي كل مرة ستسمعها ستتفعل، وسيكون كل ما يحدث حواليها في هذه اللحظة محاطاً بهالة هذه الموسيقى، وجميلاً.

في مطلع الرواية التي كانت تتأبّطها تيريزا يوم جاءت إلى براغ، تلتقي آنا بفرونستكي في ظروف غريبة. كانا واقفين على رصيف المحطة عندما سقط أحدهم تحت القطار. وفي نهاية الرواية آنا هي التي تُلقي نفسها تحت القطار. قد تبدو هذه الحركة المتوازية حيث يظهر الحافز نفسه في مطلع الرواية وفي نهايتها، «رواية جداً». نعم، أقبلُ بذلك. لكن شريطة ألا يعني «ما هو روائي» شيئاً «مختلفاً» و«مصطاعناً» و«من دون حياة». ذلك أن الحياة الإنسانية مرَّكة على هذا النحو تماماً.

فهي مرَّكة مثل مقطوعة موسيقية. فالإنسان، بداعي من إحساسه بالجمال، يحول الحدث العرضي (موسيقى بيتهوفن أو الموت في المحطة) إلى لازمة تسجّل في الحال في مقطوعة حياته، وهو يرجع إليها ويكررها ويغيّر فيها ويتطورها كما يفعل أي موسيقى بالفكرة الرئيسية لسوناته. كان بإمكان آنا أن تضع حداً لحياتها بطريقة مختلفة تماماً. ولكن حافز المحطة والموت، هذا الحافز الذي لا يُنسى لاقترانه ببداية الحب، كان يجذبها في لحظات اليأس، بجماله القائم. فالإنسان ينسج حياته على غير علم منه وفقاً لقوانين الجمال حتى في لحظات اليأس الأشد قاتمة.

لا يمكن إذاً أن يأخذ أحد على رواية افتنانها بالمجتمع الغمض للصدف. (مثلاً، تلاقي فرونستكي وآنا والرصيف والموت أو تلاقي بيتهوفن وتوماس وتيريزا وكأس كونياك). لكن يمكن أن يؤخذ بحق

على الإنسان أن يُعمي عينيه عن هذه الصدف فيحرم بالتالي حياته من بُعد الجمال.

12

وإذ شجّعتها عصافير الصدف المتجمعة على كتفيها، أخذت تيريزا عطلة أسبوع دون أن تخبر أمها، وصعدت في القطار. دخلت مراراً إلى المرحاض لكي ترى نفسها في المرأة، لكي تتسلل إلى روحها بالآخر ثانية واحدة جسر جسدها في هذا اليوم المصيري من حياتها. وإذا كانت تنظر إلى نفسها هكذا، اعتبرتها الخوف: كانت تشعر أن حلها ملتهب.. أتراها ستصاب بالمرض في هذا اليوم المُقدَّر؟

ولكن لا إمكان للتراجع. خبرته من المحطة ولحظة فتح الباب أرسل بطنها فجأة قرقارات مفزعة، فخجلت. كان أمها كانت هناك داخل بطنها تضحك لتفسد عليها لقاءها.

حسبت أول الأمر أنه سيرميها في الخارج بسبب هذه الأصوات غير اللائقة، غير أنه أخذها بين ذراعيه. كانت ممتنة له لأنه غير مبالٍ بقراراتها، فقبلته بشغف متزايد وعيناهما تشاهما الضبابية. ثم بعد دقيقة بالكاد مارساً الحب. كانت تصرخ خلال المضاجعة. فحمدى الزكام قد اعترتها ونهاية القصبة التي تنقل الهواء إلى الرئتين كانت حمراء ومسدودة.

ثم رجعت في المرة الثانية مع حقيقة كدست فيها حوانجها كلها، وقد قررت ألا ترجع أبداً إلى المدينة الصغيرة. لم يدعها إلى زيارته إلا مساء اليوم التالي، فأمضت الليلة في فندق رخيص. عند الصباح، أودعت حقيقتها في مكتب الاستعلامات في المحطة، ثم تسكت طوال النهار في شوارع براغ وهي تتأبط «آنا كارنينا». وعند المساء قرعت وفتح لها. لم تخلُ عن الكتاب وكأنه بطاقة دخولها إلى عالم توماس.

كانت عارفة أنها لا تملك جواز مرور آخر إلا هذه التذكرة التعيسة، وكان هذا يدفعها إلى البكاء. ولكي تتحاشى البكاء، أخذت تشرير وتتكلم بصوت عالٍ وتضحك. ولكن، وكما في المرة الأولى، ما إن تجاوزت العتبة حتى ضمّها بين ذراعيه ومارسا الحب. فغرقت في ضباب لا يمكن أن يُرى من خلاله شيء، ولا يُسمع سوى صراخها فقط.

13

لم يكن صراخها لهاناً ولم يكن تاؤهاً، بل صرخ حقيقي. كانت تصرخ بصوت عالٍ إلى درجة أن توماس أبعد رأسه عن وجهها وكان صوتها الزاعق سيثقب طبلة أذنه. لم يكن الصرخ تعبيراً عن الشبق، فالشبق هو التعبئة القصوى للحواس: نراقب الآخر بانتباه بالغ ونسمع أدنى أصواته. لكن صرخ تيريزا كان بخلاف ذلك، يريد أن يُرهق الحواس ويمعنها من الرؤية والسمع. كانت المثالية الساذجة لحجبها هي التي تزرع في داخلها راغبة في إلغاء كل التناقضات، وفي إلغاء ثنائية الروح والجسد، وحتى في إلغاء الزمن.

أكانت عيناهَا مغمضتين؟ لا، لكنهما كانتا جامدين لا تنظران إلى شيء، شاخصتين إلى فراغ السقف. وأحياناً كانت تدير رأسها تارة إلى هذه الجهة وتارة أخرى إلى تلك.

عندما هدأ صراخها، نامت قرب توماس وأمسكت بيده طوال الليل.

منذ كانت في الثامنة وهي تغفو جامدة يديها ومتخيّلة أنها تمسك الرجل الذي تحبه، رجل حياتها. كان مفهوماً إذاً أن تشذّ بهذا العزم على يد توماس أثناء نومها: فهي كانت تتهيأ لهذا الأمر منذ الطفولة وتمرّن عليه.

يُفترض بفتاة شابة تقدم البيرة للسكارى، عوضاً عن «أن ترتفق»، وتمضي أيام الآحاد في غسل الثياب المتسخة لأخواتها وأخواتها، يُفترض بها إذاً أن تكون قد خَرَّت في داخلها حيوة هائلة لا يقدر على فهمها أولئك الذين يذهبون إلى الجامعة ويتناوبون أمام الكتب. فتيريزا قرأت أكثر منهم وتعرف الكثير عن الحياة دون أن تعني ذلك. إذ ليس ما يميّز العاصمي عن ذلك الذي يتبع دراسته، سعة الاطلاع، ولكن مستويات مختلفة من الحيوية والثقة بالنفس. كان الحماس الذي أكتب به على الحياة عند قدومها إلى براغ، ضارياً وهشاً في آن. كانت تخشى من أن يجرؤ أحد على أن يقول لها: «لست في مكانك هنا، ارجعي من حيث أتيت!». كان إقبالها على الحياة مشدوداً بكلّيته إلى خيط واحد: إلى صوت توماس الذي جعل روح تيريزا المنكففة بخجل، تطفو على السطح.

صحيح أنها وجدت وظيفة في مختبر الصور ولكنها كانت غير قادرة على الاكتفاء بها. كانت تريد أن تلتقط بنفسها الصور. أعارتها ساينينا صديقة توماس كتاباً تحوي دراسات وافية عن الصور الشهيرة، ثم وافقتها إلى مقهى وشرحت لها، أمام كتب مفتوحة، الأهمية التي تنطوي عليها هذه الصور. وكانت تيريزا تصغي إليها بانتباه صامت، شبيه بالانتباه الذي نادرًا ما يصادفه الأستاذ على وجه أحد الطلاب..

وهكذا فهمت تيريزا بفضل ساينينا القرابة التي تجمع التصوير بالرسم. فصارت تجبر توماس على مرافقتها إلى كل المعارض وقد نجحت خلال فترة قصيرة في نشر صورها الخاصة في المجلة وتركت المختبر لتنتقل للعمل مع المصورين المحترفين للمجلة.

ذهبا في ذلك المساء إلى أحد الملاهي برفقة بعض الأصحاب

للاحتفال بترقيتها. ورقصوا فاغتمَّ توماس. وحين ألحَّت عليه ليقول لها ما به، أسرَّ إليها، أثناء العودة في الطريق، أنه شعر بالغيرة لأنَّه رأها ترقص مع زميله.

«أحًّا جعلتك تغار؟»، ردَّدت هذه العبارة عشرات المرات وكأنَّه كان يعلمها بأنَّها نالت جائزة نوبل، ورفضت أنْ تصدق.

طُوقته بذراعيها وشرعت ترقص معه في الغرفة. إنما رقصتها لم تكن تشبه بشيء الرقصة المتمدنة التي أدتها على حلبة الملهم قبل قليل، لا بل كانت تشبه رقصة شعبية ريفية تتالف من مجموعة قفزات غريبة. كانت تيريزا ترفع ساقيها عالياً ثم تقوم بقفزات عالية خرقاء وهي تجرَّه في أركان الغرفة الأربع.

ولكن، للأسف، ما لبست أنَّ أصابتها الغيرة بدورها بعد فترة قصيرة. أما غيرتها فلم تكن بالنسبة لتوماس بمثابة جائزة نوبل، ولكن حملَّاً لم يستطع التحرر منه إلا قبل سنة أو سنتين من وفاته.

15

كانت تسير عارية حول بركة السباحة، وسط موكب النساء الأخريات العاريات. وكان توماس واقفاً داخل سلسلة معلقة في السقف.. كان يزعق مجبراً إيابهن على الغناء وثنى الركاب. وما إن تقوم امرأة بخطوة خطأة حتى يرديها قتيلة بطلقة من مسدسه.

أرَّغب مرة أخرى في الرجوع إلى هذا الحلم: لم يبدأ الرعب لحظة أطلق توماس الرصاصات الأولى، إنما الحلم كان مرعباً منذ البداية. أن تسير عارية وسط النساء العاريات كان بالنسبة لتييريزا الصورة الأكثر بدائية للرعب. فهني لِمَا كانت تقيم مع والدتها، كانت تمنعها من أن تقفل باب الحمام بالمفتاح، وتقول لها: جسدك لا يتميز بشيء عن

الأجساد الأخرى. لذلك لا حق لك في الاحتشام ولا داعي لتخفي شيئاً موجوداً بbillions النماذج، وبالطريقة عينها. فجميع الأجساد كانت متشابهة، ضمن عالم أمها، وتسير في صف منتظم، الواحد تلو الآخر. منذ الطفولة كان العربي يمثل لـTirizza عالمة التماثل الإجباري لمعسكر الاعتقال، عالمة الذل.

ثمة شيء آخر مرعب في بداية حلمها: كان على جميع النساء أن يغنين! لم تكن إذاً أجسادهن متشابهة فقط ورخصة بالتساوي، ومجرد آلات صوتية خالية من الروح، إنما كانت النساء، إلى ذلك، مغتبطات بأنفسهن! كان ذلك هو التضامن المتهلل لمن هن دون روح. كن سعيدات فهن أزلن عن أكتافهن حمل الروح، تلك الصورة الخداعية للتفرد، وذلك الكبرياء المضحك، وما قد أصبحن جميعهن متشابهات. كانت تـTirizza تشاركن الغناء لكن من غير شعور بالغبطة. كانت تغنى لأنها كانت خائفة من أن تقتلها النساء إن لم تغّنِ.

ولكن ما معنى أن تـThomas كان يطلق عليهن الرصاص من مسدسه فيريديهن قتيلات ويسقطن الواحدة تلو الأخرى في البركة؟

النساء المغبظات، لكونهن يتشاربهن تماماً ولا يتمايزن بشيء فيما بينهن، كن في الحقيقة يحتفلن بموتهن الم قبل الذي سيجعل تشاربهن مطلقاً. ولم تكن فرقعة الطلقة الناريه إلا الخاتمة السعيدة لمشيـhen الجنائزي. كن يضحـken متـhellات لكل طلقة مسدس، ثم يتـصاعدـ غناـهن بـقوـ أكبر حين تنـزـلـقـ إـحدـىـ الجـثـتـ بـيـطـءـ لـغـرـقـ فـيـ المـاءـ.

ولماذا كان تـomas بالـذـاتـ هوـ الـذـيـ يـطـلقـ النـارـ؟ ولـماـذاـ أـيـضاـ كانـ يـريـدـ أنـ يـطـلقـ النـارـ عـلـىـ تـirizzaـ؟

لأنـهـ هوـ الـذـيـ أـرـسـلـهـ إـلـىـ هـنـاكـ وـسـطـ أـوـلـئـكـ النـسـاءـ. هـذـاـ مـاـ كانـ الـحـلـ يـريـدـ أـنـ يـقـولـهـ لـTomasـ، لـأـنـ Tirizzaـ لـاـ تـعـرـفـ أـنـ تـقـولـ ذـلـكـ

بنفسها. لقد جاءت لتعيش معه هاربة من عالم أمها حيث جميع الأجساد متساوية. جاءت لتعيش معه آملة أن يصبح جسدها فريداً وغير قابل للاستبدال. لكن، ها هو بدوره يرسم بنفسه الإشارة التي تساويها بالآخريات: فهو كان يقبلهن جميعاً بالطريقة نفسها ويغدق عليهن المداعبات ذاتها ولم يكن هناك فرق واحد، ولا فرق، أي فرق بين جسد تيريزا والأجساد الأخرى. كان قد أعادها إلى العالم الذي ظئت أنها أفلتت منه، أرسلها لتسير عارية في ركب النساء العاريات.

16

كانت ترى بالتناوب ثلاث سلاسل من الأحلام: كانت السلسلة الأولى حيث تعاقبها الهررة بشراسة، تُعبر عنها كانت تعانيه وهي على قيد الحياة. والسلسلة الثانية التي تُظهر صوراً متعددة شئ ب شأن إعدامها. أما السلسلة الثالثة فكانت تحكي عن حياتها في العالم الآخر، حيث يصبح الذل حالة أبدية.

لم تكن هذه الأحلام بحاجة إلى حلّ رموزها، فهي توجه اتهاماً واضحاً إلى توماس، واضحًا إلى درجة أنّ توماس لم يعد له من حيلة سوى الصمت ومداعبة تيريزا وهو مطاطاً الرأس.

زد على ذلك أنّ هذه الأحلام، إلى فصاحتها، كانت جميلة. لقد أغفل فرويد هذا الجانب في نظريته عن الأحلام. فالحلم ليس فقط بلاغاً (بلاغاً مرزاً عند الاقتضاء) بل هو أيضاً نشاط جمالي ولعبة للخيال. وهذه اللعبة هي بعد ذاتها قيمة. فالحلم هو البرهان على أنّ التخييل وتصور ما ليس له وجود، هو إحدى الحاجات الأساسية للإنسان، وهنا يكمن أصل الخطر الخادع الكامن في الحلم. فلو أنّ الحلم ليس جميلاً، لأمنكتنا نسيانه بسهولة. لذلك، كانت تيريزا ترجع باستمرار إلى أحلامها وتعيدها في مخيلتها وتحتلق منها أساطير. أما

توماس فكان يعيش تحت سلطان السحر المنوم، سحر الجمال الأليم
لأحلام تيريزا.

في ذات يوم، قال لها فيما كانا جالسين إلى طاولة في إحدى
الحانات: «تيريزا، حبيبي تيريزا، أنت تبتعدين عنِّي. إلى أين تبغين
الذهب؟ تحلمين كل يوم بالموت كما لو أنك راغبة فيه حقاً..».

كان النهار مشرقاً، وكان العقل والإرادة قد أمسكا الدفة من
جديد. كانت نقطة من النبيذ الأحمر تسيل ببطء على حافة الكأس فيما
تيريزا تقول: «ليس في استطاعتي حيلة. أفهم كل شيء وأعرف أنك
تحبني. أعرف أيضاً أن خياناتك لا تحمل أي طابع مأساوي...».

كانت تنظر إليه بحب ولكن يمتلكها الخوف من المساء الآتي،
الخوف من أحلامها، فحياتها مقسومة إلى شطرين، والليل والنهر
يتزاحمان للتأثير عليها.

17

من يبغي «الارتفاع» باستمرار، عليه أن يستعد يوماً للإصابة
بالدوار. لكن ما هو الدوار؟ فهو الخوف من السقوط؟ ولكن لماذا
نُصاب بالدوار على شرفة السطح حتى ولو كانت مزودة بدرابزين متين؟
ذلك أن الدوار شيء مختلف عن الخوف من السقوط. إنه صوت الفراغ
ينادينا من الأسفل فيجدنا ويفتننا. إنه الرغبة في السقوط التي نقاومها
فيما بعد فُنصاب بالذعر.

موكب النساء العاريات حول البركة، الجثث المغبطة بموت تيريزا
في عربة الموتى، كل ذلك يؤلف الهاوية التي ترعبها والتي هربت منها
ذات مرة ولكنها تجذبها في آن بطريقة غامضة. كان هذا هو دوارها.
كانت تسمع نداءً عذباً جداً (فرحاً تقريباً) يدعوها للتخلي عن القدر

والروح، يدعوها للتضامن مع من هن دون روح. وكانت، في لحظات الضعف، ترغلب في التجاوب معه والعودة إلى أمها. كانت ترغلب في أن تعيد طاقم بحارة الروح من على جسر جسدها إلى مكانه، وأن تنزل للجلوس وسط صديقات أمها، وتضحك إن أفلتت الواحدة منهن أو الأخرى ضراطاً رناناً، وأن تمشي عارية في ركبهن، حول البركة وهي تغّيّ.

18

كانت تيريزا على خلاف مع أمها قبل رحيلها عن العائلة، هذا صحيح. لكن لا ننسى أنها كانت تحب أمها مع ذلك جنباً يائساً. كانت على استعداد لفعل أي شيء من أجلها، لو أنها فقط طلبت ذلك منها بلهجة الحب. وعدم سماعها لهذه اللهجة هو الذي أمدّها بالقوة على الرحيل.

ولقد فهمت الأم أن عدائيتها لم تعد تجني مع ابنتها، فأرسلت لها رسائل تستدرّ الدموع، حيث كانت تشتكى من زوجها ورب عملها وصحتها وأطفالها، وتقول إنّ تيريزا هي الكائن الوحيد الذي تبقى لها في هذا الوجود. خيّل إلى تيريزا أنها سمعت في آخر الأمر لهجة الحب الأمومي التي كانت تتوق إليها طوال عشرين سنة، فشعرت برغبة في العودة. كانت هذه الرغبة تزداد كلما أحست أنها ضعيفة. فخيّانات توماس كانت تكشف لها في الحال عجزها. ومن هذا الشعور بالعجز يولد الدوار، هذه الرغبة الهائلة في السقوط.

خابرتها الأم وقالت لها إنها تعاني من السرطان ولم يتبقّ لها غير أشهر قليلة تعيشها. فتحوّل اليأس الذي كانت تُفرقها فيه خيانات توماس، على إثر هذا الخبر، إلى تمرّد. كانت تلوم نفسها لأنها خانت أمها في سبيل رجل لا يحبها. كانت على استعداد لنسopian ما عانته من

أمها، ومستعدة الآن لتفهمها ولو كانت أمها شريرة في السابق، فهذا فقط لأنها كانت تعيسة للغاية.

أخبرت توماس عن مرض أمها، ثم أعلمه أنها ستأخذ إجازة لمدة أسبوع لتذهب لرؤيتها. وقالت ذلك بلهجة متحدية.

وكما لو أن توماس حذر بأن الدوار هو الذي يشدّ تيريزا الآن إلى أمها، فلم يوافق على هذه الرحلة. اتصل بمستوصف المدينة الصغيرة، لأن سجلات الفحوص السرطانية في بوهيميا مفضلة بشكل وافٍ، فتمكّن من التتحقق بسهولة من أن أم تيريزا لا تعاني من أية عوارض سرطانية وأنها لم تستشر طبيباً حتى منذ سنة.

اذعنـت تيريزا له ولم تذهب لرؤية أمها، ولكنها في اليوم نفسه سقطت أرضاً في الشارع. صارت مشيتها متعرّضة تسقط كل يوم تقريباً، ترطم، تُفلت من يدها شيء الذي تمسكه. كانت تشعر برغبة لا تقاوم في السقوط، وتعيش في دوار مستديم.

ذلك الذي يسقط يقول: «انتشلني!». وبصبر ودأب كان توماس يتسلّها.

19

«أوَّلَةَ لَوْ أَمَارَسَ الْحُبَّ مَعَكَ فِي مَحْتَرْفِي وَكَأْنَا عَلَى حَلْبَةِ مَسْرَحٍ. سِيَكُونُ هُنَاكَ أَنَّاسٌ حَوَالِيْنَا وَلَنْ يَكُونُ لَهُمُ الْحَقُّ فِي الاقْتَرَابِ مِنَّا، لَكِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِعُوْا مَعَ ذَلِكَ إِشَاحَةَ أَبْصَارِهِمْ عَنَّا...».

مع مرور الوقت، أخذت القساوة الأولية لهذه الصورة تبهـت، وبدأت تشيرـها. مرات عديدة كانت تهمـس بهذا الكلام لـتوماس أثناء المضاجـعة.

كانت تقول في نفسها إنّ ثـمة وسيلة للإفلـات من العقوـبة التي

تمليها عليها خياناته: أن يصطحبها معه إلى عند عشيقاته! ربما بفضل هذه الحيلة سيرجع جسدها فريداً ولا مثيل له بين الأجساد. وسيصير جسدها وكأنه «أنا» توماس الآخر وبديلاً له ومساعده.

تعانقا. وهمست له: «سأعزّيّهن لك وأغسلّهن في المغطس وأهينّهن لك...». كانت ترحب في أن يتحولا إلى مخلوقين مزدوجي الجنس، وأن تصير أجساد النساء لعتبرهن المشتركة.

20

أن تصير «أنا» الآخر في حياته المزدحمة بالنساء! لم يكن توماس راغباً في أن يفهم ذلك. لكنها لم تكن تستطيع التخلص من هذه الفكرة، فحاوّلت التقرب من سابينا، وعرضت عليها أن تأخذ لها صوراً.

دعّتها سابينا إلى محترفها وتعرفت تيريزا أخيراً على الغرفة الفسيحة التي يتتبّب السرير الواسع المربع في وسطها وكأنه منصة.

«كم هو معيب أنك لم تأتي إلى زيارتي بعد!»، قالت سابينا وهي تريها اللوحات المصطفة قرب الحائط. ثم أخرجت لوحة قديمة كانت رسمتها وهي لا تزال طالبة، وكانت تمثل ساحة تبني فيها أفران لصهر الحديد. رسمتها عندما كان معهد الفنون الجميلة يصرّ على التقيد بالقواعد الأكثر صرامة للمذهب الواقعي (فالفن الواقعي كان يُعتبر بمثابة محاولة لتدمير الاشتراكية). وكانت سابينا - بدافع الميل الرياضي المتبّع في الحزب - تحاول جاهدة في أن تكون أشدّ صرامة من أساتذتها. كانت طريقتها في الرسم حينذاك تعتمد على الخطوط الدقيقة جداً، مما يجعل لوحاتها شبيهة بالصور الفوتوغرافية بالألوان.

«هذه اللوحة بالذات، ألحقتُ الضرر بها حين سال طلاء أحمر

فوقها. في البداية غضبت ولكن هذه اللطخة أخذت تعجبني لأنه يخيّل للناظر أنها صدّع.. كان ساحة البناء لم تعد ساحة بناء واقعية إنما ديكوراً عتيقاً متصدعاً يعطي عن بُعد وهم الحقيقة. ثم بدأت ألهو بهذا الصدّع وأوسّعه وأتخيل ما يمكن أن يُرى من خلاله. وبهذه الطريقة رسمت لوحاتي الأولى التي سميتها «ديكورات». من البديهي أنه لم يكن يفترض بأحد أن يراها، وإلا لطردت من المعهد. نرى في المقدمة، ضمن هذه اللوحات، عالماً واقعياً تماماً، أما في الخلف، كما على قماشة خلفية ممزقة لديكور مسرحي، فنرى شيئاً ما مختلفاً، شيئاً فيه غموض وتجريداً.

توقفت عن الكلام ثم أضافت: «في المقدمة الكذب المحسوس وفي الخلف الحقيقة التي لا يدرك كنهها».

كانت تيريزا تصغي إليها بانتباه غريب يشبه ذلك الانتباه الذي نادرأ ما يتسعى لاستاذ أن يصادفه على وجه أحد طلابه. واستنتجت أنّ جميع لوحات ساينا، لوحاتها السابقة ولوحاتها الحالية، تتحدث في الواقع عن الشيء نفسه باستمرار. فكلّها تعبر عن التلاقي المتزامن بين موضوعين أو بين عالمين، وكأنّها صور طالعة من عرض مزدوج. في المقدمة منظر ما، وفي الخلف يتراءى بشفافية، مصباح سرير أو يد تمزق روعة طبيعة ميتة مؤلفة من تفاح وجوز وشجرة ميلاد مضاءة.

شعرت فجأة بالإعجاب حيال ساينا. وكما أنّ الفنانة كانت متوددة جداً، أخذ هذا الإعجاب، الذي لم يكن مشوباً بالخشية أو الحذر، يتحول إلى استلطاف.

لوهلة نسيت أنها أنت لتأخذ صوراً لساينا، فاقتضى أن تذكرها ساينا بذلك. أشاحت بنظرها عن اللوحات فرأت السرير متتصباً كمنصة وسط الغرفة.

كانت هناك قرب السرير طاولة وعلى هذه الطاولة قاعدة على شكل رأس، تشبه تلك التي يستعين بها المزینون لعرض الشعور المستعار. قاعدة سايننا لا تحمل باروكة بل قبعة. قالت سايننا وهي تبتسم: «هذه القبعة ورثتها عن جدي».

لم تَرِ تيريزا مثل هذه القبعات السود والمستديرة الصلبة من قبل، إلا في السينما. كان شارلي شابلن يرتدي دائمًا واحدة تشبهها. ابتسمت بدورها وأمسكت القبعة، ثم تفحصتها طويلاً وقالت: «هل ترغبين في أن أصوّرك وأنت ترتدينها؟»

كان جواب سايننا ضحكة صاحبة. ألقت تيريزا القبعة جانبًا ثم تناولت آلة التصوير وشرعت تلتقط الصور.

بعد وقت، قالت: «ماذا لو صورتك عارية؟».

- «عارية؟» قالت سايننا مندهشة.

- «نعم». قالت تيريزا مرددة اقتراحها بشجاعة.

- «يُجدر بنا إذاً أن نشرب والحالة هذه»، قالت سايننا، ثم ذهبت لتفتح قنينة النبيذ.

كانت تيريزا تشعر بشيء من الخدر. كانت صامتة فيما سايننا تجول الغرفة وهي تمسك الكأس بيدها وتتحدث عن جدها الذي كان مختاراً لمدينة صغيرة في الريف. لم تكن سايننا تعرفه. كل ما تبقى من ذكراه هذه القبعة وهذه الصورة حيث نرى وجهاء واقفين على منصة. وأحد هؤلاء الوجهاء كان جد سايننا. لا أحد يعرف بالضبط ماذا كانوا يفعلون هناك. فربما كانوا يشاركون في احتفال أو يدشنون نصبًا تذكاريًا لوجيه ما كان يلبس هو أيضًا قبعة في مناسبات احتفالية.

تكلمت سايننا بإسهاب عن القبعة وعن جدها. ثم، بعد أن أفرغت

كأسها الثالثة، قالت: «انتظرني دقيقة» واختفت في غرفة الحمام. ثم رجعت وهي ترتدي مثزاراً. أمسكت تيريزا آلة التصوير وألصقها على عينها. فخلعت سابينا المثزار.

22

كانت آلة التصوير تقوم مقام عين آكية لتيريزا تراقب من خلالها عشيقه توماس، تقوم أيضاً مقام حجاب تستر به وجهها. استغرقت سابينا لحظات طويلة قبل أن تقرر خلع مثزارها، إذ كان الموقف أصعب مما تَصَوَّرَتْ. ثم، بعد مرور بضع دقائق، اقتربت من تيريزا وقالت: «الآن جاء دورك لأصورك أنت. أخلعي ثيابك».

كانت هذه الكلمات «أخلعي ثيابك» والتي سمعتها مراراً من فم توماس، محفورة في ذاكرتها. والآن ها هي عشيقه توماس توجه هذا الأمر للزوجة. وهكذا فإن المرأةين تربط بينهما الجملة السحرية نفسها.. كانت تلك طريقة توماس في أن يجعل حالة جنسية تولد على حين غفلة من حديث تافه: ليس عن طريق المداعبات أو الملامسات أو الإطراء أو الرجاء، بل من خلال أمر ينطق به بفترة وارتجالاً وبصوت خافت لكن بلهجة حازمة ومستبدة وعن بُعد، ولم يكن عندها ليُمْسِّ قط المرأة التي يتوجه إليها. وحتى لتيريزا، كان يقول مراراً وبالنبرة نفسها بالضبط: «أخلعي ثيابك!». وعلى الرغم من أنه كان يسرّ ذلك بنبرة رقيقة هامسة، فإن هذه الكلمات كانت أمراً، وكانت تشعر دائماً أنها مهتاجة لمجرد الإذعان لها. بيد أنها كانت تسمع لتتوها هذه الكلمات نفسها، كانت رغبتها في الخضوع تكبر على قدر ما كانت تشعر أن إذاعتها هذا الشخص غريب إنما هو جنون مطبق.. وهذا الجنون يزداد حلاوة نظراً إلى أنَّ الأمر صادر عن امرأة، وليس عن رجل.

انتشرت سابينا آلة التصوير من يدي تيريزا فخلعت تيريزا ثيابها. كانت تقف عارية وعزاء. عزاء تماماً لأنها جُرّدت من الآلة التي استعملتها لتجنّب وجهاً، والتي كانت تشهرها نحو سابينا وكأنها سلاح. الآن كانت تحت رحمة عشيقة توماس، وكان هذا الإذعان الجميل يُسّكراها. ليت هذه اللحظات التي تقف فيها عارية أمام سابينا لا تنتهي أبداً!

في اعتقادي أنّ سابينا أيضاً شعرت بسحر الموقف الغريب، حين رأت أمامها زوجة عشييقها منقادة وخجلة بطريقة عجيبة. ضغطت على زر التصوير مرتين أو ثلاثة. ثم، وقد ارتعبت من هذا السحر، ضحكت بأعلى صوتها لتبدّد هذا السحر في أقصر مهلة.

وضحكت تيريزا أيضاً. ثم ارتدتا ثيابهما من جديد.

23

ارتكبت جميع الجرائم السابقة في الإمبراطورية الروسية في حمى ظلمة كتم. فَتَفَقَّدْ نصف مليون من سكان «التوانيا» وقتل مئات الآلاف من البولونيين وتصفية التتر في «كريمييه»، كل هذه الجرائم بقيت في الذاكرة من دون صور تقييم الدليل على وقوعها، فبقيت إذاً كشيء متعذر إثباته وسيتم إظهارها عاجلاً أم آجلاً وكأنها محض اختلاق.

اما اجتياح تشيكوسلوفاكيا في سنة 1968، فهو بخلاف ذلك، جرى تصويره ونقله إلى السينما، وهو موجود في دوائر الوثائق في العالم أجمع.

استغلَّ المصورون التشيكيون الفرصة التي أعطيت لهم وقاموا بالعمل الوحيد الذي كان بإمكانهم القيام به: الاحتفاظ بصورة الاغتصاب للمستقبل البعيد. أمضت تيريزا الأيام السبعة تلك في شوارع براغ وهي تلتقط صوراً لجنود وضباط من الروس في أوضاع مشبوهة

مختلفة. ولم يكن الروس مستعدين لمثل هذا الأمر. فالتعميمات التي كانوا تلقواها واضحة وهي تتعلق بالطريقة التي عليهم أن يتبعوها فيما لو أطلق عليهم الرصاص أو قذفوا بالحجارة. ولكن لم يعلّمهم أحد من قبل كيفية التصرف حيال الكاميرا.

قامت تيريزا بالتقاط مئات الأفلام من الصور. وزّعت نصفها تقريباً على صحافيين أجانب في شكل بكرات للتبشير (كانت الحدود لا تزال مفتوحة والصحافيون يتواجدون من الخارج، لذهب وإياب على الأقل)، وكانوا يأخذون بامتنان أدنى الوثائق. تُنشر العديد من صورها في مختلف المجالات الأجنبية، وهي عبارة عن صور دبابات، وقبضات متعددة، ومبانٍ مدمرة، وموتى مغطين بعلم دام مثلث الألوان، وشبان منطلقين بأقصى سرعتهم ملؤحين للدبابات بالأعلام التشيكية المرفوعة في نهاية عصيّ طولية، وفتيات في مطلع صباحهن مرتديات تنانير قصيرة جداً وهن يقبلن المارة المجهولين أمام أعين الجنود الروس التعباء والمعطشين للجنس. فالاجتياح الروسي، تكرر، لم يكن مأساة فحسب، إنما كان أيضاً عيداً للحقد الذي لن يتثنى لأحد أبداً أن يفهم غرابة مرأّه وهناءه.

24

أخذت معها إلى سويسرا خمسين صورة وظهرتها بنفسها بعناية وفن فائقين. ثم ذهبت تعرضها على مجلة واسعة الانتشار. استقبلها رئيس التحرير بالترحاب (كان التشيكيون يحملون كلّهم فوق رؤوسهم حالة الشقاء، وكان ذلك يؤثر في قلوب السويسريين الطيبين). ثم دعاها للجلوس على كنبة، تفخّص الصور وأبدى إعجابه بها وقال أن لا حظّ لها في أن تُنشر («على الرغم من أنها جميلة») فالحدث قد أضحي بعيداً جداً الآن.

اعتراضت تيريزا: «ولكن في براغ، لم ينته شيء بعد»، حاولت أن توضح بلغة ألمانية رديئة أن هناك في بلد़ها المحتل كانت تتشكل، في هذا الوقت بالذات وبالرغم من كل شيء، مجالس عمالية داخل المصانع. وأن الطلاب لا يزالون يُضرِّبون احتجاجاً على الاحتلال، وأن البلد برمته يتبع حياته كما في السابق. وهذا بالضبط ما هو غير معقول! ولم يكن أحد يهتم!.

أحس رئيس التحرير بالارتياح حين دخلت امرأة نشيطة إلى الغرفة فقطعت الحديث وهي تعطيه ملفاً: «أحمل لك ريبورتاً عن شاطئ العراة».

خشى رئيس التحرير اللبق من أن تجد هذه التشيكية التي كانت تصور الدبابات، صورة لأناس عراة تماماً على شاطئ، شيئاً مستهجناً. فأزاح الملف بعيداً حتى حانة الطاولة وسارع يقول إلى القادمة الجديدة: «أعرَّفك إلى زميلة من براغ. أحضرت لي صوراً رائعة». صافحت المرأة تيريزا وأخذت الصور.

«خلال هذا الوقت، أنظري إلى صوري».

تناولت تيريزا الملف وأخرجت منه الصور.

قال رئيس التحرير لتيريزا بلهجة يشوبها الذنب: «إنها متناقضة تماماً مع صورك، أنت».

أجبت تيريزا: «بل على العكس! مثلها تماماً».

لم يفهم أحد ما تعنيه هذه الجملة. وأنما أيضاً وجدت صعوبة في أن أفسر ما كانت تريد تيريزا أن تقوله عندما قارنت شاطئاً لل العراة بالاحتياج الروسي. أخذت تقلب الصور وتوقفت طويلاً عند صورة فيها عائلة مؤلفة من أربعة أشخاص: الأم عارية تماماً منحنية فوق أولادها وثدياتها الضخمان يتذليلان مثل ضروع عترة أو بقرة. وفي الخلف الأب

- منحن أيضاً إلى الأمام وخصبتهان شبهاً بضرعين منمنمين.
- «ألا تعجبك الصور؟» سأل رئيس التحرير.
 - «إنها مصورة بشكل جيد».
 - «أعتقد أن الفكرة تتصدمها»، قالت المصورة. «ما إن نراكم حتى نخمن مسبقاً أنك لم تذهب إلى شاطئ للمرأة».
 - «بالطبع لا»، قالت تيريزا.

وابتسم رئيس التحرير: «نعرف في الحال من أي بلد أنت. غريبكم هي متزمنة البلدان الشيوعية!».

أضافت المصورة بتحبّب أمومي: « أجساد عارية. ولكن هذا أمر طبيعي جداً وكل ما هو طبيعي جميل!».

تذكرت تيريزا أنها وهي تتجول في الشقة عارية. كانت تسمع الآن الضحكة التي واكبتها حين هرعت لتنزل الستائر خائفة من أن يرى أحد أمها وهي عارية تماماً.

25

- دعت المصورة تيريزا لشرب فنجان قهوة في العانة.
- صورك مثيرة جداً للاهتمام. لاحظت أنك تصورين الجسد الأنثوي بإحساس خارق. تعرفي في ماذا أفكراً؟ بهؤلاء الفتيات اللواتي صورتهن في أوضاع مثيرة! .
 - العشاق الذين يتداولون القبل أمام الدبابات الروسية؟
 - أجل. بإمكانك أن تصبحي مصورة أزياء مرموقة. يفترض بك، بالطبع أن تتعاوني مع عارضة، ومن الأفضل أن تكون مبتدئة مثلّك. من ثمّ تقومين بالتقاط بعض الصور وتعرضينها على أحد المكاتب. ومن البديهي أنه يلزمك بعض الوقت لتلمعي. خلال ذلك يمكنني أن

أساعدك. سأعرفك إلى صحافي مسؤول عن زاوية «حديقتك». ربما قد يكون في حاجة إلى صور لصبيريات وورود، وأشياء من هذا القبيل.

- «شكراً جزيلاً». قالت تيريزا بصدق وقد أحسست أن المرأة الجالسة قبالتها مفعمة بالنوايا الطيبة.

ثم فكرت لتوها: لكن لماذا علىَّ أن أصور صباراً؟ كانت تنفرها فكرة أن تبدأ من جديد ما قامت به في براغ آنفًا: أن تناضل من أجل وظيفة وفي سبيل كل صورة منشورة. فهي لم تكن فقط في حياتها طموحة بداعم التباهي. كل ما كانت ترغب فيه هو الإفلات من عالم أمها. أجل، اكتشفت ذلك فجأة بوضوح تام: صحيح أنها مارست عملها كمصوّرة بكثير من الحماس، ولكن كان بإمكانها أن توظّف هذا الحماس نفسه في أي عمل آخر. فمهنة التصوير لم تكن إلاً وسيلة «لترقى» وتعيش في كف توماس.

ثم قالت: «أتعرفين، زوجي طبيب وبإمكانه أن يعيّلني. لا أحتاج إلى مهنة التصوير».

أجابت المصوّرة: «لست أفهم كيف تقدرين على التخلّي عن مهنة التصوير بعد أن حققت صوراً جميلة كهذه!».

نعم، صور أيام الاجتياح شيء آخر. لم تلتقط تلك الصور من أجل توماس بل كانت التقطتها مدفوعة بالشغف، ليس شغف التصوير بل شغف الحقد. وتلك الحالة لن تتكرر ثانية: على أية حال، هذه الصور التي التقطتها بشغف لم يكن أحد ليقبل بنشرها، لأنها لم تعد معاصرة. وحده الصبار معاصر باستمرار، والصبار لا يثير اهتمامها.

قالت: «هذا لطف منك. لكنني أفضل البقاء في المنزل. لست بحاجة إلى العمل».

قالت المصوّرة: «لكن هل يرضيك أن تبقى في المنزل؟».

- «أفضل ذلك على تصوير الصبار»، قالت تيريزا.
قالت المصوّرة: «حتى لو قمت بتصوير الصبار، فهذه حياتك
أنت. أما إذا كنت تعيشين فقط لزوجك فهذه ليست حياتك».
احسّت تيريزا فجأة بالانزعاج: «حياتي هي زوجي، لا الصبار».
أخذت المصوّرة تتكلّم بشيء من الانفعال: «هل تريدين بذلك أن
تفهميني بأنك سعيدة؟».

قالت تيريزا (أيضاً بانزعاج): «إني سعيدة، بالطبع!».
قالت المصوّرة: «عندما تتفوه امرأة بهذه الكلمات فهي
حتماً...»، وفضلت الآ تكمل الجملة.
فأكملتها تيريزا: «تريدين القول: حتماً محدودة جداً».
تمالكت المصوّرة نفسها ثم قالت: «لا، لم أقصد أن أقول
محدودة بل عقيقة».
قالت تيريزا بهيئة حالمه: «معك حق. هذا ما يقوله عني زوجي
بالضبط».

26

ولكن توماس كان يمضي أياماً بطولها في العيادة، فيما هي كانت
تبقى وحدها في البيت. لحسن الحظ أن هناك كارنيينا وبإمكانها أن
تصطحبها في نزهات طويلة! كانت تجلس، حين تعود إلى البيت، أمام
كتاب لتعليم اللغة الألمانية أو الفرنسية. ولكنها كانت مصابة بالكره
وغير قادرة على التركيز. كانت تفكّر مراراً في الخطاب الذي ألقاه
دوينشك عبر الراديو لدى رجوعه من موسكو. لم تكن تتذكرة أي كلمة
قالها بالتحديد ولكن لهجته المتأثرة كانت تطنّ في أذنيها. كانت تفكّر
في الذي حدث له. كان جنود غرباء قد ألقوا القبض عليه في بلد هو

رئيسها، ثم اختطفوه واحتجزوه طوال أربعة أيام في مكان ما في جبال أوكرانيا، وأفهموه هناك أنهم سيقتلونه كما قتلوا قبل اثنين عشرة سنة نظيره البلغاري إيمري ناجي. بعدها نقلوه إلى موسكو وأمروه بأن يستحم ويحلق لحيته ويرتدى ثيابه ويوضع ربطه عنق. ثم عادوا وأعلموه أنّ مصيره لم يعد بين يدي فصيلة الإعدام وأجبروه على أن يعتبر نفسه من جديد رئيساً للبلاد وأجلسوه أمام طاولة قبالة بريجينيف وأرغموه على التفاوض.

رجع مذلولاً وتحدث إلى شعب مذلول. كان مذلولاً إلى درجة لم يستطع معها الكلام. وتيريزا لن تنسى، ما عاشت، وقفاته الثقيلة في متصرف الجمل. أكان منهوك القوى؟ أم مريضاً؟ هل أعطوه مخدرات؟ أم هل كان يائساً؟ إذا لم يبق شيء من دوبتشك فستبقى تلك الفترات الطويلة الفظيعة من الصمت حين كان يحاول أن يستعيد أنفاسه أمام شعب بأكلمه ملتصقاً بآجهزة الراديو. ففي فترات الصمت هذه يكمن كل الذعر الذي خيم على البلاد.

كان ذلك في اليوم السابع للاحتلال. سمعت هذا الخطاب من غرفة التحرير لمجلة أصبحت في تلك الأيام الناطقة باسم المقاومة.. في ذلك الوقت، كان كل الذين في الغرفة يستمعون إلى دوبتشك، يحترقونه ويحددون عليه لأنّه قبل بالتسوية، ويشعرون أنهم مذلولون لإذلاله، وأن ضعفه كان يهينهم.

الآن وهي تفكّر في تلك اللحظات في زوريغ، لم تكن تشعر بأي احتقار لدوبتشك. ثم إنّ الكلمة ضعف لم يعد لها وقع الجنائية. كلنا ضعفاء في مواجهة قوى أعظم منا. حتى لو كنا نملك جسداً مفتولاً مثل جسد دوبتشك. أخذ هذا الضعف، الذي كان يبدو لها فيما مضى منقراً وغير محتمل، هذا الضعف الذي جعلها تغادر البلاد، يُغويها فجأة. كانت قد بدأت تفهم أنها تنتهي إلى الضعفاء، إلى معسكر

الضعفاء، إلى بلد الضعفاء، ويفترض بها أن تكون وفية لهم. لا شيء إلا لمجرد أنهم ضعفاء ولأنهم يلتقطون أنفاسهم في أواسط الجمل.

كان هذا الضعف يغويها كما قد أغواها الدوار من قبل، يغويها لأنها كانت تشعر أنها هي أيضاً ضعيفة. وعادت تناكلها الغيرة من جديد، ومن جديد أخذت يداها بالارتجاف، تنبه توماس للأمر وقام بحركته المألوفة: أمسك يديها وأخذ يضغط بأصابعه ليهدئ من ارتجافها. فأفلت منه.

- «ما بالك؟

- لا شيء.

- ماذا تريدين أن أفعل من أجلك؟

- أريد أن تصير عجوزاً، أن تكون أكبر بعشر سنوات، أكبر بعشرين سنة!».

وكان تريد أن تقول: أريد أن تصير ضعيفاً، ضعيفاً قدر ما أنا ضعيفة.

27

لم تكن كارنينا قد استحسنت مطلقاً الرحيل إلى سويسرا، فهي كانت تكره التغيير. فالزمن، بالنسبة ل الكلبة، لا يجري ضمن خط مستقيم، ولا يؤدي مساره تبعاً لحركة متواصلة نحو الأمام، ومتقدمة أكثر فأكثر، ومنتقلة من شيء إلى آخر، بل يرسم حركة دائيرية تشبه حركة عقارب الساعة، إذ إن عقارب الساعة لا تتقدم بجنون إلى الأمام إنما تدور بشكل دائري على مز الأ أيام على ميناء الساعة ووفقاً للمسار ذاته. كان يكفيهما في براغ أن يشتريا كتبة جديدة أو أن يغيروا مكان إناء الزهور، حتى تتحرج كارنينا على ذلك. فإحساسها بالزمن كان يختل

عندئذ. وهذا ما يحصل للعقارب تماماً فيما لو غيرنا باستمرار الأرقام الموجودة على ميناء الساعة.

لكن كارنينا مع ذلك نجحت في أن ترد نظام الوقت القديم والطقوس القديمة إلى نصابها في الشقة في زوريخ. كانت كل صباح تلجم إلى غرفتها، كما كانت تفعل في براغ، وتفتح نهارهما بقفزة على السرير، ثم ترافق بعدها تيريزا في أولى جولاتها الشرائية الصباحية، وتفرض، كما كانت تفعل في براغ، نزهتها اليومية.

كانت كارنينا ساعة حياتهما. وكانت تيريزا تفكّر في لحظات اليأس أنّ عليها أن تصمد من أجل هذه الكلبة لأنّها أضعف منها وأضعف ربما من دوبتشك ومن وطنها المهجور.

كانتا راجعتين من النزهة حين رنّ الهاتف. رفعت السماعة وسألت من المتكلّم.

كان هناك صوت امرأة تتكلّم بالألمانية وتسأل عن توماس. كان صوتها لجوجاً، وخُلِّي إلى تيريزا أن نبرة احتقار تشوبيه. وعندما قالت لها إنّ توماس خرج ولا تعرف متى سيرجع، انفجرت المرأة بالضحك في الطرف الآخر ثم أقفلت السماعة دون أن تستاذن.

كانت تيريزا تعرف أنه يجدر بها ألا تعلّق أهمية على ذلك. فربما هذه المرأة ممرضة في المستشفى أو مريضة أو سكرتيرة، لا فرق. ومع ذلك أحست أنها مضطربة وغير قادرة على التركيز. فهمت أنها خسرت القوة القليلة الباقية لها عندما كانت في براغ، وأنها باتت عاجزة عن احتمال هذا الحادث الذي هو تافه على كل حال.

من يعيش في الغربة يمشي في فضاء خاوي فوق الأرض مجرداً من شبكة الرعاية التي تحيط بها، كل كائن بشري، بلاده الأم حيث توجد عائلته وزملاؤه وأصدقاؤه، وحيث يستطيع أن يتواصل مع الآخرين دون

جهد، باللغة التي يعرفها منذ الصغر. صحيح أنَّ تيريزا كانت في براغ تابعة لتوomas، لكن بقلبها فقط. أما هنا فهي تابعة له في كل شيء. إلى ماذا سيؤول حالها فيما لو تركها؟ هل عليها أن تمضي ما تبقى من حياتها خائفة من أن يتركها؟

كانت تقول في نفسها إن لقاءهما كان مبنياً على الخطأ منذ البداية. فكتاب «آنا كارنيينا» الذي كانت تتأبظه في ذلك اليوم كان هوية مزيفة استخدمتها لخداع توomas. لقد أوجد كلاهما، بالتناوب، جحيناً للآخر، حتى ولو كانا متحابين. كانا متحابين، صحيح، وذاك هو البرهان على أن الخطأ ليس صادراً عنهم ولا عن تصرفاتهما ولا عن مشاعرهما القابلة للتغيير، إنما هو نتيجة لتنافر طباعهما، فهو كان قوياً وهي ضعيفة. كانت تشبه دوبتشك الذي يسجل وقفة تستمر نصف دقيقة، في متصف الجملة: كانت تشبه بلد़ها الذي يتأتى ويلتقط أنفاسه ولا يقدر على الكلام.

ولكن، يجدر بالضعف أن يتعلم كيف يكون قوياً، ويرحل عندما يصير القوي أضعف من أن يستطيع إيهاده الضعيف.

هذا ما كانت تقوله في نفسها. ثم دفت وجهها في شعر كارنيينا قائلة: «يجب ألا تغضبي مني يا كارنيينا. إذ سيكون علينا أن نغير مكان إقامتنا مرة جديدة».

28

كانت تتجمع في إحدى زوايا المقصورة، حقيبتها موضوعة فوق رأسها، وكارنيينا متکورة عند قدميها. أخذت تفكّر في طاهي مشرب الجمعة حيث كانت تعمل عندما كانت تقيم عند والدتها. لم يكن يفوّت فرصة إلا ويضرّبها على قفاها، وكان اقترح عليها أكثر من مرة وأمام الجميع بأن تضاجعه. كان أمراً غريباً أن تفكّر فيه هو بالتحديد مع أنه

يمثل لها كلّ ما تكرهه. ولكن تتملكها الآن فكرة واحدة مفادها أن تلتقيه وتقول له: «كنت تقول إنك ترغب في مضاجعي. حسناً! ها أنذا».

كانت تنوي فعل شيءٍ ما يمنعها من الرجوع إلى الوراء. كانت تنوي تدمير ماضي سنواتها السابعة الأخيرة دفعة واحدة. فالدوار عاد يراودها مثل رغبة مسكرة، رغبة في السقوط لا مقاوم.

يمكتني القول ربما إن الإصابة بالدوار تعني أن يكون المرء سكران من ضعفه الخاص. فهو يعي ضعفه لكنه لا يرغب في التصدي له بل الاسترسال فيه. ينتشي بضعفه الخاص فيرغب في أن يكون أكثر ضعفاً، يرغب في السقوط أمام أعين الآخرين في وسط الشارع، يرغب في أن يقع أرضاً، بل أسفل من الأرض.

كانت تُقْنَع نفسها بـ«ألا تبقى في براغ وألا تعود للعمل كمصورة بل أن ترجع إلى المدينة الصغيرة التي اجتَهَا صوت توomas منها».

ولكنها حين رجعت إلى براغ، اقتضى الأمر أن تمكث بعض الوقت هناك من أجل ترتيب أمور عملية. وهكذا كانت تؤجل رحيلها إلى أن ظهر توomas فجأة في الشقة بعد خمسة أيام. كانت كارينينا تقفز إلى وجهه مجذبة إياهما ضرورة الكلام، لوقت طويل.

ثم اقترب كل واحد من الآخر مثل عاشقين لم يسبق أن تعانقا بعد.

سؤال: «هل كل شيء على ما يرام؟

- نعم.

- هل ذهبت إلى المجلة؟

- اتصلت بهم.

- ماذا قالوا؟

- لا شيء. كنت أنتظر.

- لماذا؟».

لم تُجب. كانت غير قادرة على أن تقول له إنه هو من كانت تنتظره.

29

فلنعد إلى اللحظة التي سبق لنا أن عرفناها: كان توماس يائساً ومعدته تؤلمه. ولم ينم إلا في ساعة متأخرة.

بعد وقت طويل أفاق تيريزا (كانت الطائرات الروسية تحلق في سماء براغ، فيصعب النوم وسط هذه الضجة). وهذا أول ما فكرت فيه: رجع من أجلها، من أجلها غير مصيره. من الآن فصاعداً لن يعود هو المسؤول عنها بل ستكون هي أيضاً المسئولة عنه! ثم شعرت أن هذه المسئولية فوق طاقتها.

ثم تذكريت: البارحة، عندما ظهر على باب الشقة، ما هي إلا لحظات قليلة حتى دقّت ساعة كنيسة في براغ تمام الساعة السادسة. وفي المرة الأولى التي التقى فيها، أنهت خدمتها في الساعة السادسة. كانت تراه أمامها جالساً على مقعد أصفر عندما سمعت دق الأجراس.

لا، ليس هذا تطيراً، إنما هو حسُّ الجمال وقد حررها فجأة من قلقها وأمدّها برغبة جديدة للعيش. مرّة أخرى كانت عصافير الصدفة تحط فوق كتفيها. كانت تبكي فرحة لا حدّ له بأن تسمعه يتنفس إلى جانبها.

القسم الثالث

الكلمات غير المفهومة

1

جنيف مدينة نوافير وبرك. وحتى اليوم، لا نزال نرى في الحدائق العامة، الأكشاك حيث كانت تعزف الجوqات الموسيقية قديماً.. حتى أن الجامعة تخفي بين الأشجار. كان فرانز خارجاً من مبني الجامعة وقد انتهى لتوه من إعطاء محاضرته الصباحية. كان رذاذ الماء المتندق من الدوارات يتتساقط فوق المرجة وكان مزاج فانز رائقاً. فهو سيدهب مباشرة من الجامعة إلى عند صديقه التي تسكن على بُعد بضعة شوارع من هنا.

كان يمرُّ بها غالباً ولكن دائماً بصفته مهتماً لأمرها لا بصفته عاشقاً. على افتراض أنه ضاجعها في المحترف، فالامر سيغدو حينئذ بمثابة انتقال من امرأة إلى أخرى في اليوم ذاته، أي انتقال من الزوجة إلى العشيقة، ومن العشيقة إلى الزوجة. وبما أن الرجال والنساء ينامون في جنيف على الطريقة الفرنسية في سرير واحد، فإن الأمر يغدو وبالحالة هذه بمثابة انتقال في ساعات قليلة من سرير امرأة إلى سرير امرأة أخرى. وحسب رأيه، كان هذا مهيناً للعشيقه والزوجة على حد سواء، ومهيناً له هو بالذات في الواقع.

كان حبه للمرأة التي يهيم بها منذ بضعة أشهر شيئاً ثميناً للغاية، بحيث إنه كان يبذل قصارى جهده في أن يجد لها فسحة مستقلة في حياته، مملكة نقاء لا تُطال. كان يُدعى كثيراً لالقاء محاضرات في جامعات أجنبية، وكان الآن يقبل الدعوات كلها متلهفاً.. وبما أنها لم تكن متوفرة بالشكل اللازم فإنه كان يكملها بمؤتمرات وندوات وهمية لكي يبرر أسفاره أمام زوجته. أما صديقته التي كان يمكنها أن تتصرف بوقتها كما يحلو لها، فكانت ترافقه في أسفاره. وهكذا عرفها خلال فترة قصيرة من الزمن على مدن أوروبية ومدينة أميركية.

قال:

- في غضون عشرة أيام يمكننا الذهاب إلى باليرمو، هذا إذا كنت غير معارضة.

- «أفضل جنيف». كانت واقفة أمام الحمالة تتفحص لوحة غير منجزة.

حاول فرانز أن يمازحها: «كيف يستطيع المرء أن يعيش وهو لا يعرف باليرمو؟».

قالت: «أعرف باليرمو».

سألها بلهجة تشوبها الغيرة: «ماذا؟».

- أرسلت لي صديقة بطاقة بريدية من هناك فالصقتها على حاطن الحمام. ألم تلاحظها؟

ثم أضافت: «أصيغ إلى حكاية هذا الشاعر الذي عاش في بداية القرن. كان عجوزاً للغاية وكان سكريتيره يقوم بتزييه. وذات يوم قال له: «ارفع رأسك يا سيدى وانظر، هذه أول طائرة تحلق فوق المدينة!».

فأجاب السيد سكريتيره دون أن يرفع عينيه: «أستطيع أن أتخيلها».

حسناً، أرأيت. أنا أيضاً أستطيع أن أتخيل باليبرمو.. ستكون فيها الفنادق نفسها والسيارات نفسها الموجودة في المدن كافة. أما في محترفي، فعلى الأقل اللوحات دائماً مختلفة.

اغتمَّ فرانز. كان اعتاد إلى حد بعيد على هذا الرابط بين حياته العاطفية والأسفار التي عزم على القيام بها: «فلنذهب إلى باليبرمو»، بلاغ جنسي واضح. والجواب: «أفضل جنيف»، لا يمكنه أن يعني بالنسبة له إلا شيئاً واحداً: لم تعد صديقه راغبة فيه.

كيف يستطيع أن يبرر انعدام الثقة بالنفس هذا في حضرة عشيقته؟ ليس هناك ما يدعوه للشك في نفسه على هذا النحو! وهي، لا هو، التي مهدت لاكتساب صداقته بعد وقت قليل من لقائهما. فهو رجل وسيم وفي أوج مهنته العلمية، وبهابه زملاؤه حتى بسبب التفوق والعناد اللذين يظهرهما أثناء مجادلاته مع الاختصاصيين. لماذا إذاً كان يعيد على نفسه كل يوم أن صديقته ستركه؟

لا أملك إلا تفسيراً واحداً: لم يكن الحب بالنسبة له امتداداً لحياته العلنية إنما هو نقيس لها. كان الحب بالنسبة له رغبة في الاستسلام لنية الآخر الطيبة ورأفته. فمن يمنع نفسه للأخر بالطريقة التي يهب بها الجندي نفسه، عليه أن يرمي مسبقاً كل أسلحته، وإذا برى نفسه أعزل لا يمكنه عندئذ الامتناع عن التساؤل متى ستقع الضربة القاضية. يمكنني أن أقول إذاً إن الحب بالنسبة لفرانز هو انتظار مستديم للضربة القاضية.

وفيما هو مستسلم لقلقه، وضعت صديقته ريشتها جانبًا وغادرت الغرفة. رجعت بعد قليل وفي يدها زجاجة نبيذ. ثم فتحتها وصبت كأسين. .

شعر بحمل ثقيل ينزعج عن صدره. فالكلمات: «أفضل جنيف» لم

تكن تعني أنها لم تعد راغبة في مضاجعته ولكن على العكس تماماً.
كانت تعني أنها سئمت من أن تقتصر لقاءاتهما الحميمة على إقامات
وجيزة في مدن أجنبية.

رفعت كأسها وأفرغتها دفعة واحدة. ورفع فرانز كأسه وشرب
بدوره. كان شعوره بالرضي يشتد بالطبع لاستنتاجه بأن رفضها الذهاب
إلى باليارمو هو في الواقع دعوة إلى الحب. لكنه من ثم شعر بشيء من
الأسى: ذلك أن صديقته أخذت القرار بانتهاك قانون النقاء الذي كان
ضمته لعلاقتهم. فهي لم تكن تدرك الجهد المضنية التي كان يبذلها
في سبيل أن يحمي حبها من التفاهم، ولكي يعزله تماماً عن العرش
الزوجي.

كان امتناعه عن مضاجعة عشيقته في جنيف قصاصاً فرضه على
نفسه ليماقبها جزاء زواجه من واحدة أخرى. وهو كان يتعامل مع هذا
الوضع وكأنه خطيئة أو نقيبة. أما فيما يخص حياته العاطفية مع
زوجته، فلا شيء هناك يستحق الذكر عملياً، باستثناء أنهما كانا ينامان
معاً في السرير، وكل واحد منها يوقظ الآخر بشخيره، وأنهما كانوا
يتenschan نتابة جسديهما المشتركة. بالطبع كان يفضل النوم وحده ولكن
السرير المشترك يبقى رمز الزواج، والرموز كما نعرف لا تُمس.

كان كلّما يندس في الفراش قرب زوجته، يفكّر في عشيقته
ويتخيلها تندس قربه في السرير مكان زوجته. كانت الفكرة في كل مرة
تُخجله فيحاول أن يبعد بين السرير الذي ينام فيه مع زوجته، وبين
السرير الذي يضاجع فيه عشيقته.

سكت لنفسها كأساً أخرى من النبيذ. شربت جرعة. ثم، دون أن
تقول كلمة وبلا مبالاة غريبة، وكأن فرانز لم يكن موجوداً، نزعت
قميصها بيضاء. كان تصرفها كمثل طالب يُجري تمريناً ارتجالياً في فن
التمثيل، ويفترض به أن يظهر فيه كما لو كان وحيداً، ولا أحد يراه.

بقيت في التنورة والصدرية، ثم (وكانها تذكرت فجأة أن هناك أحداً في الغرفة) شخصت طويلاً إلى فرانز.

كانت هذه النظرة تزعجه لأنه لم يكن يفهمها. هناك قواعد لعب تنتظم سريعاً فيما بين العشاق دون أن يعوها، ولكنها تؤثر فيهم مثل سلطة القانون، وعليهم ألا يخرقها. أما تلك النظرة التي شخصت بها إليه فكانت متفلّتاً من هذه القواعد. ولم يكن هناك أي شيء مشترك بينها وبين النظارات أو الحركات التي تسبق عادة عناقهما. كانت هذه النظرة لا تعبّر عن تحدي أو إغراء بل يجول فيها سؤال ما. ولكن فرانز لم يكن يعرف إطلاقاً عمّا كانت تسائله هذه النظرة.

خلعت تنورتها، ثم أمسكت بيده ودارت به باتجاه مرآة كبيرة مسندة إلى الحائط، على بعد خطوات قليلة، ثم، من دون أن تفلت يده، أخذت تنظر في المرأة الشاحضة المتسائلة ذاتها، تارة تنظر فيها وتارة أخرى إليه.

إلى جانب المرأة، على الأرض، كانت هناك قبعة قديمة معلقة فوق دكة تحمل رأساً مستعاراً. انحنى فأمسكت القبعة ثم أدخلت رأسها فيها، فتغيرت الصورة للحال في المرأة: كانت هناك صورة لامرأة في ثيابها الداخلية، جميلة، لا تُطال، لامبالية وعلى رأسها قبعة غير لائقة إطلاقاً.. وكانت تمسك بيده رجل يرتدي بدلة رمادية ويضع ربطة عنق.

تعجب مرة ثانية من أنه أساء إلى هذا الحدّ فهم ما ترمي إليه عشيقته. لم تتعزّ من أجل أن تغريه بل لكي تشيطن معه ولكي تلعب تمثيلية حميمة مرتجلة لهما وحدهما. فابتسم ابتسامة تفهم وامتثال.

كان يعتقد أنها ستبتسم له هي أيضاً ولكن توقيعه خاب. فهي لم تكن تترك يده بل كانت تجول بنظرها بينه وبين القبعة والمرأة.

تجاوزت مدة التمثيلية المرتجلة الحدود. كان فرانز يجد أن الملهأة (التي كان يقر بأنها ساحرة على كل حال) قد طالت أكثر من اللازم. فامسك القبعة الرجالية بين إصبعيه وانتزعها عن رأس سابينا وهو يتسم، ثم علقها فوق القاعدة.. كان الأمر كمن يمحو شاربين رسمهما ولد عفريت على صورة لمريم العذراء.

بقيت جامدة لبعض ثوانٍ تتأمل نفسها في المرأة. ثم غمر فرانز جسدها بقبلات رقيقة. وطلب منها مرة أخرى أن تصحبه إلى باليرمو في رحلة تدوم عشرة أيام. فوعدها هذه المرة دون موافية بالذهب، وعلى هذا غادر.

عاد إليه مزاجه الجيد ثانية. كانت جنيف التي لعنها طوال حياته على أنها مدينة الضجر، تبدو له الآن جميلة وحافلة بالمغامرات. ثم التفت ونظر إلى نافذة المحترف الزجاجية.

كانت هذه آخر أسبوع الربيع وكان الطقس حاراً. وكانت النوافذ مسدلة ستائرها. بلغ فرانز حدقة ترتفع فوقها في البعيد قبب الكنيسة الأرثوذكسيّة شبيهة بكرات ذهبية التققطتها قوى خفية قبل تلاطّها وأثبتتها في الفضاء. كان هذا المشهد جميلاً.. نظر فرانز إلى الرصيف ليستقلّ مركباً يقلّه إلى الجانب الآخر من البحيرة، إلى الضفة اليمنى حيث كان يقيم.

2

بقيت سابينا وحيدة. انتصبت من جديد، وهي لا تزال في ثيابها الداخلية، أمام المرأة. اعتمرت القبعة من جديد ونظرت إلى نفسها ملياً. كانت متعجبة من أن تكون اللحظة الضائعة ذاتها تلتحقها بعد كل هذه السنوات.

ها إنّ سنوات قد مرّت عندما جاء توماس إليها وأسرته هذه القبعة. اعتمرها وأخذ يتأمل نفسه في المرأة الكبيرة التي كانت مستندة آنذاك إلى حائط شقة ساينيا الصغيرة في براغ. كان يريد أن يرى كيف ستكون هيئته فيما لو كان مختار مدينة ريفية صغيرة خلال القرن الفائت. ثُمّ، وعندما أخذت ساينيا تخلع ثيابها على مهل، وضع القبعة على رأسها. كانا واقفين أمام المرأة (كانا يقفنان دائمًا هكذا عندما كانت تخلع ثيابها) يسترقان النظر إلى صورتهما. كانت في ثيابها الداخلية وكانت تعتمر القبعة. ثم انتبهت فجأة إلى أنّ هذه اللوحة تثير كلّيهما.

ثُرى كيف كان ذلك ممكناً؟ قبل ذلك بقليل كانت القبعة التي تضعها على رأسها وكأنّها مجرد مزحة. ماذا! ألا يفصل المضحك عن المثير غير خطوة واحدة؟

نعم. لأول وهلة حين نظرت إلى نفسها في المرأة، وجدت الأمر مضحكاً. ولكن فيما بعد، ضاع الضحك في الإثارة: فالقبعة لم تعد إثارة هزلية بل صارت تعني العنف، العنف الذي يمارس على ساينيا وبنال من قيمتها كامرأة. كانت ترى نفسها عارية الساقين في سلิپ شفاف تظهر من خلاله عانتها. كانت الملابس الداخلية تؤكد على سحر أنوثتها، أما القبعة الرجالية المصنوعة من لباد سميك فتنفي تلك الأنوثة وتنتهكها وتهزأ منها. كان توماس واقفاً إلى جانبها بكامل ثيابه، وهذا يعني أنّ خلاصة ما كانا يشاهداه ليس النكتة، (إذ كان بإمكانه أن يكون هو أيضاً في ثيابه الداخلية ومعتمراً قبعة رجالية) بل الذلّ. وهي كانت تعرّض هذا الذلّ بتحدّ وفخرٍ بدل أن ترفضه، وكأنّها سمحت لنفسها بأن تُختصب بطوع إرادتها وأمام الملا. ثُمّ حين لم تعد تقوى على البقاء في هذا الوضع أوقعت توماس على الأرض وتدحرجت القبعة تحت الطاولة. كان جسدهما يتلويان فوق السجادة أمام المرأة.

فلنرجع مرة أخرى إلى هذه القبعة:

قبل كل شيء، كانت هذه القبعة أثراً تركه جد منسي كان مختاراً لمدينة صغيرة في بوهيميا، أثناء القرن الماضي.

وثانياً، كانت تذكاراً من والد سابينا. فبعد أن استأثر أخوها بميراث والديها على إثر جنازة والدها، كابررت سابينا ورفضت باصرار أن تدافع عن حقوقها، ولكنها قالت بلهجة ساخرة إنها ستحفظ بالقبعة الرجالية على أنها الإرث الوحيد الذي بقي لها من والدها.

وثالثاً، كانت من متممات الألاعيب الجنسية مع توماس.

ورابعاً، كانت رمزاً لتميزها الذي تعمل على تغذيته. لم يكن في استطاعتها، حين هاجرت، أن تحمل الشيء الكثير، وهي، لكي تحمل معها هذا الشيء المزعج والباطل استعماله، وجب عليها إذاً أن تتخلّى عن حوائج أخرى أكثر منفعة.

وخامساً، كانت القبعة الرجالية قد صارت في الخارج رابطاً عاطفياً. وهي حين ذهبت للقاء توماس في زوريغ أخذتها معها، ثم اعتمرتها عندما فتحت له باب غرفتها في الفندق. وعندئذ حصل شيء غير متوقع. لم تعد القبعة مضحكة ولا مثيرة بل صارت ذكرى من الماضي. وكان كلامها منفعلاً فمارسا الحب كما لم يفعلوا في أي وقت كان: لم يكن هناك مكان للألاعيب الماجنة، ولا كان لقاؤهما امتداداً للأعبيهما الجنسي حين كانوا يتخيلان كل مرة نزوة جديدة، إنما كان تكثيفاً للوقت ونشيداً لذكرى ماضيهما المشترك. تكثيفاً عاطفياً لحكاية غير عاطفية توشك أن تلاشى في البعيد.

كانت القبعة تصير إذاً لازمة موسيقية في المقطوعة التي هي حياة سابينا. كانت هذه الازمة تتكرر دائماً وأبداً آخذة في كل مرة معنى جديداً. وكانت هذه المعاني تمرّ كلها عبر القبعة الرجالية كما يمرّ الماء في مجرى النهر. وأستطيع القول إنّ مجرى النهر هذا مشابه لمجرى

نهر هيراقليطس: «لا يستحمل المرء مرتين في النهر نفسه». كانت سابينا ترى أن القبعة الرجالية مجرى نهر يسيل فيه كل مرة نهر آخر، نهر «دلالي آخر»، حيث يثير الشيء نفسه كل مرة معنى جديداً، ولكن هذا المعنى الجديد كان يرجع (مثلاً صدى أو موكب أصوات) كل المعاني السابقة.. فتضُلُّ حيتها كل تجربة جديدة معيوضة بإيقاع أكثر غنى.. وفي زوريخ، في غرفة الفندق، كانا منفعلين لدى رؤية القبعة، ومارسا الحب وقتذاك وهما على حافة البكاء. ذلك لأن هذا الشيء الأسود لم يكن فقط ذكرى لألاعيبهما الجنسية بل كان أيضاً أثراً تركه والد سابينا وجدها اللذان عاشا في أزمنة لا سيارات فيها ولا طائرات.

ربما في المستطاع الآن أن نفهم بشكل أفضل الهوة التي تفصل بين سابينا وفرانز: صحيح أنه كان يصغي إليها بانتباه كلي وهي تحدثه عن حياتها، وكانت هي أيضاً تصغي إليه بالانتباه نفسه. وصحيح أنها كانا يفهمان المعنى المنطقي للكلمات التي يتfovَّهان بها، ولكن من دون أن يسمعا خرير النهر الدلالي المتدقق عبر هذه الكلمات.

لذلك فإن فرانز أحسن، حين وضعت سابينا القبعة فوق رأسها، بأنه متزعج كان أحداً يتحدث إليه بلغة يجهلها. لم يكن يجد هذا التصرف ماجناً أو عاطفياً، بل كان فقط تصرفاً غير مفهوم، وغياب معناه أمر يربكه.

وحيث أن الناس لا يزالون في سن الشباب، وحيث إن مقطوعة حياتهم الموسيقية لا تزال في أنغامها الأولى، فإن بإمكانهم والحالة هذه تأليفها سوية وتبادل بعض اللوازم فيما بينهم (مثل توماس وسابينا اللذين تبادلا لازمة القبعة الرجالية). ولكن حين يلتقاون في سن أكثر نضجاً، فإن مقطوعاتهم الموسيقية تكون قد قاربت على النهاية، وكل كلمة وكل شيء في كل مقطوعة تعني شيئاً مختلفاً في المقطوعة الأخرى.

لو استعدت كل الممرات اللغوية بين سابينا وفرانز، فإنّ لائحة الكلمات غير المفهومة ستؤلف قاموساً ضخماً. فلنكتفي إذاً بمعجم صغير.

3

معجم صغير للكلمات غير المفهومة (الجزء الأول)

امرأة:

أن تكون المرأة امرأة فهذا، في نظر سابينا، وضع لم تختره بنفسها. وما هو ليس ناتجاً عن اختيار لا يمكن اعتباره لا استحقاقاً ولا فشلاً. وسابينا تفكّر أنه يفترض بنا، حيال وضع فرض علينا، أن تصرف بطريقة مناسبة. كما ويبدو لها أيضاً أن احتجاجها على كونها امرأة أو الاعتراض بذلك أمران سخيفان بالقدر ذاته.

قال فرانز في أحد لقاءاتهما الأولى وبينبرة مميزة: «سابينا، أنت امرأة». لم تكن فاهمة لماذا أعلن لها على هذا النحو الاختفالي وكان كريستوف كولومبوس يعلن لتوه عن اكتشاف أحد سواحل أميركا. ولكنها فهمت فيما بعد أنَّ كلمة «امرأة» التي تلفظها بفصاحة مميزة لم تكن تعبر بالنسبة له عن صفة تميز أحد جنسي النوع البشري، وإنما كانت تمثل «قيمة». إذ ليست كل النساء جديرات بأن يُدعين «نساء».

لكن إذا كانت سابينا هي «المرأة» بالنسبة لفرانز فما هي حال ماري - كلود زوجته الفعلية؟ لعشرين سنة خللت (كانا يعرفان بعضهما حينذاك منذ أشهر قليلة) هدّدته بأنها ستنتحر إن هو تركها، فوجد فرانز نفسه مفتوناً بهذا التهديد. لم تكن ماري - كلود من النوع الذي يعجبه، ولكن حبها كان يبدو له ساماً. كان يجد نفسه غير جدير بحب كبير كهذا فاعتبر أنَّ من واجبه أن ينحني أمامه بحيث يدنو كثيراً من الأرض.

وهكذا انحنى ساجداً حتى الأرض فتزوجها. ومع أنها لم تعد تظهر إطلاقاً حدة الشعور التي أظهرتها حين هدته بالانتحار، فإنَّ هذا الواجب بقي حياً في ضميره ومفاده: لا يؤذني ماري - كلود مهما كان وأن يحترم المرأة فيها.

غريب أمر هذه الجملة.. لم يكن يقول في نفسه إنَّ عليه احترام ماري كلود بل: احترام المرأة في ماري - كلود.

ولكن، إذا كانت ماري - كلود هي نفسها امرأة، فمن هي إذاً تلك المرأة الأخرى التي تخبيء فيها، والتي يجب عليه أن يحترمها؟ أو تكون هذه الفكرة الأفلاطونية عن المرأة.

لا، بل كانت هذه المرأة أمه. لم يكن ليخطر بباله قط أن يقول مثلاً إنه يحترم المرأة في أمها. فهو كان يعبد أمها بحد ذاتها وليس بسبب امرأة في داخلها. كانت الفكرة الأفلاطونية عن المرأة وأمه شيئاً واحداً متلازمَاً.

كان في الثانية عشرة من عمره تقريباً عندما تخلَّى والده عن أمه فوجدت نفسها بفتاة وحدها. كان فرانز يشك في أنَّ أمراً خطيراً قد حدث، ولكن أمه كانت تخفي المأساة خلف أحاديث حيادية ومتزنة خشية أن تصدمه. في ذلك اليوم بالذات، لاحظ فرانز، عندما غادرا المنزل للقيام بزيارة في المدينة، أنَّ أمه كانت ترتدي فرديتي حذاء مختلفتين. اضطرر لالأمر ورغب في أن يلفت نظرها لذلك ولكنه خشي أن يجرح شعورها في الوقت نفسه. جال مع أمه ساعتين في الشوارع وهو غير قادر على إشاحة بصره عن قدميها. وإذا ذاك بدأ يفهم ما معنى العذاب.

الوفاء والخيانة:

كان قد أحبَّها منذ الطفولة وحتى اللحظة التي رافقها فيها إلى

القبر. وأحبها أيضاً في ذكرياته. من هنا كان يستقي فكرة أن الوفاء هو فضيلة الفضائل. فالوفاء يجعل حياتنا متماسكة، ولو لاه لكان تبعثرت إلى آلاف الانطباعات العابرة.

كان فرانز يحدّث سايينا مراراً عن والدته وربما عن قصد، دون أن يعي ذلك: كان يقصد ربما أن تغوي قدرته على الوفاء سايينا فيكون هذا وسيلة ل يجعلها تتعلق به.

ولكن، ما كان يغوي سايينا ليس الوفاء بل الخيانة. كانت الكلمة «وفاء» تذكّرها بأبيها الذي كان رجلاً ريفياً متزمناً، يرسم أيام الأحد، من أجل متعته فقط، الشمس الغاربة فوق الغابات وباقات من الورود في إناء. بفضلـه، ابتدأـت بالرسم وهي لم تزل صغيرة جداً.. عندما بلـغـت سن الرابعة عشرة وقـعـت في حـبـ صـبـيـ من مثل سنـهاـ. فـذـعـرـ أـبـوـهـاـ وـمـنـعـهاـ منـ الخـروـجـ بمـفـرـدـهـاـ لـسـنـةـ كـامـلـةـ. وـفـيـ ذاتـ يـومـ أـرـثـهـ صـورـاـ لـبـيـكـاسـوـ فـضـحـكـ منـهـاـ بـصـوـتـ عـالـيـ. ولـكـنـ، إـذـاـ كـانـتـ لاـ تـمـلـكـ الحقـ فيـ أـنـ تـحـبـ صـبـيـ فيـ مـثـلـ سـنـهـاـ، فـلـهـاـ الحقـ عـلـىـ الأـقـلـ فيـ أـنـ تـحـبـ التـكـعـبـيـةـ. ذـهـبـتـ إـلـىـ بـرـاغـ بـعـدـ حـصـولـهـاـ عـلـىـ شـهـادـةـ الـبـكـالـورـيـاـ وـهـيـ مـرـتـاحـةـ لـشـعـورـهـاـ بـأـنـ يـامـكـانـهـاـ أـخـيرـاـ أـنـ تـخـونـ مـنـزـلـهـاـ.

الخيانة. منذ طفولتنا، والوالد ومعلم المدرسة يكررـانـ على مسامـعـناـ بـأنـهاـ أـفـطـعـ شـيـءـ فـيـ الـوـجـودـ. ولـكـنـ ماـعـنـىـ أـنـ نـخـونـ؟ـ أـنـ نـخـونـ هـوـ أـنـ نـخـرـجـ عـنـ الصـفـ لـنـنـطـلـقـ فـيـ الـمـجـهـولـ. وـسـايـنـاـ لـمـ تـعـرـفـ ماـهـوـ أـجـمـلـ مـنـ الـانـطـلـاقـ فـيـ الـمـجـهـولـ.

التحقـتـ بـمـعـهـدـ الـفـنـونـ الـجـمـيلـةـ وـلـكـنـ لـمـ يـكـنـ مـسـمـوـحـاـ لـهـاـ بـأـنـ تـرـسـمـ عـلـىـ طـرـيقـةـ بـيـكـاسـوـ. كانـ يـفـرـضـ عـلـيـهـاـ آـنـذاـكـ أـنـ تـطـبـقـ بـجـدـ ماـكـانـ يـسـمـيـ بـالـوـاقـعـيـةـ الـاشـتـراكـيـةـ، وـكـانـ الطـلـابـ فـيـ مـعـهـدـ الـفـنـونـ الـجـمـيلـةـ يـقـومـونـ بـإـجـرـاءـ رـسـومـ شـخـصـيـةـ لـرـؤـسـاءـ الدـوـلـ الشـيـوعـيـةـ. كـانـ رـغـبـتـهاـ إـذـاـ فـيـ أـنـ تـخـونـ وـالـدـهـاـ قـدـ بـقـيـتـ غـيـرـ مـرـتـوـيـةـ وـالـسـبـبـ أـنـ الشـيـوعـيـةـ كـانـتـ

مجرد أب آخر، صارم ومحدود مثل أبيها، ويمنع الحب (كان زمن التزمنت هو السائد آنذاك) وبيكاسو. تزوجت في براغ ممثلاً قليل الذكاء، ولكنها تزوجت منه فقط لأن صيتها كان ذاتاً كواحد غريب الأطوار، ولأن أبوها (أباها والشيوعية) كانا يعتبرانه غير مقبول.

ثم توفيت أمها. في اليوم التالي، بعد رجوعها إلى براغ وصلتها برقية: انتحر أبوها حزناً على أنها.

أخذها الندم: أي خطأ فادح في أن يرسم والدها وروداً في إناء وفي لا يحب بيكتسو؟ وهل كان خوفه من أن تعود ابنته حبلى وهي في الرابعة عشرة من عمرها، يُعتبر أمراً ذمياً؟ وألا يمكن من العيش دون زوجته هل هذا أمر يدعوه إلى المهزلة؟

ومن جديد، رجعت فريسة للرغبة في الخيانة: أن تخون خيانتها بالذات. فأعلمت زوجها (الذي لم تعد ترى فيه ذلك الرجل غريب الأطوار بل السكير المزعج) أنها ستركه.

لكن إذا كنا نخون «ب» الذي خنّا من أجله «أ» فهذا لا يعني أننا سنتصالح مع «أ». فحياة الرسامه المطلقة لا تشبه حياة والديها اللذين خانتهما. إن الخيانة الأولى لا يمكن إصلاحها وهي تشير عن طريق النتائج المتواالدة خيانات أخرى حيث تبعدها كل واحدة منها أكثر فأكثر عن نقطة الخيانة الأولى.

الموسيقى:

الموسيقى بالنسبة لفرانز هي الفن الأكثر قرباً من الجمال الدييونسي الذي يقدس النشوة. يمكن لرواية أو للوحة أن تدوّخنا ولكن بصعوبة. أما مع السمفونية التاسعة ليتهوفن، أو مع السوناتة المؤلفة لـآلتني بيانو وآلات الإيقاع لبارتوشك، أو مع أغنية للبيتلز، فإن النشوة تعتبرينا. من جهة أخرى فإن فرانز لا يفرق بين الموسيقى العظيمة والموسيقى

الخفيفة. فهذا التفريق يبدو له خبيثاً وبالياً، فهو يحب موسيقى الروك وموزار على حد سواء.

الموسيقى بالنسبة له محرّرة: إذ تحرره من الوحدة والانعزال ومن غبار المكتبات. وتفتح في داخل جسده أبواباً لتخراج النفس وتتأخّى مع الآخرين. كما لو أنه يحب الرقص إلى جانب ذلك ويشعر بالأسى لأن سابينا لا تشاطره هذا الولع.

ها إنهم يتناولان العشاء سوية في المطعم، ومكبرات الصوت ترافق مأدبهما بموسيقى صاحبة موقعة.

- قالت سابينا: أية حلقة مفرغة. الناس يصابون بالصمم لأنهم يسمعون الموسيقى بأصوات عالية وبازدياد. وبما أنهم مصابون بالصمم فإنه لا يتبقى لهم والحالـة هذه إلا أن يرفعوا من قوة الصوت أكثر.

- سأّلها فرانز: ألا تحبين الموسيقى؟

- لا، قالت سابينا. ثم أضافت: «ربما لو عشت في زمن آخر...». وفكّرت في عصر جان سيسيستيان باخ حين كانت الموسيقى أشبه بوردة مفتوحة وسط سهل شاسع يكسوه ثلج الصمت.

فالضجيج يلاحّقها تحت قناع الموسيقى مذ كانت صغيرة. وحين كانت طالبة في معهد الفنون الجميلة، كان عليها أن تمضي عطلات كاملة في «ورشة الشبيبة» كما كانت تُسمى آنذاك. كان الشباب يقيمون في مخيمات جماعية ويعملون على بناء الأفران لصهر الحديد. كانت مكبرات الصوت تقذف موسيقى زاعمة من الساعة الخامسة صباحاً إلى الساعة التاسعة مساءً. وكانت عندئذ تجتاحها رغبة في البكاء. ولكن الموسيقى كانت فرحة ولا يمكن الإفلات منها في أي مكان، لا في المرحاض ولا تحت الغطاء في السرير. كانت الموسيقى مثل قطيع من الكلاب أُفْلِتَ عليها.

كانت تعتقد وقتذاك أنَّ العالم الشيوعي هو العالم الوحيد الذي تسوده بربريَّة الموسيقى هذه. ولكنها الآن، في الخارج، ها إنها تستنتاج أن تحول الموسيقى إلى ضجيج بات سيرورة كوكبية تُدخل الإنسانية في الطور التاريخي للقبع الشامل. فالطابع الشامل للقبع يعلن عن نفسه عبر القبع السمعي الموجود في كل مكان: السيارات والدراجات والقيثارات الكهربائية والمطارق الهوائية ومكبرات الصوت وصفارات الإنذار. ولن يتأخِّر القبع المنظور عن الظهور في كل مكان ليلحق بالقبع السمعي.

بعد أن تعيشيا صعدا إلى غرفتهما ومارسا الحب. ثم بدأت الأفكار تختلط في رأس فرانز وهو على عتبة النعاس. كان يتذكر الموسيقى الصالحة في المطعم ويفكر: «للضجة حساتها. قمعها لا يمكننا أن نميز الكلمات» فهو مذ كان صغيراً لا يبني يتكلم ويكتب ويعطي دروساً ويختلف جملأً ويبحث عن عبارات ويصححها، إلى درجة لا يعرف أياً من هذه الكلمات يعود صحيحاً في النهاية، فيتلاشى معناها ويفقد من محتواه، ولا يبقى منها إلا فضلات وذرارات، إلا غباراً ورملاً يعم داخل دماغه و يجعله يشعر بالصداع الذي كان مرضياً ملازماً يؤرقه. فشعر عندها فجأة برغبة غامضة لا تقاوم في سماع موسيقى هائلة، في سماع ضجيج مطلق وصخب جميل وفرح يكتنف كل شيء ويُفرق ويختنق كل شيء، فيختفي إلى الأبد الألم والغرور وتفاهة الكلمات. فالموسيقى هي نفي للجمل، هي ضد - كلمة! كان راغباً في أن يبقى مع سابينا في عنق طويل، في أن يصمت وألا يتلفظ بأية جملة تاركاً المتعة تختلط بالجلبة الفاجرة للموسيقى. وعلى هذا الصخب الوهمي السعيد استغرق في النوم.

الضوء والظلمة:

الحياة بالنسبة لسابينا تعني الرؤية. والرؤبة يحدُّها حدان: الضوء

الباهر الذي يعمي البصر والظلمة التامة. ربما من هنا مصدر كرهها لكل تطرف. فالحدود القصوى ترسم الفاصل الذى تختفى من بعده الحياة. ثم إن الشغف بالتطرف سواء في الفن أو في السياسة رغبة مقتنة في الموت.

أما كلمة «ضوء» فهي لا توحى لفرانز بمنظر يضيئه النهار بعذوبة، وإنما توحى بمصدر الطاقة بحد ذاته: أي الشمس أو المصباح أو الكشاف. وتذكره أيضاً بالاستعارات المألوفة: شمس الحقيقة، نور العقل الساطع، إلخ . . .

وتتجذبه الظلمة كما يجذبه الضوء على حد سواء. في أيامنا هذه يعتبر إطفاء الضوء أثناء المضاجعة تصرفاً مضحكاً. هو يعرف ذلك ويترك ضوءاً صغيراً مضاءً فوق سريره. ولكنه لحظة يلجع ساينيا يغمض عينيه مع ذلك. والظلمة التي يراها حينئذ ظلمة كلية من دون صور أو رؤى، ظلمة لامتناهية ولا حدود لها. هذه الظلمة هي اللامنهاية التي يحملها كلُّ منا في أعماقه. (نعم، من يفتش عن اللامنهاية، ما عليه إلا أن يغمض عينيه).

وللحظة يشعر فرانز بالنشوة تنتشر في حنایا جسده، يتلوى ويدروب في اللامنهاية، في ظلمة كيانه ليصير هو نفسه اللامنهاية. لكن كلما كبر الإنسان داخل ظلمته الداخلية، تقلصت هيئته الخارجية. إنَّ رجلاً مغمض العينين ليس إلا بقايا ذاته. وهذا أمر مزعج للرؤى. وساينيا لا ت يريد أن تنظر إليه حينئذ بل تغمض عينيها بدورها. ولكنها لا تشعر أنَّ هذه الظلمة بالذات هي اللامنهاية، بل هي فقط عدم التوافق مع ما ترى، إنها إنكار لما هو مرئي ورفض للرؤى.

بلادها. مرة أخرى، كان الجدال يدور حول معرفة هل كان يفترض بهم أن يحملوا السلاح لمقاتلة الروس أم لا. من البديهي أن الجميع كان يطالب هنا، في حمى الهجرة، بوجوب القتال. ولكن سابينا اعترضت قائلة: «عودوا إذاً وقاتلوا!!».

ما كان يجدر بها أن تقول هذا. ها إن رجلاً شعره رمادي قد جعده عند المزین يشهر سبابته الطويلة في وجهها: «لا تتكلمي هكذا. جميعكم مسؤولون عما حصل. وأنت أيضاً. ماذا كنت تفعلين في بلادك ضد النظام الشيوعي؟ أكنت ترسمين، هل هذا هو كل شيء؟».

يعتبر تفتيش المواطنين ومراقبتهم من النشاطات الاجتماعية الأساسية والدائمة في البلدان الشيوعية. فلكي ينال رسام حقه في إقامة معرض أو يحصل مواطن على تأشيرة لقضاء عطلته على الشاطئ، أو لكي تم الموافقة على انضمام لاعب كرة إلى الفريق الوطني، يجب أن تجتمع أصلاً كل أنواع التقارير والشهادات التي تخصّهم، (شهادة الناطور وزملاء العمل والشرطة وخلية الحزب ولجنة التأمين) وهذه التصاريح يجمعها فيما بعد ويقيّمها ويراجعها موظفون مدربون لهذه المهمة. أما ما يُقال في هذه التصاريح فلا علاقة له البتة بموهبة المواطن في الرسم أو في لعب الكرة، ولا علاقة له بما إذا كانت تسمح له حالته الصحية بقضاء عطلة على الشاطئ. هناك أمر واحد يهم وهو ما يسمى «بالخلفية السياسية للمواطن» (أي ماذا يقول المواطن، في ماذا يفكر، كيف يتصرف، هل يشارك في الاجتماعات أو في التظاهرات في الأول من أيار). وبما أن كل شيء (الحياة اليومية والترقية والعطلات) مرتب بالطريقة التي يقيّمون بها سلوك المواطن، فإن الجميع مضطرون إذاً، (من أجل اللعب مع الفريق الوطني أو للتمكن من إقامة معرض، أو لقضاء عطلة على شاطئ البحر) للتصرف بطريقة تجعل علاماتهم حسنة.

هذا ما كانت سايننا تفكّر فيه وهي تسمع كلام الرجل ذي الشعر الرمادي. فهو لم يكن يهمه في أي حال أن يلعب أبناء بلاده بكرة القدم أو أن يرسموا بموهبة، (على أية حال لم يكن أي تشيكى يهتم إطلاقاً بما كانت ترسمه). إنما يهمه شيء واحد مفاده أن يعرف هل كانوا مقاومين لـإيجابيين أم سلبيين، في الطليعة أم في المؤخرة، جديين أم مخادعين، تجاه النظام الشيوعي.

بما أنها كانت رئامة فهي تعرف إذاً مراقبة الوجوه وتعرف أيضاً مذ كانت في براغ، سيما الناس الذين هم مولعون بمراقبة الآخرين وتقييمهم. فأولئك الناس تكون سبابتهم أطول قليلاً من الوسطى، ويشهرونها دائماً في وجه محدثيهم. على أية حال، الرئيس نوڤوتني مثلاً، الذي حكم بوهيميا طوال أربع عشرة سنة حتى عام 1968، كان لديه تماماً الشعر الرمادي نفسه المجدّد عند المزيّن، وبإمكانه أن يعتزّ بأنه يملك السبابية الأكثر طولاً بين سكان أوروبا أجمعين.

عندما سمع المهاجر المحتك من فم هذه الفنانة، التي لم يرَ قط لوحاتها قبلًا، بأنه يشبه ذلك الرئيس الشيوعي، احمرَ عنده وجهه، ثم شحب، ثم احمرَ من جديد، ثم شحب، ثم أراد أن يقول شيئاً فلم يقل، بل استغرق في الصمت. صمت الجميع معه، فما كان من سايننا إلا أن نهضت وغادرت.

كانت سايننا تشعر بالانزعاج، ولكن حين أصبحت على الرصيف، قالت في نفسها: ما الذي كان يجبرها في الواقع على معاشرة تشيكين؟ ما الذي يجمعها بهم؟ منظر؟ لو طلب منهم أن يقولوا بماذا تذكّرهم بوهيميا، فإنّ هذه الكلمة ستثير في ذاكرتهم صوراً مشتّة لا جامع فيما بينها.

أهي الثقافة إذاً؟ ولكن أية ثقافة؟ الموسيقى؟ دوفرجاك وياناتشك؟

ربما. ولكن ماذا لو أن تشيكيتاً واحداً لا يحب الموسيقى؟ تصير الهوية التشييكية دفعة واحدة شيئاً باطلةً.

أم هل هم الرجال العظام؟ يان هوس؟ لكن هؤلاء الناس لم يقرأوا في حياتهم كتاباً واحداً من كُتبه. والشيء الوحيد الذي بإمكانهم أن يفهموه بالإجماع هو اللهب، ومجد اللهب الذي أحرق فيه هوس بسبب أنه هرطوفي، ومن ثم مجد الرماد الذي صاره. وهكذا، فإن ماهية الروح التشييكية، فكرت سابينا، كانت متمثلة في الرماد، لا أكثر. هؤلاء الناس لا يجمعهم سوى شيء واحد: هزيمتهم والملامات التي يوجهها واحدهم للآخر.

كانت تسير بعجل وأفكارها بالذات تجعلها أكثر اضطراباً من اختلافها مع المهاجرين. كانت تعرف أن أفكارها مجحفة بحقهم، ويجب رتها الاعتراف بأن هناك تشيكيين مختلفين عن ذلك الشخص ذي السبابية المفرطة في الطول. ثم إن الصمت المزعج الذي أعقب الكلمات التي وجهتها له، لم يكن يعني أن الجميع يعيون سلوكها. إنما كانوا بالأحرى مذهولين نتيجة هذا الظهور المباغت للحق و لهذا الالتفهام الذي يقع الجميع ضحيته في الهجرة. ولكن لماذا لم تكون إذاً تشعر بالشفقة حيالهم؟ لماذا لم تكون تجدهم مثيرين للشفقة وبائسين؟

سبق لنا أن عرفنا الجواب: حين خانت أبيها انكشفت لها الحياة فجأة مثل طريق طويلة من الخيانات، حيث كل خيانة تجذبها كأنها آفة أو انتصار. فهي لم تكن تريد البقاء في الصفة ولن تبقى فيه! لن تبقى إلى ما لا نهاية في الصفة بمعية الناس ذاتهم والكلمات ذاتها! لذلك، فإن إجحافها هي بالذات يشيرها إلى أقصى الحدود. ثم إن سابينا لا تجد هذه الإثارة القصوى أمراً كريهاً، لا بل على العكس فهي تشعر بأنها أحرزت انتصاراً وأن أحداً ما غير مرئي يصدق لها.

بيد أن النسوة أخلت بعد قليل المكان للقلق: سيكون عليها

الوصول ذات يوم إلى نهاية هذه الطريق! سيكون عليها أن تنتهي يوماً من كل هذه الخيانات! وأن تتوقف نهائياً!

كان المساء قد حلَّ وكانت تمشي بعجلة على رصيف المحطة. كان قطار أمستردام على أهبة الرحيل. بحثت عن قافتلتها وقادها مفتش بشوش الوجه إلى المقصورة ففتحت الباب ورأت فرانز جالساً على سرير لا يزال غطاوه مرتبأ.. نهض لاستقبالها فضمته بين ذراعيها وغمرته بالقبلات.

كانت تشعر برغبة جامحة في أن تقول له كما تقول أتفه النساء: «لا تتركني، احتفظ بي إلى جوارك، استعبدني، كن قوياً». ولكنها لا تستطيع ولا تعرف أن تتلفظ بمثل هذه الكلمات. عندما أفلتها وتوقف عن عناقها، اكتفت بالقول: «كم أنا سعيدة لأنني بقربك».

لم تكن تستطيع أن تقول أكثر من ذلك نظراً لطبعها المتకتم.

5

معجم صغير للكلمات غير المفهومة (تابع)

المواكب:

في إيطاليا أو في فرنسا، بالإمكان إيجاد الحل بسهولة. فحين يجبرك أهلك على الذهاب إلى الكنيسة تنتقم منهم بانضمامك إلى أحد الأحزاب، (الحزب الشيوعي أو التروتسكوي أو الماوي، إلخ). أما والد سابينا فقد أرسلها أول الأمر إلى الكنيسة ثم بسبب خوفه فيما بعد، أجبرها على الالتحاق بالشبيبة الشيوعية.

لم تكن قادرة، حين سارت في موكب الأول من أيار، على السير بخطى موزونة. مع أن الفتاة التي خلفها كانت تناديها وتتدوس عمداً

على كاحلها. وإذا كان عليها أن تغتئ فهـي لم تكن تحفظ الكلمات فقط بل تفتح فـماً آخرـسـ. فلاحظ زملاؤـها هذا الأمر ووشـوا بهاـ. مـذـ كانت صـغـيرةـ إـذـاـ وهيـ تـأـنـفـ كلـ أـنـوـاعـ المـواـكـبـ.

تابع فـرانـز درـاسـاتهـ فيـ بـارـيسـ. وـبـمـاـ أـنـهـ كـانـ مـتـفـوقـاـ بـشـكـلـ اـسـتـثـانـيـ فإـنهـ، مـذـ كـانـ فيـ سـنـ الـعـشـرـينـ، وـهـوـ يـضـمـنـ مـهـنـةـ عـلـمـيـةـ أـكـيـدـةـ. وـكـانـ يـعـرـفـ مـنـذـ ذـلـكـ الـحـينـ أـنـهـ سـيـقـضـيـ حـيـاتـهـ بـيـنـ جـدـرـانـ المـكـتـبـ فيـ الجـامـعـةـ وـالـمـكـاتـبـ الـعـامـةـ وـقـاعـتـينـ أـوـ ثـلـاثـ لـإـلـقاءـ الـمحـاضـراتـ. كـانـ يـشـعـرـ عـنـدـ هـذـهـ الـفـكـرـةـ بـالـاختـنـاقـ. لـذـلـكـ كـانـ يـرـغـبـ فـيـ الـخـروـجـ مـنـ حـيـاتـهـ كـمـاـ يـخـرـجـ الـعـرـءـ مـنـ بـيـتـهـ لـلـذـهـابـ إـلـىـ الشـارـعـ.

كان يـسـكـنـ فـيـ بـارـيسـ وـكـانـ يـذـهـبـ تـلـقـائـيـاـ إـلـىـ التـظـاهـراتـ. كـانـ يـُـسـرـ حـيـنـ يـذـهـبـ لـلـاحـفالـ بـشـيـءـ مـاـ، وـلـلـمـطـالـبـةـ بـشـيـءـ مـاـ، وـلـمـعـارـضـةـ شـيـءـ مـاـ.. وـحـيـنـ لـاـ يـكـونـ وـحـيدـاـ بلـ فـيـ الـخـارـجـ بـمـعـيـةـ الـآـخـرـينـ. كـانـ المـواـكـبـ الـمـتـدـفـقـةـ عـلـىـ جـادـةـ سـانـ جـرـمانـ أـوـ الـوـافـدـةـ مـنـ سـاحـةـ الـجـمـهـورـيـةـ بـاتـجـاهـ الـبـاسـتـيلـ، تـسـحرـ لـبـهـ. فـالـجـمـاهـيرـ الـتـيـ تـتـقـدـمـ هـاتـفـةـ بـالـشـعـارـاتـ هـيـ صـورـةـ عـنـ أـورـوـبـاـ وـتـارـيـخـهـاـ. فـأـورـوـبـاـ هـيـ مـسـيـرـةـ كـبـرـىـ، مـسـيـرـةـ مـنـ ثـورـةـ إـلـىـ ثـورـةـ، مـنـ نـضـالـ إـلـىـ نـضـالـ، وـدـائـمـاـ إـلـىـ الـأـمـامـ.

ربـماـ فـيـ وـسـعـيـ أـنـ أـعـبـرـ عـنـ ذـلـكـ بـطـرـيقـةـ أـخـرىـ: كـانـ فـرانـزـ يـشـعـرـ أـنـ حـيـاتـهـ كـانـتـ غـيـرـ حـقـيقـيـةـ بـيـنـ أـورـاقـ الـكـتـبـ. وـكـانـ يـتـوـقـ إـلـىـ الـحـيـاتـ الـحـقـيقـيـةـ وـإـلـىـ السـيـرـ جـنـبـاـ إـلـىـ جـنـبـ فـيـ رـكـابـ رـجـالـ آـخـرـينـ وـنـسـاءـ آـخـرـيـاتـ. كـانـ يـتـوـقـ إـلـىـ صـخـبـهـمـ. لـمـ يـكـنـ يـدـرـكـ أـنـ مـاـ يـعـتـبرـهـ غـيـرـ حـقـيقـيـ (أـيـ انـكـبابـهـ عـلـىـ الـعـلـمـ فـيـ عـزـلـةـ الـمـكـتبـاتـ) كـانـ هـوـ حـيـاتـهـ الـحـقـيقـيـةـ، بـيـنـمـاـ المـواـكـبـ الـتـيـ كـانـ يـعـتـبرـهـاـ هـيـ الـحـقـيقـةـ كـانـتـ مـجـرـدـ مشـهـدـ أـوـ رـقـصـةـ أـوـ عـيـدـ، وـبـكـلـمـةـ أـخـرىـ: حـلـمـ.

كـانـ سـابـيـنـاـ تـسـكـنـ وـهـيـ لـمـاـ تـزـلـ طـالـبـةـ فـيـ مـدـيـنـةـ جـامـعـيـةـ. وـكـانـ الـجـمـيعـ مـجـبـرـيـنـ فـيـ الـأـوـلـ منـ أـيـارـ عـلـىـ الـذـهـابـ باـكـراـ إـلـىـ نـقـاطـ تـجـمـعـ

الموكب. ولكي لا يتغيب أحد من الطلبة كان هناك طلاب مناضلون وأماجورون يتحققون ما إذا كان المبني خالياً. كانت تذهب للاختباء في المراحيض ولا ترجع إلى غرفتها إلا حين يمر وقت طويل على انطلاق الجميع؛ في ذلك الحين كان يسود صمت لم تعرف له مثيلاً قط. كانت تصلها من بعيد موسيقى المسيرة. كانت مثل حلزونة مختبئة داخل صدفتها و يصلها من بعيد ارتداد أمواج العالم المعادي..

بعد أن تركت بوهيميا بستة أو سنتين، صودف مرورها في باريس في يوم الاحتفال بالذكرى السنوية للاجتياح. كانت تُقام تظاهرات للاحتجاج في ذلك اليوم، ولم تستطع أن تمنع نفسها من المشاركة فيها. كان هناك شبان فرنسيون يرفعون قبضاتهم زاعقين بشعارات ضد الإمبريالية السوفياتية. ومع أنَّ هذه الشعارات كانت تُعجبها، إلا أنها اكتشفت بدهشة أنها غير قادرة على الهتاف مع الآخرين. لم تستطع البقاء وسط الموكب إلا لدقائق معدودة.

أعلمت بعض الأصدقاء الفرنسيين بهذه التجربة فتعجبوا منها قائلين: «ألا ترغبين إذاً في النضال ضد اجتياح بلادك؟». كانت تؤيد أن يقول لهم إنَّ الشيوعية والفاشية وكل أنواع الاحتلالات تخفي في طياتها سرًا أكثر خطورة وشمولًا. وصورة هذا السُّر تجلّى في مواكب الناس الماشين في صفوف وهم يرفعون قبضاتهم هاتفين بالمقاطع اللغظية نفسها على نسق واحد. لكنها كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تشرح لهم ذلك، فأحسَّت بالانزعاج وغَيَّرت مجرى الحديث.

جمال نيويورك:

كانا يمشيان منذ ساعات طويلة في نيويورك.. كان المشهد يتغير إثر كل خطوة يقومان بها وكأنهما يتبعان شعاباً متعرجة وسط منظر ساحر في أحد الجبال: ثمة شاب يصلبي راكعاً في وسط الرصيف،

وعلى مقربة منه زنجية جميلة تشاءب وهي مستندة إلى شجرة، ورجل يرتدي بذلة سوداء يؤشر بيديه كأنه يدير فرقة موسيقية غير مرئية. كان الماء ينساب من فسقيات بركة جلس حولها بناؤون يتناولون غدائهم. وكانت سلالم معدنية ترتفع واجهات بيوت قرميدية حمراء قبيحة؛ وهذه البيوت كانت من البشاشة إلى حد أنها صارت جميلة. على مقربة منها تنتصب ناطحة سحاب زجاجية وخلفها ناطحة سحاب أخرى في أعلاها قصر عربي صغير مزدان بالأبراج والقناطر والأعمدة المذهبة.

كانت تفكير في لوحاتها: هناك أيضاً ثمة أشياء تتجاور مع أن لا علاقة لبعضها ببعض: من الأمام أفران مصاهر حديد في طور البناء وفي خلفية اللوحة مصباح.. وفي لوحة أخرى مصباح آخر كُممته(*) القديمة التي من الزجاج المرسوم تتشظى إلى جزيئات صغيرة تعلو مشهد مستنقعات حزين.

قال فرانز: «كان للجمال الأوروبي على الدوام طابع التعمّد.. وكان هناك دائماً مقصد جمالي في أصله وخطه ذات نفس طويل.. فاقتضى بناء كاتدرائية أو مدينة من عصر الأنوار، على أساس هذه الخطة، قروناً طويلة. أما جمال نيويورك ف مختلف تماماً. إنه جمال غير متعمّد، نشأ دون أن يعتمد الإنسان التفكير فيه كمثل مغارة من الماء المتحجر. فهو مؤلف من أشكال قبيحة بحد ذاتها ولكن تجاورها صدفة ودون أي تصميم مسبق وبشكل غير مرئي يجعلها تتألق فجأة بشاعرية ساحرة».

قالت سابينا: «تقول الجمال غير المتعمّد، صحيح. ويمكننا أن نضيف أيضاً الجمال عن غير قصد. فقبل أن يختفي الجمال نهائياً عن وجه الأرض، سيبقى موجوداً لبعض الوقت إنما عن غير قصد.

(Abat - jour) غطاء المصباح أو غلافه.

فالجمال عن غير قصد هو المرحلة الأخيرة من تاريخ الجمال». كانت تفكير في لوحتها الأولى التي تعد ناجحة فعلاً، حيث سال عليها طلاء أحمر عن غير قصد. نعم، كانت لوحاتها مرسومة وفقاً للجمال غير المتعَمَّد، وكانت نيويورك الجزء الخفي وال حقيقي من لوحاتها.

قال فرانز: «ربما جمال نيويورك غير المتعَمَّد هو أكثر غنى وتنوعاً بكثير من الجمال المفترط في الصرامة والذي هيأته مسبقاً خطة إنسانية. ولكن جمال نيويورك مختلف تماماً عن الجمال الأوروبي. إنه عالم غريب».

كيف؟ أيوجد شيء ما يتلقان في الرأي بشأنه؟ لا، هنا أيضاً الأمر مختلف. فغرابة الجمال النيويوركي تجذب سايننا بجنون. بينما هو يفتن فرانز ويرعبه في آن، إنه يثير فيه الحنين إلى أوروبا.

وطن سايننا:

تفهم سايننا تحفظ فرانز حيال أميركا. فهو مثال حي لأوروبا: أمه أصلها من فيينا وأبواه فرنسي، أما هو فسويسري.

فرانز معجب بوطن سايننا. وهو، حين تحدثه عن نفسها وعن أصدقائها في بوهيميا، وحين يسمع كلمات سجون ومداهمات ودببات في الشوارع وهجرة ومناشير وأدب ممنوع ومعارض ممنوعة، يشعر برغبة غامضة مفعمة بالحنين.

ويسِّر لسايننا: كتب عني أحد الفلاسفة مرةً فقال «إن كل ما أقوله ليس إلا نظريات تستعصي على البرهنة»، ووصفني «بأنني أكاد أكون سقراط يستحيل وجوده»، فشعرت عندها بأنه بالغ في إهانتي ورددت عليه بغضب. تخيلي أن هذه الحادثة النافهة هي الحادثة الأخطر التي

شاهدتها في حياتي! وأنّ حياتي بلغت بها أقصى حد من إمكاناتها المأسوية! يعيش كلّ ممّا نحن الاثنين في مستويات متباعدة. دخلت إلى حياتي دخول غوليفر إلى مملكة الأفراز.

سابينا تحتاج قائلة إنّ الصراعات والفواجع والماسي لا تعني شيئاً البطة ولا قيمة لها، وهي لا تستحق الاحترام أو الإعجاب. فكلّ ما يمكن للجميع أن يحسد فرانز عليه هو العمل الذي يتمكن من إنجازه في سلام.

يهز فرانز رأسه قائلاً: «الناس في المجتمعات الميسورة، ليسوا بحاجة إلى الأعمال اليدوية بل يكرسون أنفسهم للنشاط الذهني. لذلك فإنّ الجامعات في ازدياد مطرد والطلاب أيضاً. ولكي ينالوا شهاداتهم، عليهم أن يختاروا مواضيع لإنجازاتهم. وهناك عدد غير محدود من المواضيع، وبالإمكان معالجة كلّ ما يخطر في الأذهان. وما هي أكdas الورق المسود تماماً الدوائر التي صارت محزنة أكثر من المقابر لأنّ لا أحد يأتي إليها ولا حتى في عيد جميع القديسين. وهكذا فإن الثقافة تفرق في بحر من الكتب وفي وابل من الجمل، وفي جنون الكلم. صدقيني، إنّ كتاباً واحداً ممنوعاً في بلدك القديم لهو أهمّ بكثير من مليارات الكلمات التي تقدّفها جامعتنا».

في هذا الاتجاه بالذات يمكن أن يُفهم ضعف فرانز حيال كلّ أنواع الثورات. فهو في السابق تعاطف مع كوبا ثم مع الصين، ثم اشمارت نفسه من فظاعة نظامهما وخلص للاقتناع بمرارة بأنه لم يتبقّ له إلاّ هذا المحيط من الحروف التي لا قيمة لها ولا علاقة لها بالحياة. أصبح مدرساً في جامعة جنيف (حيث لا تظاهرات) ونشر نوع من نُكran الذات (كان يعيش في عزلة دون نساء ولا مواكب) عدّة أعمال علمية لاقت الكثير من النجاح. وفي ذات يوم انبثقت سابينا مثل ظهور عجيب. كانت آتية من البلاد التي ذابت فيها الأوهام الثورية منذ وقت

طويل، ولكن الذي بقي منها أكثر ما كان يعجبه في الثورات وهو: الحياة التي تعيش فوق المستوى العظيم للخطر والشجاعة والموت المهدّد. كانت سابينا تعيد له الثقة بعظمة المصير الإنساني. كانت جميلة بقدر ما تتراءى خلف قامتها مأساة بلادها الأليمة.

للاسف، إنّ سابينا لا تحب هذه المأساة. وكلمات سجون ومداهمات وكتب ممنوعة واحتلال ودبّابات هي بالنسبة لها كلمات بشعة خالية من أية حلاوة رومانسية. أما الكلمة الوحيدة التي لا تزال تطن في أذنيها مثل ذكرى حنين لبلادها هي كلمة مقبرة.

المقبرة:

المقابر في بوهيميا تشبه الحدائق. والأضরحة هناك يكسوها العشب والأزهار فاقعة الألوان. والأنصاب المتواضعة تختفي وسط اخضرار الأوراق. عند المساء، تكتظ المقبرة بشموع صغيرة مضاءة. فيُخيل للمرء أنّ الموتى يقيمون حفلة راقصة طفولية. نعم، حفلة راقصة طفولية، لأنّ الموتى أبرياء كالأطفال. مهما تكن الحياة أليمة، ففي المقبرة يُخيّم السلام على الدوام، حتى خلال الحرب في عهد هتلر وفي عهد ستالين، وفي ظلّ جميع الاحتلالات. وحين كانت تشعر أنها حزينة، كانت تركب سيارتها وتطلق بها بعيداً عن براغ لتنزه في إحدى مقابرها المفضلة. كانت هذه المقابر الريفية على خلفية تلال مائلة إلى الزرقة، جميلة وكأنها مُهود.

أما فرانز فهو يجد أن المقابر مزبلة قدرة من العظام والحجارة.

6

«لن أصعد أبداً في سيارة بعد اليوم. يخالجني خوف عظيم من أن أصاب بحادث سيارة! حتى ولو لم تكن الضربة قاضية، فإنّ الصدمة

التي تعقبها ترافقنا حتى نهاية أيامنا!»، كان النحات يقول ذلك وهو يمسك بطريقة لإرادية بسبابته التي أوشك أن يقطعها أثناء نحته الخشب، والتي نجح الأطباء في إنقاذهما من البتر بفضل معجزة.

كانت ماري - كلود تزعق بلهجة مستوفية للأصول: «ليس صحيحاً ما تقول. لقد حصل لي حادث سيارة وكان الأمر رائعاً. ما شعرت قط في حياتي أني كنت أحسن حالاً مما أنا عليه في المستشفى! لم أكن أستطيع أن أغمض جفناً و كنت أقرأ بطريقة تصل الليل بالنهار».

كان الجميع ينظرون إليها بدهشة بدا أنها ملأتها بالسرور. امترج انقباض فرانز (الذي كان يتذكر أن زوجته كانت محبطة جداً إثر هذا الحادث ولا توقف عن النحيب) بشيء من الإعجاب (فموهبة ماري - كلود هذه في أن تبدل صورة معاناتها تنم عن حيوية جديرة بالاحترام). ثم أردفت: «هناك في المستشفى بدأت أصنف الكتب إلى فتتین: الكتب النهارية والكتب الليلية. وهذا صحيح، هناك كتب للنهار وكتب أخرى لا يمكن قراءتها إلا في الليل».

كان الجميع ينظرون إليها بدهشة يتعريها الإعجاب. وحده النحات الذي كان يمسك إصبعه قد تقبض وجهه من ذكرى أليمة.

التفتت ماري - كلود ناحيته: «ضمن أي مجموعة تضع ستاندال؟».

لم يكن النحات مصغياً فرفع كتفيه بانزعاج. ثم قال ناقد فتى، كان على مقربة منه، إن قراءة ستاندال هي حسب رأيه قراءة نهارية.

أومأت ماري - كلود برأسها معلنة بصوتها الزاعق: «هذا ليس صحيحاً لا، لا، ثم لا، أنت لست محقاً! ستاندال كاتب ليلي».

كان فرانز يتبع النقاش عن الفن الليلي والنهاري من بعيد، وكان

لا يشغل باله إلا اللحظة التي ستدخل فيها سايننا. كان قد فكرا معاً لبضعة أيام ما إذا كان مستحسن أم لا أن تقبل سايننا الدعوة إلى حفلة كوكتيل تقيمها ماري - كلود على شرف جميع الرسامين والتحاتين الذين عرضوا في صالتها الخاصة. ذلك أن سايننا مذ تعرف إلى فرانز، وهي تحاشر رؤية زوجته. ولكنها إذ خشيت أن تفضح نفسها، اقتنعت بأن مجيئها سيكون طبيعياً أكثر وأقل إثارة للشبهة.

وبما أنه كان يسترق نظرات خاطفة إلى المدخل، تنبه إلى أن صوت ابنته ماري - آن، التي تبلغ ثمانى عشرة سنة، يخطب بإطناب ودون توقف في عمق الصالون. ترك المجموعة التي تترأسها زوجته لينضم إلى الحلقة التي تزعّمها ابنته، حيث كان هناك شخص جالس على الأرض والآخرون واقفين بينما ماري - آن جالسة على الأرض. كان فرانز متاكداً أن ماري - كلود، الموجودة في الناحية المقابلة من الصالون، ستجلس عما قريب على السجادة بدورها. فالجلوس على الأرض أمام المدعويين كان يعتبر آنذاك تصرفاً يؤكّد على أن المرأة الطبيعي يتصرف على سجيته وتقدمي واجتماعي وبارسي. وكانت ماري - كلود مشغوفة كثيراً بالجلوس على الأرض وفي كل الأمكنة المتوفرة.. حتى أن فرانز كان يخشى في أغلب الأحيان أن يجدّها جالسة على أرض الدكان الذي تشتري منه السجائر.

سألت ماري - آن الرجل الذي كانت تجلس قبالتها: «ماذا تفعل في هذه الأيام يا آلان؟».

فأراد آلان الساذج والشريف أن يردد بدقة على ابنة صاحبة الصالة، وأخذ يشرح لها طريقة الجديدة في الرسم والتي تجمع بين التصوير والرسم بالزيت. ما كاد يلفظ ثلاث جمل حتى أطلقت ماري - آن صفيرأً، لكن الرسام كان مرتكز الذهن فلم يسمع صفيرها وتتابع بتكلم ببطء.

همس فرانز: «هل في استطاعتك أن تقولي لماذا تصفرين؟».

- «لأنني أكره التحدث في السياسة»، أجبت ماري - آن بصوت

عالٍ.

كان هناك رجلان، في الواقع، واقفين في الحلقة نفسها يتحدثان في شأن الانتخابات الفرنسية المقبلة. فسألتهما ماري - آن التي كانت تشعر أنها معنية بإدارة الأحاديث بما إذا كانا سيذهبان في الأسبوع المقبل إلى المسرح حيث ستقدم فرقة إيطالية أوبرا لروسيني. فيما آلان الرسام لا يزال مصرًا على إيجاد عبارات أكثر دقة ليشرح طريقته الجديدة في الرسم؛ وكان فرانز خجلاً من ابنته فقال لها ليسكتها بأنه يضجر حتى الموت حين يذهب لمشاهدة الأوبرا.

قالت ماري - آن وهي تربت على بطن أبيها دون أن تحاول النهو: «أنت لا تفهم شيئاً. المغني الرئيسي جميل جداً يا إلهي كم هو جميل! رأيته مرتين ومنذ ذلك الوقت وأنا متيمة به».

كان فرانز يتحقق من أن ابنته تشبه أمها بشكل لا يرقى إليه الشك. لكن لماذا لا تشبهه هو بالأحرى؟ الأمر لا رجاء فيه، فهي لا تشبهه. سبق له ألف مرة أن سمع ماري - كلود تقول بأنها مغرمة بهذا الرسام أو بذلك، أو بمنْ أو بكاتب أو برجل سياسي، وحتى أنها أُعجبت مرة براكب دراجات. جليّ أن هذا الأسلوب في الكلام هو الأسلوب المتبعة في مآدب العشاء في المدينة والحفلات، لكنه كان يتذكر أحياناً أنها، منذ عشرين عاماً، قالت بشأنه الكلام ذاته وهدّته علاوة على ذلك بالانتحار.

في هذه اللحظة بالذات، دخلت سابينا. رأتها ماري - كلود فتقدمت لاستقبالها. كانت ابنته تتبع حديثها عن روسيني، ولكن فرانز كان آذاناً صاغية فقط لما تقوله المرأتان فيما بينهما. بعد بعض جمل

مؤدية مرحّبة، أمسكت ماري - كلود بالعقد الخزفي الذي كانت تضعه سايبينا حول عنقها وقالت بصوت عالٍ جداً: «ما هذا الذي تضعينه! إنه مرعب!».

استأثرت هذه الجملة بانتباه فرانز. لم تكن ملفوظة بنبرة عدائية، على العكس يفترض بالضحكة العالية التي واكبتها أن تؤكد على الفور أن استهجان ماري - كلود للعقد لا يغيّر شيئاً في صداقتها للرسامة: ولكن هذه الجملة لم تكن تندرج مع ذلك في سياق اللهجة التي تخاطب بها ماري - كلود الآخرين عادةً.

- «صنعته بنفسه»، قالت سايبينا.

- «أجده مرعباً صراحة»، كررت ماري - كلود بصوت عالٍ. «ما كان يجدر بك أن ترتديه».

كان فرانز يعرف أن زوجته لا يهمها إطلاقاً أن تكون حلية ما قبيحة أم جميلة. كان قبيحاً ما كانت ترغب في رؤيتها قبيحاً، وجميلاً ما كانت تريد أن تراه جميلاً. لذلك، كانت حللى صديقاتها جميلة عن سابق تصور. ربما كان يمكنها أن تجدها قبيحة لكنها كانت تخفي ذلك بعناية، فالإطراء صار منذ زمن بعيد طبيعتها الثانية.

لماذا قررت إذاً أن تجد الحلية التي صنعتها سايبينا بنفسها قبيحة؟ كان الأمر ينجلّي فجأة لفرانز: إذا كانت ماري - كلود قد صرّحت بأن حلية سايبينا قبيحة، فهذا لأنها قادرة على السماح لنفسها بأن تقول ذلك.

في العام الفائت، لم يكن عرض سايبينا ناجحاً بما فيه الكفاية ولم تكن ماري - كلود تهتم البتة بكسب ود سايبينا. بل خلافاً لذلك، كان سايبينا جميع الدوافع التي تدعوها لاكتساب ود ماري - كلود. ومع ذلك فإنّ تصرّفها لم يفصح عن هذا الأمر.

نعم، بدأ فرانز يفهم ذلك بوضوح كليًّا: اغتنمت ماري - كلود الفرصة لتأكد لسابينا (وللآخرين) ما هو ميزان القوى الحقيقي الذي يحدد علاقتهما.

7

معجم صغير للكلمات غير المفهومة (خاتمة)

كنيسة أمستردام القديمة:

من جهة، بجانب البيوت التي تُرى من خلف نوافذها الكبيرة في الطوابق السفلية والشبيهة بواجهات المخازن، تُلمع غرف العاهرات الصغيرة. ها هنَّ جالسات في ملابسهن الداخلية لصق الزجاج على كنبات صغيرة مزданة بالوسائد، وكأنهنَّ قطط ضخمة ضَبَّحة.

وفي الجهة الأخرى من الشارع كنيسة قوطية هائلة تعود إلى القرن الرابع عشر. وبين عالم العاهرات وعالم المؤمنين تتمتد، مثل نهر فاصل بين مملكتين، رائحة بول نفاذة.

من الداخل، لم يبق من الطراز القوطي غير الجدران العالية العارية والأعمدة والقبة والنواذ. لا وجود للوحة أو لتماثيل في أي مكان. والكنيسة خاوية مثل قاعة تمارينَ رياضية. كل ما نراه فيها عبارة عن صفوفٍ من الكراسي في الوسط تشكل مربعاً حول منصة منمنمة تنتصب عليها طاولة الواعظ الصغيرة، وخلف الكراسي ثمة مقصورات خشبية وهي حجيرات معدة للعائلات الثرية.

الكراسي والحجيرات الخشبية موضوعة هنا دون أدنى اهتمام بالشكل الهندسي للجدران ونسق الأعمدة، وكأنها بذلك تريد أن تُعبر عن لامبالاتها وعن اجتخارها لفن العمارة القوطي. قرون مرّت الآن على تحويل المذهب الكلفونيَّ الكنيسة إلى مجرد سقيفة بسيطة لا وظيفة

لها غير حماية المصليين المؤمنين من الثلج والمطر .
كان فرانز مسحوراً : فهذه الصالة الهائلة قد عبرتها المسيرة العظيمة
للتاريخ .

كانت سابينا تذكر أنه قد جرى تأمين جميع قصور بوهيميا بعد الانقلاب الشيوعي وتحولت إلى مراكز تدريب وإلى مؤسسات للعجزة ، وإلى زرائب أيضاً . قامت بزيارة إحدى هذه الزرائب : كانت هناك كلاليب بحلقات مثبتة إلى جدران الجصّ ، والأبقار التي كانت معلقة فيها تنظر حالمة عبر النوافذ إلى حديقة القصر حيث كانت تترافقن الدجاجات .

قال فرانز : «هذا الفراغ يسحرني . نكدس المذايحة والتماثيل والصور والكراسي والكنبات والسجاجيد والكتب ، ثم يأتي وقت البهجة الجماعية المحررة فيتم تكليس كل هذا كما تكتس الفضلات عن الطاولة .. هل في استطاعتك أن تخيلي مكنسة هرقل التي كنست هذه الكنيسة؟» .

أشارت سابينا إلى حجيرة خشبية : «كان الفقراء يبقون واقفين والأثرياء جالسين في حجيراتهم . لكن مع ذلك هناك شيء يجمع بين صاحب المصرف والفقر وهو : مفت الجمال» .

«ما هو الجمال؟» قال فرانز وقد فكر فجأة بمعرض شاهده مؤخراً برفقة زوجته . فكر في تفاهة الأحاديث التي لا تنتهي ، في تفاهة الثقافة وتفاهة الفن .

عندما كانت تلميذة ، كانت تعمل في «ورشة الشباب» ، وكانت روحها قد تشبعت سُمّ الأبواق الموسيقية المبتهةجة المتدفعقة دون توقف من مكبرات الصوت ، فانطلقت ذات يوم أحد راكبة على دراجة . كانت توغلت بضعة كيلومترات داخل غابة ، ثم توقفت في مدينة صغيرة

مجهولة ضائعة وسط التلال. أسندت الدراجة إلى حائط الكنيسة ودخلت: كانوا يحتفلون ل ساعتهم بالقداس.. كان النظام الشيوعي آنذاك يضطهد الدين وكانت أغلبية الناس تتحاشى الذهاب إلى الكنائس. كان هناك بضعة عجزة جالسين على المقاعد لا يهابون النظام بل يهابون الموت فقط.

كان الكاهن يلفظ جملة بصوت رخيم فيرددها الجموع وراءه سوية. كانت الجمل عبارة عن طلبات حيث تتكرر الكلمات ذاتها مثل سائح لا يمكنه إشاحة بصره عن منظر، ومثل رجل لا يستطيع الاستئذان بالانصراف أبداً. جلست على مقعد في الخلف. كانت تغمض عينيها أحياناً لا شيء إلا لسماع موسيقى هذه الكلمات، ثم تفتحها من جديد فترى فوقها القبة المطلية بالأزرق التي تزيينها نجوم ذهبية كبيرة. فاستسلمت لهذه الفتنة.

ما صادفته في هذه الكنيسة على غير موعد لم يكن الله بل الجمال. كانت تعرف جيداً في الوقت نفسه أنَّ هذه الكنيسة وهذه الطلبات لم تكن جميلة بحد ذاتها وإنما هي جميلة بالمقارنة مع تجاورها اللامادي مع «ورشة الشباب» حيث كانت تمضي أيامها في خضم الأغاني الصاخبة. كان القدس جميلاً لأنَّه بدا لها فجأة وبطريقة خفية وكأنَّه عالم جرت حياته.

أدركت منذ ذلك الحين أنَّ الجمال هو عالم جرت حياته ولا تمكن مصادفته إلا حين ينساه مضطهدوه عن غير قصد في مكان ما.. كان الجمال يختبئ خلف «ديكورات» موكب الأول من أيار، ولكي يتم العثور عليه يجب تمزيق قماشة «الديكور».

قال فرانز: «إنَّها المرة الأولى التي أقع فيها تحت تأثير سحر كنيسة». لم تكن البروتستانية أو التقشف هما اللذان يثيران حماسته،

إنما شيء آخر جوانبي صميم، ولم يكن يجرؤ على الإفصاح عنه لسابينا. كان يُخَيِّلُ إليه أنه يسمع صوتاً يُملئ عليه أن يمسك بمكنسة هرقل ويكتنف من حياته معارض ماري - كلود ومتى ماري - آن والمؤتمرات والندوات والخطب التافهة والكلمات التي لا قيمة لها. بدا له فراغ المساحة الشاسعة لكنيسة أمستردام وكأنه صورة انعتاقه الشخصي.

القصة:

كانت سابينا تلهو بذراعي فرانز في سرير من أسرة الفنادق العديدة التي كانا يتضاجعان فيها، وتقول: «عجب، كم أن عضلاتك مفتولة!».

كان هذا الثناء يدخل السرور إلى قلب فرانز. نهض عن السرير ثم أمسك كرسياً من خشب السنديان من رجله وشرع يرفعه بيضاء عن مستوى الأرض. كان يقول لسابينا في الوقت نفسه:
- «لا خوف عليك، أستطيع الدفاع عنك في كل الظروف. كنت بطلاً في الجودو منذ زمن».

نجح في رفع ذراعه عمودياً وهو يحمل الكرسي. ثم قالت له سابينا: «يسعدني أن أراك قوياً إلى هذا الحد!».

ولكنها أضافت في سرها ما مفاده: فرانز قوي ولكن قوته موجهة فقط نحو الخارج. أما مع الناس الذين يعيش بينهم، مع أولئك الذين يحبهم فهو ضعيف. ضعف فرانز يسمى الطيبة. فرانز ليس على استعداد إطلاقاً لأن يوجه أوامر لسابينا. فهو لن يأمرها أبداً، كما كان توماس يفعل في السابق، بأن تضع المرأة على الأرض وأن تجول فوقها عارية تماماً. ليس لأن الشهوة تنقصه بل لأنه لا يقوى على إعطاء الأوامر. ثمة أشياء لا يمكن تحقيقها إلاً عن طريق العنف. والعلاقة

الجنسية خصوصاً لا يمكن تصوّرها من دون العنف.

كانت سابينا تنظر إلى فرانز وهو يجول الغرفة رافعاً الكرسي عالياً جداً. كان الأمر يبدو لها مثيراً للسخرية ويملاها بحزن غريب.

ألقى فرانز الكرسي وجلس مستديراً بوجهه ناحية سابينا ثم قال:

- «ليس أمراً لا يروقني أن أكون قوياً، ولكن بماذا يمكن أن تنفعني عضلات كهذه في جنيف؟ أحملها معك وكأنها زينة، كأنها ريشات الطاووس. لم يسبق لي أن ضربت أحداً في حياتي».

كانت سابينا تلاحظ أفكارها الكثيبة. ماذا لو أحبت رجلاً يصدر إليها الأوامر؟ من هو ذلك الذي سيرغب في التحكم بها؟ وكم من الوقت ستتحمله؟ ولا حتى خمس دقائق! هذا يعني أنّ أمّاً من الرجال لا يناسبها، لا قوياً ولا ضعيفاً.

- قالت: «ولم لا تستعمل قوّتك معك من وقت لآخر؟».

- قال فرانز برقة: «لأنّ الحب يعني أن تتخلّى عن القوة».

فهمت سابينا أمرئين: الأول أن هذه الجملة كانت جميلة وصحيحة، والثاني أنه يوشك مع هذه الجملة أن يتجرد من صلاحيته لحياتها الجنسية.

العيش في الحقيقة:

إنها عبارة استعملها كافكا في يومياته أو في إحدى رسائله. لم يعد فرانز يتذكر أين بالضبط. ولكن هذه العبارة تسحره. فما معنى أن نعيش في الحقيقة؟ ثمة تعريف سلبي سهل: معناه ألا نكذب وألا نُخفي وألا نتكلّم. وهو، مذ تعرّف إلى سابينا، يعيش في الكذب. فتارةً يحكى لزوجته عن مؤتمر في أمستردام، وتارةً أخرى عن محاضرات في مدريد لا أساس لها من الصحة. وهو أيضاً يخاف من التنّزه برفقة سابينا في

شوارع جنيف. أن يكذب وأن يتخفى أمر ممتنع لمجرد أنه لم يفعل ذلك من قبل، فهو يشعر عندها بدغدغة لذريعة كما عندما يقرر الأول في صفة أخيراً أن يتزهه بدل الذهاب إلى المدرسة.

أما العيش في الحقيقة وعدم الكذب على أنفسنا وعلى الآخرين، بالنسبة لسابينا، فأمر غير ممكن، إلا إذا عشتنا بعيداً عن الناس، فـما إن يكون هناك شاهد على أعمالنا حتى نتأقلم طوعاً أو كرهاً مع العيون التي تراقبنا، فلا يعود أي شيء مما نقوم به حقيقياً. أن نحظى بجمهور وأن نفك في جمهور، وهذا يعني أن نعيش في الكذب. سابينا تكره الأدب الذي يكشف فيه الكاتب عن حياته الخاصة أو عن حياة أصدقائه الخاصة.. وتعتقد سابينا أن ذلك الذي يفقد حياته الخاصة يفقد كل شيء. وأن من يتخلص عنها بكمال إرادته، إنما هو مسخ. لذلك فإنّ سابينا لا يؤلمها أن يكون عليها أن تُخفي حبها. بل على العكس، هذه هي وسليتها الوحيدة لكي تعيش في الحقيقة.

أما فرانز فهو متتأكد أن أصل جميع أنواع الكذب يكمن في الفصل بين الحياة الخاصة والحياة العامة: حين يكون المرء شخصاً في حياته الخاصة وشخصاً آخر في حياته العامة. فالعيش في الحقيقة، بالنسبة لفرانز، هو إلغاء الفاصل بين الخاص والعام. وهو يتذكر في هذه المناسبة تلقائياً جملة لبروتون يقول فيها إنه كان يود أن يعيش «في متزل من زجاج»، حيث لا شيء خفي وكل شيء مُشرّع للأنظار كلها.

عندما سمع زوجته تقول لسابينا: «يا للحلية المريعة!»، فهم عندئذ أنه بات من المستحيل العيش في الكذب. وأنه كان عليه منذ تلك اللحظة أن يبادر للدفاع عن سابينا. وإذا لم يكن قد فعل ذلك، فهذا فقط لأنّه خاف من أن يُفضّل أمراً حبه السري.

غداة اليوم التالي بعد الحفلة، كان يفترض به الذهاب لقضاء يومين في روما. كانت الكلمات: «يا للحلية المريعة!» تطّنّ من دون توقف

في أذنيه، ويدت له زوجته من وجهة نظر مختلفة. لم تعد كما كان يراها دائماً. إن عدائيتها المنية والصاخبة والдинاميكية أزاحت عنه ثقل الطيبة الذي كان يرثح تحته طوال عشرين سنة زواج. تذكر المساحة الشاسعة داخل كنيسة أمستردام، فأحسن بالحماس الغريب والغامض الذي يشير في هذا الفراغ، يتذبذب في أعماقه.

كان يجهّز حقيبته عندما دخلت ماري - كلود إلى الغرفة.أخذت تتحدث عن مدعي البارحة، مصدقة بحماس بعض الآراء التي سمعتها، ومدينة بفظاظة بعضها الآخر.

نظر فرانز إليها طويلاً، ثم قال: «ليس هناك مؤتمر في روما».

لم تكن تفهم، فقالت: «ولماذا تذهب إلى هناك إذا؟».

فأردد: «الدي عشيقة منذ تسعه أشهر. لا أريد أن أراها في جنيف. لذلك أسافر بكثرة. فكرت أنه من المستحسن أن أخبرك بذلك».

حين تفوه بالكلمات الأولى أحس بالخوف وغادرته شجاعته الأولى. فأشاح بوجهه كي لا يقرأ على وجه ماري - كلود وقع اليأس الذي تُحدّثه كلماته.

بعد لحظة قليلة سمعها تقول: «نعم. أنا أيضاً أعتقد أنه من المستحسن أن تخبرني بذلك».

كانت نبرة كلماتها حازمة. رفع عينيه ناحيتها: لم تكن ماري - كلود منهارة فقط. بل كانت لا تزال تشبه المرأة التي كانت تقول بصوت زاعق: «يا للحلية المريعة!».

ثم تابعت قائلة: «ما دمت تملك الشجاعة لإعلامي بأنك تخونني منذ تسعه أشهر، هل تستطيع أن تقول لي أيضاً مع من؟».

كان يدعى دائماً أنه لا يفترض به أن يؤذى ماري - كلود، وأن

عليه احترام المرأة فيها. ولكن ما الذي صار بحال المرأة في ماري - كلود؟ وبطريقة أخرى، أين أصبحت صورة الأم التي كانت تربطه بزوجته؟ صورة أمه، أمّه الحزينة المجرورة التي ارتدت فردتنى حذاء مختلفتين، غادرت ماري - كلود، وربما لم تغادرها لأنها لم تكن موجودة فيها أصلاً. فهم كل هذا نتيجة هجمة مبالغة للكراهية.

فقال: ليس هناك ما يدعو لأنخفي عليك.

بما أن خيانته أمر لا يجرحها، فسيجرحها بالطبع أن تعرف من هي غريمتها. لفظ اسم سايننا وهو ينظر مباشرة إلى عينيها. بعد وقت قليل، وافى سايننا إلى المطار. كان، كلما علّت الطائرة، يشعر أنه يصير أكثر خفة. كان يقول في نفسه إنه في نهاية الشهر التاسع، ها قد بدأ أخيراً يعيش في الحقيقة.

8

كان الأمر في نظر سايننا كما لو أن فرانز يقتتحم باب حياتها الخاصة عنوة، فترى من الشق رأس ماري - كلود ورأس ماري - آن ورأس الرسام آلان ورأس النحات الذي كان يمسك بإاصبعه طوال الوقت، ورؤوس جميع الناس الذين تعرفهم في جنيف. كانت تصبح رغمًا عنها غريمة امرأة لا تعني لها شيئاً إطلاقاً.. ففرانز سيبادر إلى الطلاق وهي ستأخذ مكانها إلى جانبه على سرير زوجي كبير. وستكون محطة أنظار الجميع من قريب أو من بعيد. وبدل أن تكون سايننا، ستكون مرغمة على تمثيل دور سايننا وإيجاد الطريقة المناسبة للعب الدور. وهكذا، فإن الحب الذي صار علنّياً سيزداد وزناً ليصير حملًا ثقيلاً. كانت سايننا، لمجرد التفكير في ذلك، تر�� تحت ثقله سلفاً. كانوا يتناولان العشاء في أحد مطاعم روما ويشربان الخمرة، وكانت سايننا قليلة الكلام.

فستان فرانز: «هل صحيح أنك لست غاضبة مني؟». فأكدت له أنها ليست غاضبة منه. كانت أفكارها مشوشة تماماً ولا تعرف بعد ما إذا كان عليها أن تهمل للأمر أم لا. كانت تفكر في لقائهما في عربة النوم لقطار أمستردام. شعرت في ذلك المساء برغبة في الارتماء عند قدميه والتسلل إليه ليستيقنها قريباً حتى ولو اضطره الأمر لاستعمال القوة، وألا يدعها ترحل أبداً.

كانت راغبة ذلك المساء في أن تنهي حساباتها نهائياً مع هذا السفر الطويل من خيانة إلى خيانة. كانت تساورها رغبة في التوقف.

الآن، ها هي تحاول أن تمثل في ذهنها وبأقصى حدة ممكنة، رغبتها السابقة، أن تستعيدها وتنتقى بها، ولكن عبثاً. كان الشعور بالضيق أقوى من كل شيء.

كانا متوجهين إلى الفندق وسط عجقة المساء، وكان الإيطاليون حولهما يفرقعون ويزعقون ويشرّبون بأيديهم، بحيث إنهما كانا يستطيعان المشي جنباً إلى جنب صامتين فلا يسمعان صوتهم.

بعدها، أمضت سابينا وقتاً طويلاً في الحمام وهي تهتم ب نفسها. وكان فرانز أثناء ذلك يتظرها تحت غطاء السرير الزوجي الواسع. وكان هناك كالعادة مصباح صغير مضاء.

حين رجعت من غرفة الحمام، أطفأت الضوء. هذه هي المرة الأولى التي تتصرف فيها على هذا التحول. كان يفترض بفرانز أن يرتاب لهذا التصرف ولكنه لم ينتبه لأن الضوء لا يثير اهتمامه. فهو، كما رأينا، يبقي عينيه مغمضتين أثناء المضاجعة.

ولهذا السبب بالذات، ولأنه كان يغمض عينيه، أطفأت سابينا الضوء. فهي ليس لديها أدنى رغبة في رؤية أجفانه المطبقة ولو لثانية واحدة. العيون، كما يقول المثل، هي نوافذ النفس. وهي كانت تشعر

أن جسد فرانز، الذي يتختبط فوقها وهو مغمض العينين، جسد دون روح. كان شبيهاً بحيوان صغير لا يزال غير قادر على الرؤية فيرسل أصواتاً مستعطفة لأنّه عطشان. كان فرانز بغضّلاته المفتولة يشبه أثناء الجماع جروأً ضخماً يرُضع من ثديها. وهذا صحيح، كانت حلمتها الآن في فمه وكأنّه يهمّ بأن يرُضع! كانت تفكّر أنّ فرانز ناضج في الأسفل ورضيع في الأعلى، وأنّها تضاجع رضيعاً، مما جعلها توشك أن تشعر بالتفزّز. لا، هي لا تزيد بعد اليوم أن تراه يتختبط بعنف فوقها ولن تمد له بعد الأنّ ثديها كما تفعل كلبة مع جروها. اليوم، هذه آخر مرّة، إنّها المرّة الأخيرة التي لا رجعة فيها!

كان جلياً أنها تعرف أنّ قرارها ظلم خالص، وأنّ فرانز هو أفضل رجل عرفه. فهو ذكي ويفهم لوحاتها وطيب وشريف ووسيم. ولكنها كانت كلّما وعثت هذه الصفات، تعصف رغبتها في أن تنكث بهذا الذكاء وهذه الطيبة وهذه القوة الخرقاء.

تضاجعته في هذه الليلة بحمية أكثر توقداً من أي وقت مضى. كانت تستثيرها فكرة المرّة الأخيرة. كانت تضاجعه، محلقة في مكان آخر بعيداً من هنا، كانت تسمع بوق الخيانة الذهبي صادحاً في البعيد، وكانت عارفة أنها غير قادرة على مقاومة هذا الصوت. بدا لها أن فضاء من الحرية ومتسعًا لا يزال مشرعاً أمامها، وأنّ اتساع هذه المسافة يثيرها. وفي هذه الثناء، كانت تضاجع فرانز بجنون وبوحشية، كما لم تضاجعه من قبل.

كان فرانز يشقق فوق جسدها وهو متأنّد من أنه فهم كل شيء: فسايينا كانت صامتة أثناء العشاء ولم تفصح له عن رأيها بقراره، ولكنها الآن تعطيه الجواب: ها هي تفصح له عن فرحتها وشغفها وموافقتها ورغبتها في أن تعيش معه إلى الأبد.

كان يرى نفسه فارساً يخيل في فراغ رائع، في فراغ دون زوجة ولا

ولد ولا بيت. فراغ رائع كان كئس بمكنته هرقل. فراغ رائع سيملاه بحبة.

كان يمتهن أحدهما الآخر ويختلأن باتجاه مسافات يحلمان بها. كان كلامها منتشرأً بخيانة سوف تحرّره. كان فرانز يمتهن سايننا ويخرن زوجته، وسايننا تمهن فرانز وتخرن فرانز.

9

لعشرين سنة خلت، كان يرى أمه في زوجته أشبه بكائن ضعيف تجدر حمايته.. وهذه الفكرة كانت عميقـة التجذر في كيانه بحيث لا يستطيع التخلص منها في يومين. كان الندم يتآكلـه عندما رجع إلى المنزل: ربـما أصـيبـت بنـوبة عـصـبية بعد رحـيلـه، ربما سـيـجدـها مـثـقـلة بالـاحـزانـ. ثـمـ أـدـارـ المـفـتـاحـ دـاخـلـ القـفلـ بـخـجلـ وـولـجـ إـلـىـ غـرـفـتهـ. حـرـصـ أـلـاـ يـحدـثـ ضـجـةـ ثـمـ أـرـهـفـ السـمعـ: نـعـمـ، كـانـتـ فـيـ الـبـيـتـ. بـعـدـ تـرـددـ قـلـيلـ، ذـهـبـ لـيـقـولـ لـهـ صـبـاحـ الـخـيرـ كـعـادـتـهـ.

رفعت حاجبيها وهي تصطـعنـ الـدـهـشـةـ: «أـرـىـ أـنـكـ عـدـتـ إـلـىـ هـنـاـ؟ـ».

رغـبـ فـيـ أـنـ يـجيـبـهاـ (بـدـهـشـةـ صـادـقـةـ): «وـأـينـ تـرـيـدـيـنـ أـنـ أـذـهـبـ؟ـ»، ولـكـنهـ صـمـتـ.

ثمـ أـضـافـتـ: «لـكـيـ يـكـونـ كـلـ شـيـءـ وـاضـحـاـ بـيـتـاـ، لـأـرـىـ مـانـعـاـ فـيـ أـنـ تـقـيمـ عـنـدـهاـ مـنـذـ الـآنـ».

عـنـدـمـاـ باـحـ لـهـ بـكـلـ شـيـءـ يـوـمـ رـحـيلـهـ، لـمـ تـكـنـ لـدـيـهـ خـطـةـ مـعـيـنةـ.

كـانـ عـلـىـ اـسـتـعـدـادـ لـدـىـ عـودـتـهـ لـلـتـحـدـثـ إـلـيـهـ بـمـوـدةـ كـلـيـةـ حـتـىـ يـقـلـلـ مـاـ أـمـكـنـ مـنـ الـأـذـيـةـ التـيـ قـدـ يـسـبـيـهاـ لـهـ. لـمـ يـكـنـ يـعـلـمـ أـنـهـ سـتـصـرـ بـعـنـادـ بـارـدـ عـلـىـ أـنـ يـرـحلـ.

شـعـرـ بـأـنـهـ خـائـبـ، مـعـ أـنـ هـذـاـ التـصـرـفـ كـانـ يـسـهـلـ لـهـ الـأـمـورـ. كـانـ

حريراً طوال حياته ألا يجرحها ويسبب هذا فقط، فرض على نفسه هذا الالتزام الطوعي بزواج أحادي يبلد الذهن.وها إنه يستنتاج الآن وفي نهاية العشرين سنة أن مراحته كلها كانت غير مجده، وأنه قد امتنع عن النساء بسبب سوء تفاهم!

ذهب تواً، بعد أن انتهى من المحاضرة في الجامعة في فترة بعد الظهر، إلى سايبينا. كان في نيته أن يطلب منها السماح له بقضاء الليلة عندها. قرع الجرس، ولكن أحداً لم يفتح، فذهب لانتظارها في المقهى المقابل وعيناه مسمرتان على مدخل البناء.

مرّت ساعات ولم يكن يدرى ماذا يفعل. كان قد نام طوال حياته في سرير واحد إلى جوار ماري - كلود. لو رجع الآن، أيفترض به أن يتمدد قربها كما كان يفعل من قبل؟ يمكنه بالتأكيد أن ينام على الأريكة في الغرفة المجاورة. ولكن ألن يكون هذا التصرف استعراضياً جداً؟ ألن ترى زوجته فيه إفصاحاً عن العداء؟ كان على استعداد لأن يبقى صديقاً لزوجته! ولكن ألن يذهب للنوم بجانبها فهذا أمر مستحيل. كان يسمع من الآن مستلتها المستهترنة: كيف؟ ألا تفضل البقاء في سرير سايبينا؟ فآثار عندها أن يقضى الليلة في أحد الفنادق.

رجع صباح اليوم التالي يدق على باب سايبينا طوال النهار، ودائماً دون جدوى.

في اليوم الثالث ذهب يسأل الناطورة ولكنها لم تكن تعرف شيئاً، فأرسلته إلى مالكة المحترف. اتصل بها وعلم أن سايبينا رحلت أول البارحة مسدة إيجار الأشهر الثلاثة المقبلة كما كان ينص عقد الإيجار. حاول لأيام عدة أن يضبط سايبينا في البيت، إلى أن وجد ذات يوم باب الشقة مفتوحاً. كان هناك ثلاثة رجال في ثياب زرقاء ينقلون الأثاث واللوحات ليضعوها في شاحنة كبيرة متوقفة أمام المنزل.

سألهم أين سينقلون الأثاث.

أجابوا أنه من المحظى عليهم بتاتاً أن يُخبروا أحداً عن العنوان. كان يهمُّ بأن يدنس في جيوبهم بعض الأوراق المالية ليكتشفوا له عن السر، ولكنه وجد نفسه عاجزاً. كان الحزن يشله تماماً فلا يفهم شيئاً ولا يستطيع أن يصرّح بما في باله. كان يعرف فقط أنه كان يتوقع حدوث هذه اللحظة مذ تعرّف إلى سايينا. وها قد حدث ما كان يجب أن يحدث. وفرانز لا يود الدفاع عن نفسه.

وجد شقة صغيرة في المدينة القديمة. ثم مرَّ بمنزله السابق، بعد أن تأكد من أن زوجته وماري - آن غير موجودتين هناك، وأخذ بعض الشباب والكتب الضرورية. ولكنه حرص ألا يحمل معه شيئاً يمكن أن يُسيء إلى ماري - كلود.

لمحها ذات يوم خلف زجاج صالة للشاي. كانت برفقة سيدتين. كان وجهها الذي حفرت فيه من زمان إيماءاتها المفرطة تجاعيد لا حصر لها، مفعماً بالحيوية. كانت السيدتان تستمعان إليها ولا توقفان عن الضحك.. لم يستطع فرانز أن يمتنع عن التفكير بأنه هو موضوع حديثها. فمن المؤكد أنها عرفت أن سايينا اختفت من جنيف لحظة قرار الذهاب للعيش معها. إنها حكاية مُضحكَة بالفعل! وهو لا يمكنه أن يُفاجأ والحالة هذه بأن يكون مُضحكَة صديقات زوجته.

عاد إلى مسكنه الجديد حيث يستطيع أن يسمع جرس كاتدرائية مار بطرس. جرى تسليمه في هذا اليوم بالذات طاولة من أحد المخازن. فensi عندها ماري - كلود وصديقاتها، وensi لوهلة سايينا أيضاً. كان مسروراً من أنه اختار الطاولة بنفسه. منذ عشرين سنة وهو يعيش وسط أثاث لم يختاره بنفسه. فماري - كلود كانت تهتم بهذه الأمور وحدها. ها إنها يتخلص من كونه صبياً صغيراً، للمرة الأولى، ليصير رجلاً ناضجاً. وفي اليوم التالي سيأتي النجار فيوصيه على

المكتبة التي كان أمضى عدة أسابيع في تصميم شكلها وحجمها ومكانها.

يا للعجب، أدرك فجأة أنه لم يكن تعسًا. كان حضور سابينا الجسدي أقل أهمية مما تصور. فالأهم منه هو الأثر الذهبي، الأثر السحري الذي تركته في حياته والذي لا يستطيع أحد بعد اليوم حرمانه منه. كما وأنها قد تنسى لها، قبل أن تخفي من أفقه، أن تدس في يده مكنسة هرقل فيكتش بها من حياته كل ما لم يكن يحبه. إن هذه السعادة المباغتة وهذا الانشراح وهذه الغبطة التي تمده بها حريرته وحياته الجديدة، هذا هو الحاضر الذي تركته له سابينا.

على أية حال، ألم يكن قد فضل دائمًا الواقع على الواقعي. فكما أنه كان يشعر بالارتياح في المواقف، (والتي هي، كما قلت، ليست سوى مشهد أو حلم) أكثر مما يحس بذلك من وراء المنبر حيث يلقي المحاضرات. كذلك، أحسن أنه أكثر سعادة مع سابينا المتحوله إلى إلهة غير مرئية، مما كان مع سابينا عندما كانا يجولان العالم معاً وهو خائف على حبه مع كل خطوة. ها قد منحته أعطيه الحرية المباغتة للرجل الذي يعيش وحده، وزينته بهالة الإغراء. صارت النساء يجدنه جذاباً وها إن إحدى طلباته تقع في غرامه.

وهكذا بعثة، وفي فترة وجيزة جداً، تبدل ديكور حياته كله. كان يسكن في شقة بورجوازية كبيرة مع خادمة وابنة وزوجة. أما الآن فهو يجد نفسه في شقة صغيرة مفروشة في المدينة القديمة، وصديقه الشابة تأتي لقضاء الليل عنده كل مساء تقريباً! فهما ليسا بحاجة إلى الذهاب إلى فنادق العالم كله لكي يصافحها، بل بإمكانه أن يفعل ذلك في شقته الخاصة وعلى سريره الخاص ويحضور كتبه ومنفضة سجائره الموضوعة على طاولة السرير.

لم تكن جميلة ولا قبيحة ولكنها أكثر فتوة منه بكثير. كانت معجبة

بفرانز كلاعجاب فرانز سابينا من قبل. ولم يكن الأمر غير ممتع. وإذا كان بإمكانه ربما أن يعتبر استبداله سابينا بطالبة ترتدي نظارات بمثابة انحطاط صغير، فإن طبيته مع ذلك، كانت تحرص على أن يستقبلها بسرور ويشعر حيالها بمحبة أبوية لم يستطع إشاعتها من قبل. فماري - كلود لم تكن تتصرف على أنها ابنته بل على أنها ماري - كلود ثانية. ذات يوم ذهب لرؤيه زوجته وقال لها إنه راغب في الزواج من جديد.

هزت ماري - كلود رأسها بإشارة النفي.

«ولكن إذا تطلقا، لن يتغير شيء ولن تخسر شيئاً. فسأترك لك كل شيء!». قالت:

- المال لا أهمية له بالنسبة لي.

- ما الذي يهمك إذا؟

- الحب.

قال فرانز متعجبًا: الحب؟

أطلقت ماري - كلود ابتسامة: «الحب صراع وسائل وقتاً طويلاً. حتى النهاية».

- «الحب صراع؟ ليست لي أدنى رغبة في القتال»، قال فرانز وخرج.

10

أمضت سابينا أربع سنوات في جنيف، ثم سكنت بعدها في باريس. ولكنها لم تتوصل قط لأن تشفى من كآبتها. ولو أن أحداً سألها عما أصابها لما استطاعت أن تعبر عن ذلك بكلمات.

يمكن اختصار مأساة حياة «باستعارة» الثقل. نقول مثلاً إن حملأ قد سقط فوق أكتافنا. فنتحمل هذا الحمل. نحتمله أو لا نحتمله ونتصارع معه، وفي النهاية إما أن نخسر وإما أن نربح. ولكن ما الذي حدث مع سايننا بالضبط؟ لا شيء. افترقت عن رجل لأنها كانت راغبة في الافتراق عنه. هل لاحقها بعد ذلك؟ هل حاول الانتقام؟ لا. فمأساتها ليست مأساة الثقل إنما مأساة الخفة. والحمل الذي سقط فوقها لم يكن حملأ بل كان خفة الكائن التي لا تُحتمل.

حتى الآن، كانت لحظات الخيانة تملأها نشوة وفرحاً خصوصاً لدى التفكير في أن طريقاً جديدة ستتمتد أمامها، وأن في آخر هذا الطريق مغامرة خيانة جديدة. ولكن ما الذي سيحدث لو أن هذا السفر انتهى؟ يمكن لنا أن نخون أهلاً وزوجاً وحباً ووطناً، لكن ما الذي يتبقى حين لا يعود هناك أهل لنخونهم أو زوج أو حب أو وطن؟ كانت سايننا تشعر بالفراغ يحيط بها. أيكون هذا الفراغ بالذات هو الهدف من خياناتها مجتمعة؟

من البديهي أنها لا تعي هذه الحقيقة، وهذا شيء مفهوم: فالهدف الذي نلاحقه محجوب عنا دائماً.. حين ترغب فتاة شابة في الزواج فهي ترغب في شيء تجهله تماماً. والشاب الذي يركض وراء المجد لا يملك أدنى فكرة عن المجد. لذلك، فإن الشيء الذي يعطي معنى لتصرفاتنا شيء نجهله تماماً. سايننا أيضاً تجهل ما هو الهدف من رغبتها في الخيانة. أيكون الهدف منها الوصول إلى الخفة غير المحتملة للكائن؟ منذ رحيلها عن جنيف وهي تقترب أكثر فأكثر من هذا الهدف. ثلاث سنوات مضت على إقامتها في باريس عندما تلقت رسالة من بوهيميا. رسالة من ابن توماس. كان قد سمعهم يتحدثون عنها فاستدلّ على عنوانها وقرر أن يكتب لها بصفتها «الصديقة المقرية جداً من أبيه». وأخبرها عن موت تيريزا وتوماس.. كان يقول في رسالته إنهما عاشا

سنواتهما الأخيرة في قرية حيث كان يعمل توماس سائق شاحنة. كانا يذهبان في أغلب الأحيان إلى المدينة المجاورة ويقضيان الليلة هناك في فندق صغير. كان في الطرقات تلال ومنعطفات كثيرة فسقطت الشاحنة في الوادي وعُثر على جثتيهما مهشتين تماماً. واكتشفت الشرطة أن الفرامل كانت في حالة سيئة جداً.

هزّها هذا الخبر حتى أنها لم تتمالك نفسها، فهو الخيط الأخير الذي يربطها بالماضي، وقد انقطع.

تبعاً لعادتها القديمة، حاولت أن تخف عن نفسها بالقيام في جولة إلى إحدى المقابر. كانت المقبرة الأقرب مقبرة مونبارناس. والمقبرة تتتألف من بيوت حجرية هزيلة ومن مصلّيات منمنمة قائمة وسط القبور. لم تكن سابينا تفهم لماذا يرغب الموتى في أن يُقام فوقهم ما يُشبه القصور. هذه المقبرة هي الغرور ممثلاً في حجر. فبدل أن يكون سكان المقابر أكثر تعقلًا بعد موتهم، فإنهم أكثر حماقة مما كانوا وهم على قيد الحياة. كانوا يعرضون أهميتهم من خلال الأنصاب. لم يكن أولئك الراغدون هنا آباء أو إخوة أو بناء أو جدات بل وجهاء وموظفين في الحكومة وأناساً ذوي ألقاب ورتب شرف. حتى إن أي موظف في البريد كان يعرض أمام الملا رتبته ودرجته ووضعه الاجتماعي - أي قيمته، بتفاخر.

لاحظت وهي تمشي في أحد ممرات المقبرة أنه كان يتم دفن أحدهم على بعد قليل منها. كان رئيس التشريفات يحمل أزهاراً ملء ذراعيه ويزعها على الأقارب والأصحاب: زهرة لكل واحد منهم. مدد زهرة لسابينا، فانضمت إلى موكب الجنازة. كان يجب الطواف حول أنصاب عدة للوصول إلى الحفرة التي نزعـت عنها شاهدة القبر. انحنت فوقها. كانت الحفرة عميقة جداً. أفلتت الزهرة. رسمت الزهرة دوائر صغيرة ثم سقطت فوق النعش. لا توجد قبور بهذا العمق في بوهيميا.

فالقبور في باريس عميقه بقدر ما هي البيوت عاليه. استرعى نظرها الحجر الذي ينتظر على حدة إلى جانب الحفرة فملأها هذا الحجر رعباً، فعادت مسرعة إلى البيت.

فكرت طوال النهار في هذا الحجر. لماذا يرعبها إلى هذا الحد؟ فكترت في هذا الجواب: «إذا كانوا يقفلون القبر بحجر، فهذا لن لا يمكن الميت من الخروج أبداً».

ولكن في جميع الأحوال، لن يتمكن الميت من الخروج من قبره! أكان راقداً تحت التراب الصلصالي أم تحت حجر فالأمران سيان! لا، الأمران ليسا سيان: إذا كنا ننفل القبر بحجر فهذا لأننا لا نرغب في رجوع الميت. الحجر الثقيل يقول له: «إيق حيـث أنت!».

تذكرت سايـنا قـبر أبيـها.. فوق النـعش تـراب صـلـصـالـي وـفـوق هـذـا التـراب تـنبـت أـزـهـارـ، كـما وـتمـدـ شـجـرـةـ قـيـقـ جـذـورـهاـ إـلـى النـعشـ. يـمـكـنـ إذـأـ أنـ تـتصـورـ أـنـ المـيـتـ يـخـرـجـ مـنـ قـبـرـهـ عـبـرـ هـذـهـ الـجـذـورـ وـهـذـهـ الـأـزـهـارـ. فـلوـ كـانـ أـبـوـهـاـ مـغـطـىـ بـحـجـرـ لـمـ كـانـتـ تـمـكـنـتـ مـنـ التـحدـثـ إـلـيـهـ بـعـدـ مـوـتـهـ. وـلـمـ أـمـكـنـهـاـ قـطـ أـنـ تـسـمـعـ صـوـتـهـ وـهـوـ يـغـفـرـ لـهـاـ، عـبـرـ أـورـاقـ الـأـشـجـارـ.

لكنـ، مـاـذـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـشـبـهـ الـقـبـرـ الـذـيـ يـرـقـدـ فـيـ توـمـاسـ وـتـيرـيزـاـ؟ـ مـرـةـ أـخـرىـ عـادـتـ التـفـكـيرـ فـيـهـماـ. كـانـاـ يـذـهـبـانـ أـحـيـاناـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ الـمـجاـوـرـةـ وـيـقـضـيـانـ اللـيلـ فـيـ فـنـدقـ. هـزـهاـ هـذـاـ المـقـطـعـ مـنـ الرـسـالـةـ لـأـنـهـ كـانـ شـاهـدـاـ عـلـىـ أـنـهـماـ كـانـاـ سـعـيـدـينـ. كـانـتـ تـرـىـ ثـانـيـةـ توـمـاسـ وـكـانـهـ طـالـعـ مـنـ إـحـدىـ لـوـحـاتـهـاـ: فـيـ الـمـقـدـمـةـ دـوـنـ جـوـانـ مـثـلـ دـيـكـورـ خـادـعـ مـرـسـومـ بـيـدـ رـسـامـ سـاذـجـ، وـمـنـ أـحـدـ شـقـوقـ هـذـاـ دـيـكـورـ يـلـوحـ لـنـاـ تـرـيـسـتـانـ. لـكـنـ توـمـاسـ مـاتـ بـصـفـتـهـ تـرـيـسـتـانـ وـلـيـسـ بـصـفـتـهـ دـوـنـ جـوـانـ. وـالـدـاـ سـايـناـ تـوـفـيـاـ فـيـ الـأـسـبـوعـ نـفـسـهـ، أـمـاـ توـمـاسـ وـتـيرـيزـاـ فـيـ الـلـحـظـةـ ذـاتـهـاـ. شـعـرـتـ فـجـأـةـ بـرـغـبةـ فـيـ أـنـ تـكـونـ مـعـ فـرـانـزـ.

عندما حدثه عن نزهاتها إلى المقابر، أصيب بالغثيان وشبّه المقابر بمذلة من العظام والحجارة. في ذلك اليوم، امتدت بينهما هاوية من انعدام التفاهم.. ولكنها الآن فقط في مقبرة مونبارناس فهمت ما كان يعنيه، وشعرت بالأسف لأنها لم تكن صبوراً. لو بقيا معاً فترة أطول، لربما كانا شرعاً شيئاً فشيئاً في فهم الكلمات التي ينطقان بها، ولربما أخذت مفرداتهما تقترب بحياة وبطء مثل عاشقين خجولين جداً. ولربما بدأت موسيقى كل منهما تتصدر في موسيقى الآخر. ولكن الأوان قد فات.

أجل، الأوان قد فات. وساينا تعرف أنها لن تبقى في باريس بل ستذهب أبعد، أبعد بكثير. فهي لو ماتت هنا، سيقفلون القبر عليها بحجر. وهذه فكرة لا تحتمل بالنسبة لامرأة لا تعرف الراحة ولا تريد أن يوقفها أحد عن مسيرتها.

11

كان جميع أصدقاء فرانز على علم بما جرى له مع ماري - كلود، وعلى علم أيضاً بما يجري له مع طالبته صاحبة النظارة الكبيرة. لكن وحدها قصة ساينا بقيت خافية على الجميع. كان فرانز مخططاً حين اعتقاد أن ماري - كلود تتحدث عنه أمام صديقاتها. والسبب أن ساينا جميلة وماري - كلود لا ترغبان أحد بين وجهيهما.

لم يسبق له أن طلب منها لوحة أو رسمأً أو حتى صورة شخصية لخوفه من أن يُفْتَضَح أمره. وبذلك، اختفت من حياته دون أن ترك أثراً. أمضى معها أجمل سنة في حياته ولكن لم يتبق منها أي دليل محسوس.

كان يشعر برغبة متزايدة في أن يبقى مخلصاً لها.

حين يكونان وحدهما في الغرفة، ترفع صديقته الشابة أحياناً رأسها عن كتابها وتنظر إليه نظرة مستجوبة: «فيَمْ تفكِّر؟» فرانز جالس في الكتبة وعيناه مسمَّرتان في السقف. ومهما يكن جوابه، فهو بالتأكيد يفكِّر في سابينا.

حين ينشر دراسة في مجلة علمية، تكون صديقته أول من يقرأها وترغب في مناقشتها بخصوصها. أما هو فيفكِّر في ما ستقوله سابينا عن هذا البحث. فكل ما يفعله يفعله من أجل سابينا وبالطريقة التي ترضي سابينا.

إنها لخيانة بريئة جدًا ومعدنة على مقاس فرانز الذي لا يقدر إطلاقاً على الإساءة إلى الطالبة صاحبة النظارة.

إذا كان يُنْمِي عبادة سابينا فهذا دين أكثر منه حب. على أية حال، لقد جاء في لاهوت هذا الدين أن تُرسِّل سابينا له عشيقته الشابة: فيُنِّ حبه الأرضي وحبه ما فوق الأرضي يسود وئامٌ تام. وبالمقارنة مع حبه ما فوق الأرضي الذي يتضمن بالضرورة (بسبب أنه ما فوق أرضي) جانباً كبيراً من الغموض والاستغراق (فلتذكرة بهذا الخصوص معجم الكلمات غير المفهومة)، وت تلك اللائحة الطويلة من تبادل وجهات النظر) فإنَّ حبه الأرضي يستند إلى تفاصيل حقيقيٍ.

الطالبة أكثر فتوة بكثير من سابينا، ومقطوعة موسيقى حياتها لا تزال في أولها، وهي تُدخل فيها كل اللوازم الموسيقية التي استعارتها من فرانز، ويعرفان جميل. فكما أنَّ مسيرة فرانز الكبرى نقطة جوهرية في إيمانها، كذلك الموسيقى بالنسبة له نسوة ديونيسية. وهما يذهبان مراراً إلى الرقص، يعيشان في الحقيقة ولا شيء مما يفعلانه خافٍ على أحد. وهما يسعian لاكتساب وذ الأصدقاء والزملاء والطلاب والمجهولين في مجالسائهم ويشربان ويشتران معهم بمودة كلبية. كما

يذهبان معاً مرات عديدة في نزهات إلى جبال الألب. ينحني فرانز إلى الأمام فتففز الفتاة فوق ظهره ويجري بها عبر الحقول ملقياً بصوت عالٍ قصيدة ألمانية طويلة كانت أمه قد علمته إليها عندما كان صغيراً. تنفجر عندئذ الحببية بالضحك وتتعلق برقبته مبدية إعجابها بعضااته وكفيفه ورتبته.

لكن الشيء الوحيد الذي لا يفهمه هو هذا التعاطف الخاص، الذي يغذّيه فرانز في داخله، مع جميع البلدان الرازحة تحت وطأة روسيا. في الذكرى السنوية للاجتياح الروسي، نظمت مجموعة تشيكية احتفالاً بالمناسبة. كان هناك قليل من الناس في الصالة. وكان الخطيب رمادي الشعر وقد جعده عند المزئن. كان يقرأ خطاباً طويلاً وينجح في أن يجعل الخونية المتهمسين الآتين إلى سماعه يضجرون. يتكلم الفرنسية دون خطأ ولكن بلكتة شنيعة. وهو من وقت لآخر يشهر سبابته ليؤكد على فكرته، كما لو أنه يريد تهديد الناس الجالسين في الصالة.

الطالبة صاحبة النظارة جالسة إلى جانب فرانز وهي تكتم ثاؤياً. فيما فرانز يتبعس بطريقة بلهاء. عيناه شاخصتان إلى الرجل ذي الشعر الرمادي والذي يجده لطيفاً بسبابته العجيبة. يقول في نفسه إنّ هذا الرجل وسيط سري، ملاك ينقل الرسائل بينه وبين إلهته. فيغمض عينيه ويحلم. ويغمض عينيه كما أغمضهما في السابق على جسد ساينا في خمسة عشر فندقاً في أوروبا وفي فندق في أميركا.

القسم الرابع

الروح والجسد

1

رجعت تيريزا إلى البيت نحو الساعة الواحدة والنصف صباحاً، فتوجهت إلى غرفة الحمام، ثم ارتدت البيجاما وارتمت على السرير إلى جانب توماس. كان نائماً، انحنت فوق وجهه، وعندما وضعت شفتيها اشتمت من شعره رائحة غريبة. فدَّست منخريها هناك طويلاً، تستنشقه مثل كلب. وفهمت أخيراً: إنها رائحة أنثوية، رائحة فرج امرأة.

عند الساعة السادسة، رُنَّ المنبه. كان هذا وقت كارنيينا. فهي تصحو دائماً قبلهما بوقت طويل من غير أن تجرؤ على إزعاجهما. كانت تنتظر بصبر رنين المنبه الذي يعطيها الحق في أن تقفز على السرير لتركل جسديهما وتداعبهما بخطمها.. حاولا في البداية أن يمنعاهما من ذلك فطرداها عن السرير، لكن الكلبة كانت أكثر عناداً من صاحبيها وفرضت في النهاية حقوقها. على أية حال، لاحظت تيريزا مؤخراً أن دعوة كارنيينا لافتتاح النهار، أمر ممتع. أما لحظة الاستيقاظ بالنسبة لكارنيينا فسعادة خالصة: فهي تتعجب بسذاجة بلهاه من أنها لا تزال في هذا العالم فُتُّسر لذلك صراحةً. أما تيريزا فستقيظ غصباً عنها راغبة في إطالة الليل، وفي ألاً تفتح عينيها.

الآن، كانت كارنينا تنتظر في المدخل وعينها تنظران إلى المشجب حيث كان طوقها ومقودها معلقين. وضعت تيريزا الطوق حول رقبتها، وذهبتا لشراء الحاجيات. اشتربت حليباً وخبزاً وزبدة وكالعادة فطيرة لكارنينا. في طريق العودة، كانت كارنينا تتفاوز حولها والفتيرة في فمها. لا شك في أنها كانت تنظر حولها بفخر وسرور لأنها تلفت انتباه الآخرين فيشيرون إليها بالبنان.

في البيت، بقيت متربقة عند عتبة الغرفة والفتيرة في فمها، انتظرت أن يلاحظ توماس وجودها فيقرفص بادئاً بالنباح ومتظاهراً بأنه سيأخذ الفتيرة منها. كان هذا المشهد يتكرر يومياً: كانا يلاحقان بعضهما عبر الشقة لمدة خمس دقائق، إلى أن تخبيء كارنينا تحت الطاولة وتلتهم بلمح البصر فطيرتها.

ولكنها عيناً انتظرت هذه المرة الاحتفال الصباحي. كان هناك جهاز ترانزستور موضوعاً على الطاولة، وتوماس يستمع.

2

كان الراديو يبث برنامجاً خاصاً بالمهاجرين التشيكين. وهو يجمع أحاديث خاصة مسموعة بطريقة سرية ومسجلة من قبل جاسوس اندسٌ بين المهاجرين ليرجع إلى بلاده ويزعزع بها هناك. كان البرنامج يتضمن ثرثرات تافهة مطعمة من وقت لآخر بكلمات نابية عن النظام المحتل. ويتضمن أيضاً جملأً يتناوب فيها المهاجرون وصف بعضهم بعضاً بأنهم أغبياء ومخادعون. كان البرنامج يشدد على هذه المقاطع بالذات. لأنه كان يجب الإثبات أن أولئك الناس يتكلمون بالسوء ليس عن الاتحاد السوفيتي فحسب (فهذا الأمر لا يستنكره أحد من سكان بوهيميا) بل يتداولون أيضاً النماhem دون تردد ويشبعون بعضهم بعضاً شتماً. إنه لأمر غريب أننا نسمع الكلمات البذيئة من الصباح حتى المساء، ولكن يكفي

أن نسمع عبر الراديو شخصية معروفة ومحترمة توقع جملها بكلمات مثل «إنهم يجعلونني أتفوّط»، فتشعر بالخيبة رغمًا عنا.

«ها إنهم يستهلون البث ببروكاذا!»، قال توماس دون أن يتوقف عن الإصغاء.

كان يان بروخازكا روائياً تشيكياً في الأربعين من عمره ويفيض بحيوية ثور. بدأ بانتقاد الوضع في بلاده جهاراً قبل عام 1968 بوقت طويل. كان أحد رجال ربيع براغ الأكثر شعبية. ربيع براغ، ذلك التحرير المدوّن من الشيوعية الذي انتهى بالاجتياح الروسي. بعد الاجتياح بقليل، أخذت الصحف تزرع كلها صيحة الهجوم على الطريدة، ولكن كلما كان بروخازكا محاصراً، كان حب الناس له يزداد. كان الراديو (كما في سنة 1970) يستهل إذاً على شكل حلقات بث أحاديث خاصة لبروكاذا، كان قد أجراهما قبل ستين (أي في ربيع 1968) مع أستاذ جامعي. لم يكن أي من الرجلين يشك في أن جهازاً للتنصت قد أُخفي في شقة الأستاذ، وأنه يتم التجسس منذ زمن بعيد على أدنى حركة يقومون بها. كان بروخازكا يسلّي أصدقائه دائمًا بمبالغاته وشتائمه. وها قد صار في الإمكان سماع هذه الشتائم في سلسلة حلقات عبر الإذاعة. عُيّنت الشرطة السرية، التي نسقت مقاطع هذا البرنامج، بالتشديد على المقطع الذي يسخر فيه الروائي من أصدقائه، من دون بشك مثلاً. وبالرغم من أن الناس لا يفوتون فرصة إلا يشتمون فيها أصدقاءهم، فإنهم مع ذلك كانوا ساخطين على بروخازكا الذي يبعدونه أكثر مما كانوا ساخطين على الشرطة السرية التي يكرهونها!

أطفأ توماس الراديو وقال: «هناك شرطة سرية في جميع أنحاء العالم. ولكنها فقط في بلادنا تبث تسجيلاتها عبر الإذاعة! شيء عجيب!».

قالت تيريزا: «ليس إلى الحد الذي تصور! عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري، كنت أكتب يومياتي. وكنت أخاف من أن يقرأها أحد، فخبأتها في العلية، إلى أن عثرت عليها أمي في النهاية. وذات يوم، حين كنا نحتسي الشوربة أثناء الغداء، أخرجتها من جيبها وقالت: «اسمعوني جيداً كلّكم!» ثم أخذت تقرأ بصوت عالٍ، وعند كل جملة تتلوى من فرط الضحك. وقهقه معها الجميع ناسين متابعة الأكل».

3

كان يحاول دائمًا إقناعها في أن تتركه يتناول إفطاره بمفرده، وأن تبقى نائمة، ولكنها كانت تعارض. فتوماس كان يعمل من الساعة السابعة حتى الرابعة، وهي من الساعة الرابعة حتى منتصف الليل. وإذا لم يتداولا الإفطار معاً، فمعنى هذا أنهما لن يستطيعا التحدث حتى يوم الأحد. كانت تنهض إذاً حين ينهمك، ثم حين يذهب تعود لتندرس في السرير وتغفو.

ولكنها كانت خائفة، في ذلك النهار بالذات، من أن تعود للنوم ثانية، فهي تريد الذهاب عند الساعة العاشرة إلى حمامات السنونا في جزيرة صوفيا. كان هناك الكثير من الهوا والقليل من الأمكنة، ولم يكن في المستطاع الحصول على مكان إلاً بفضل توصية. لحسن الحظ، كانت أمينة الصندوق زوجة أستاذ مطرود من الجامعة، والأستاذ صديق لمريض قديم عند توماس. تكلم توماس مع المريض ثم تكلم المريض مع الأستاذ، والأستاذ مع زوجته فحصلت تيريزا أخيراً على مكان محجوز لها مرة في الأسبوع.

ذهبت سيراً على الأقدام تحاشياً للقطارات المزدحمة دوماً حيث يتدافع الناس ملتصقين بعضهم ببعض بعائية، ويدوس بعضهم أقدام

بعض ويتنازعون أزرار المعاطف ويتبادلون الشتائم.

كانت السماء تمطر رذاذاً. فأخذ المارة يسرعون الخطى رافعين فوق رؤوسهم مظلاتهم المفتوحة. وفجأة بدأوا يتدافعون على الأرصفة. كانت قبب المظلات تتصادم. كان الرجال مؤذين لدى مرورهم قرب تيريزا فيرفعون مظلاتهم عالياً ليفسحوا لها المجال. أما النساء فلم يكن ينتهي قيد أنملة. بل كنّ ينظرن أمامهن بوجوه قاسية، وينتظرن أن تعرف كل واحدة منهن للأخرى بأنها الأضعف فترضخ. كان لقاء المظلات يتحوّل إلى امتحان للقوى. في أول الأمر، كانت تيريزا تحيد عن الطريق، ولكن حين فهمت أن أدبها لم يكن يقابل بالمثل، تسلّحت بمظلتها مثل الآخريات. مرات عديدة اصطدمت مظلتها بعنف بمظلة قادمة في اتجاهها ولكن آياً من النساء لم تكن تعذر. كان يجري كل ذلك وسط الصمت. لمرتين أو ثلث، سمعت فقط: «عاهرة!» أو «فتنة!».

كان هناك بين النساء المسلحات بالمظلات صبايا وناضجات، ولكن الصبايا كنّ الأكثر ضراوة في القتال. كانت تيريزا تذكر أيام الاجتياح، حين كانت الفتيات يرتدين تنانير قصيرة ويرحن ويجهن رافعات علم بلادهن على عصيّ. كان تصرّفهن هذا أشبه بمحاكمة جنسية للجنود الروس المجهزين لعدة سنوات من العفة. لا بدّ أنهم كانوا يخالون أنفسهم في براغ موجودين على كوكب اخترעה كاتب خيال علمي، على كوكب مسكون بنساء أنيقات فوق العادة ويعبرن عن احترارهن عارضات سيقاناً طويلة رشيقه لم تشهد روسيا بأكملها لها مثيلاً منذ ما يربو على خمسة أو ستة قرون.

خلال تلك الأيام، التقطت صوراً لا تُحصى لهؤلاء النساء الشابات، على خلفية من الدبابات. كم كانت معجبة بهن آنذاك! ولكنها اليوم، ترى هؤلاء النساء بالذات يتقدمن للقائهما مشاكسات

وشريرات. كن يرفعن مظلة بدل العلم ويحملنها بالتفاخر نفسه. كن على استعداد لأن يجاههن جيشاً أجنبياً والمظلة التي ترفض الإفصاح للمرور، بالضراوة ذاتها.

4

بلغت ساحة «المدينة القديمة» حيث تنتصب كاتدرائية «ثين» الصارمة والبيوت الباروكية المنتظمة في مربعات غير متساوية. كان فندق المدينة، الذي يعود إلى القرن الرابع عشر والذي كان يحتل في الماضي قسماً كبيراً من الساحة، متهدماً منذ سبعة وعشرين عاماً. إن فرصوفيا (وارسو) ودريسد وكولونيا وبودابست وبرلين، كل هذه المدن تغيرت معالمها بشكل مريع أثناء الحرب الأخيرة، ولكن سكانها أعادوا بناءها وترميم الأحياء التاريخية بشغف وعناء فائقة. كانت هذه المدن تشير في سكان براغ عُقد نقص. فالمبني التاريخي الوحيد الذي هدمته الحرب في مدینتهم هو فندق المدينة القديم هذا. لذلك قرروا الاحتفاظ إلى الأبد بأنقاضه خائفين من أن يلومهم أي بولوني أو ألماني على أنهم لم يعانون بما فيه الكفاية. أمام هذه الحرب الشهيرة التي يفترض بها أن تبقى إلى الأبد شاهد اتهام ضد الحرب، كانت ترتفع منصة مصنوعة من العوارض الحديدية ومبنيّة من أجل التظاهرة التي اقتاد إليها الحزب الشيوعي في الأمس شعب براغ أو سيقتاده غداً.

كانت تيريزا تنظر إلى فندق المدينة المتهدّم فذكّرها هذا المشهد فجأة بأمها: رغبتها الشديدة في أن تعرّض أنقاضها على الملاّ وفي أن تتباهي بقباحتها وتلوّح ببؤسها وتكتشف عن جدعة يدها المبتورة وتجرّ الجميع على النظر إليها.. كان كل شيء في هذه الأيام الأخيرة يذكّرها بأمها، فكان العالم الأمومي الذي أفلّت منه قبل عشرات السنين يلحق بها ويطوّقها من جميع الجهات. من أجل هذا تحذّث أثناء الإفطار عن

أمها التي قرأت يومياتها للعائلة فانفجرت الأخيرة بالضحك رغمًا عنها. كذلك، حين يُذاع حديث بين الأصحاب أمام كأس نبيذ على الملاً عبر الراديو، فهذا لا يعني إلا شيئاً واحداً: العالم يتتحول إلى معسكر اعتقال.

كانت تيريزا تستعمل هذه العبارة منذ طفولتها لتعبر عما كانت تعني لها الحياة بين العائلة. فمعسكر الاعتقال هو عالم حيث نعيش باستمرار الواحد فوق الآخر، ليلاً ونهاراً. أما أعمال القساوة والعنف فترتدي طابعاً ثانوياً (وغير ضروري البَّيْتَة). ذلك أن معسكر الاعتقال هو التصفية النهائية للحياة الخاصة. فبروخارزكا، الذي لم يكن في مأمن حتى وهو في بيته يتحدث إلى صديقه أمام كأس من النبيذ، كان يعيش (من غير أن يرتات للأمر وهنا يكمن خطوه الفادح!) في معسكر اعتقال. وتيريزا أيضاً كانت تعيش في معسكر اعتقال عندما كانت تقيل عند أمها. وهي منذ ذلك الحين تعرف أن معسكر الاعتقال ليس شيئاً استثنائياً ولا يفترض به أن يفاجئنا، إنما هو معطى بدائي وأساسي، إنه شيء نأتي معه إلى العالم دون أن نتمكن من التخلص منه، إلا إذا استعنا بالحد الأقصى من قوانا كلها.

5

كانت النساء جالسات على ثلاثة مقاعد متدرجة وهن ملتصقات بعضن البعض إلى حد التلامس. ثمة امرأة في الثلاثين من عمرها، جميلة الوجه جداً، كانت تتصرف عرقاً إلى جانب تيريزا. كان ثدياتها الضخمان الهائلان يتذليلان من أسفل كتفيها وبهتزان لدى أدنى حركة تقوم بها. عندما نهضت، لاحظت تيريزا أن رديفها أيضاً كانوا شبيهين بخرجين ضخمين ولا علاقة لهما بوجهها.

ربما هذه المرأة أيضاً تقضي ساعات طوالاً أمام المرأة وهي تتأمل

جسدها محاولة أن ترى روحها تشف من خلاله، كما تحاول تيريزا منذ الطفولة.. من المؤكد أنها هي أيضاً اعتقدت في الماضي، لحماقتها، أن جسدها يمكن أن يكون شعار النسب لروحها. ولكن كم ستكون مرعبة تلك الروح التي تشبه مشجباً بأربعة جيوب؟

نهضت تيريزا لتعتسل تحت الدوش. ثم خرجمت لتتنشق الهواء. كانت لا تزال تمطر رذاذاً.. كانت على طوف تجسير مرمي على بعد بضعة أمتار مربعة من نهر الفلتافا، خلف ألواح خشبية عالية تحجب السيدات عن أبصار المدينة. عندما حنت رأسها، رأت فوق صفحة الماء، وجه المرأة التي كانت تفكير فيها منذ قليل.

كانت المرأة تبتسم لها. كان أنفها دقيقاً وعيناها كستانائيتين واسعتين ونظراتها طفولية.

كانت ترتقي السلم فظهر تحت وجهها العذب خرجان كانا يرتجان ويرشان حولهما قطرات ماء باردة.

6

ذهبت لارتداء ثيابها. كانت أمام مرآة كبيرة.

لا، جسدها ليس مخيفاً. فهي لا تملك خرجين في أسفل كتفيها، بل ثديين منمنمين. كانت أمها تسخر منها لأنّ ثديها لم يكونا كبيرين بما فيه الكفاية، لم يكونا كما يجب، مما سبب لها عقداً لم تخلص منها إلاّ بفضل توماس. الآن، يمكنها القبول بحجمهما ولكنها تأخذ عليهما لعوتهمَا^(*) الكبيرة والداكتة جداً حول الحلمة. فلو أتيح لها أن تخط نفسها رسم جسدها كاملاً، وكانت جعلت حلمتيها مرهفتين وغير لافتتين للنظر ولا تقادان تبرزان من قبة نهديها. ولو نهديها بالكاد سيكون

(*) السواد حول حلمة الثدي.

متمايزاً عن لون بشرتها . . إذ يخَيِّلُ إليها أنَّ هذه الدرية الحمراء الكبيرة الداكنة هي من صنع رسام ريفي يرسم صوراً فاحشة لمحرومين . كانت تتفحص جسدها متسائلة عما سيحدث فيما لو طال أنفها ميلمترأً في كل يوم؟ كم سيستغرق الوقت حتى يصبح وجهها غير معروف؟

وماذا لو شرع كل جزء من جسدها في الكبر أو في الصِّغر إلى درجة يفقده معها كل شبه بتيريزا ، هل ستظل هي نفسها؟ هل ستبقى تيريزا؟

بالتأكيد . فحتى لو افترضنا أنَّ تيريزا لم تعد تشبه تيريزا بشيء ، فإنَّ روحها في الداخل ستبقى مع ذلك هي هي دائماً وليس بإمكانها إلا أن تتأمل بربع ما يحدث للجسد .

لكن عندئذ ، أيَّ صلة تعود تربط تيريزا بجسدها؟ هل سيكون لجسدها حق ما في اسم تيريزا؟ وإذا لم يكن له هذا الحق ، فإلى من يُنسب إذاً هذا الاسم؟ إلى مجرد شيء غير جسدي وغير مادي .

(هذه الأسئلة ذاتها التي تجول في رأس تيريزا منذ الصغر . ذلك لأنَّ الأسئلة الهامة حقاً هي تلك التي يصوغها طفل . وحدها الأسئلة الساذجة هي الأسئلة الهامة فعلاً . تلك الأسئلة التي تبقى دون جواب . إنَّ سؤالاً دون جواب حاجز لا طرقات بعده . وبطريقة أخرى : الأسئلة التي تبقى دون جواب هي التي تشير إلى حدود الإمكانيات الإنسانية ، وهي التي ترسم حدود وجودنا .)

تيريزا جامدة ومفتونة أمام المرأة ، تنظر إلى جسدها وكأنه غريب عنها ومُقرَّر مع ذلك لها هي دون غيرها . وهو يُنفرها إذ لا يملك القدرة على أن يصير الجسد الوحيد في حياة توماس . لقد خيَّبها هذا الجسد وخانها . ليلةً بكمالها ، أُكْرَهت على أن تشتم عبر شعر توماس رائحة حميمة لأمرأة أخرى .

شعرت فجأة برغبة في أن تصرف هذا الجسد كما يصرف المرء خادمه، في ألا تكون مع توماس إلا بالروح، وأن تطرد الجسد بعيداً كي يتصرف كما تتصرف سائر الأجساد الذكورية! بما أن جسدها غير قادر على أن يصير الجسد الوحيد لتوماس، وبما أنه خسر وبالتالي المعركة الكبرى في حياة تيريزا، إذاً فليذهب بعيداً هذا الجسد! .

7

رجعت إلى المنزل ثم تناولت غدائها واقفة في المطبخ دون شهرة. نحو الساعة الثالثة والنصف، وضع الرَّسن لكارينينا وتوجهت نحو الفندق الموجود في حي من الضواحي حيث تعمل. عندما سرحوها من عملها في المجلة، وجدت لها عملاً آخر، ساقية في حانة، حدث ذلك بعد رجوعها من زوريغ بأشهر قليلة. والسبب أنهم لم يغفروا لها قيامها بالتقاط صور للدبابات الروسية خلال الأيام السبعة.حظيت بوظيفتها الجديدة بمساعدة بعض الأصدقاء وهم أشخاص كانوا قد خسروا عملهم في الوقت نفسه فالت杰أوا إلى الحانة مثلها. كان هناك عند صندوق المحاسبة أستاذ سابق في اللاهوت، وفي غرفة الاستقبال سفير سابق.

كانت تشعر بالخوف من جديد على ساقيها. حين كانت تعمل في السابق كخادمة مقهى في الريف، كانت ترتعب لمرأى بطاطس سيقان زميلاتها المكسوة بالدوالي. كان هذا المرض يصيب جميع الفتيات اللواتي يمضين حياتهن ماشيات أو راكضات أو واقفات وفي أيديهن أحمال ثقيلة. أما العمل هنا فكان أقل إجهاداً من عملها السابق في الريف. قبل شروعها في الخدمة، كان يتعين عليها أن تحمل بضعة صناديق ثقيلة من البيرة والمياه المعدنية. ولكنها كانت تقضي بقية الوقت واقفة وراء طاولة الشرب تسكب الكحول للزيائين، أو تنظف بين

الحين والآخر الأقداح في مجلسي صغير موجود عند طرف الحانة. وكانت كارنينا تبقى مضطجعة بأناء عند قدميها طوال وقت الخدمة. كان قد حلَّ منتصف الليل عندما أنهت حساباتها وأخذت المال إلى مدير الفندق. ثم ذهبت لتودع السفير الذي كان يخدم أثناء الليل. كان هناك خلف طاولة الشرب الطويلة في غرفة الاستقبال باب يؤدي إلى غرفة صغيرة حيث يمكن للمرء أن يغفو على فراش صغير. كانت على الجدران صورة داخل برواز: حيث نرى السفير دائمًا وسط أناس يتسمون للكاميرا، أو يصافحونه، أو يجلسون قربه ليوقعوا على شيء ما. وفي صورة موضوعة في الواجهة، نرى قرب وجهه وجه جون ف. كينيدي وهو يتسم.

لم يكن يتحدث هذا المساء إلى رئيس الولايات المتحدة، بل إلى رجل ستيني مجهول التزم الصمت فجأة لدى رؤيته تيريزا.

قال السفير: «هذه صديقة. يمكنك أن تتكلم وأنت مطمئن البال». ثم التفت إلى تيريزا قائلاً: «حكموا على ابنه، هذا اليوم تحديداً، بالسجن لخمس سنوات».

أخبرت بأنَّ الرجل ستيني كان خلال أيام الاجتياح يراقب بمعية أصدقاء له مدخل أحد المباني التي تمركزت أمامها وحدة تابعة للجيش الروسي. مما لا شكَّ فيه أنَّ التشيكيين الذين كانوا يخرجون من المبني، مخبرون لصالح الروس. كان يتعقبهم مع زملائه ويسجل أرقام لوحات سياراتهم ويعطيها لمحوري محطة تشيكية سرية كانت تعمل على إنذار الشعب. وقد حدث له أن ضرب أحدهم بمساعدة أصدقائه. كان الرجل ستيني يقول: «استطاع إنكار كل التهم إلى أن أرزوه هذه الصورة. فهذه الصورة هي وحدها الدليل الحسي».

ثم أخرج من جيب سترته قصاصة من إحدى الصحف وقال: «نشرت هذه الصورة في جريدة التايمز في خريف 1968».

كان هناك في الصورة شاب يمسك شخصاً من عنقه وحوله أناس يرافقون. وكتب في أسفل الصورة: عقاب لتعاون مع العدو. أحست تيريزا بحمل ينزعج عنها. لا، لم تكن هي التي التقطت هذه الصورة.

رجعت إلى بيتها مع كارينينا عبر شوارع براغ السوداء. كانت تفكّر في الأيام التي التقطت فيها صوراً للدبّابات: لَكُم كانوا سذجاً كلهم! كانوا يعتقدون أنهم يخاطرون بحياتهم من أجل وطنهم، فيما هم كانوا يعملون، على غير علم منهم، للشرطة الروسية.

وصلت إلى البيت في الساعة الواحدة والنصف. كان توماس نائماً منذ وقت طويلاً. ومن شعره كانت تفوح رائحة أثوية، رائحة فرج.

8

ما هو الإغراء؟ يمكننا أن نقول بأنه تصرف يلمح إلى أن المقاربة الجنسية ممكنة، ولكن من دون أن يجعل هذه الإمكانية تبدو على أنها يقين. وبكلمة أخرى: الإغراء هو وعد غير مضمون بالجماع.

ها إنّ تيريزا واقفة وراء طاولة تقديم الشراب، والزبائن الذين تقدم لهم الشراب يتغزلون بها. أوَتَجَدُ هذا السيل المتدافق من عبارات الإطراء والكلمات المبطنة والنكبات الفاحشة والدعوات والابتسamas والنظرات، أمراً مستكرهاً؟ لا، إطلاقاً. بل تشعر برغبة لا تقاوم في منح جسدها، (هذا الجسد الغريب الذي تود لو تطرده بعيداً) منحه لارتداد الأمواج هذا.

يحاول توماس إقناعها دون توقف بأنّ الحب والجنس عالمان مختلفان. وهي كانت ترفض القبول بذلك. ها هي الآن مُحاطة برجال لا يثيرون فيها أي إعجاب. ثُرى ماذا سيؤثر فيها لو أنها تضاجعهم؟

إنها تشعر برغبة في المحاولة حتى وإن كان هذا تحت شكل الوعد غير المضمون الذي هو الإغراء.

يجب ألا نسيء فهم الأمر: هي لا تفتش عن الانتقام من توماس وإنما تفتش عن منفذ للخروج من المتابهة. وهي تعرف أنها حمل ثقيل عليه لأنها تأخذ الأمور كثيراً على محمل الجد وتحوّل كل شيء إلى مأساة، ولا تتوصل إلى فهم خفة العلاقات الجنسية وتفاهتها السعيدة. كانت تود أن تتعلم الخفة! كانت تود لو أن أحداً يعلمها كيف لا تكون «بطلة الوعد!».

إذا كان الإغراء بالنسبة للنساء الآخريات طبيعة ثانية وروتيناً دون معنى، فإنه بالنسبة لها حقل تجارب هام يجعلها تكتشف ما هي قادرة عليه. ولكن بما أنها تولي الإغراء أهمية وجدية كبيرتين، فإنه يفقد عندئذ كل خفة ليصير متكتفاً ومصطنعاً ومفرطاً. فيصير التوازن بين الإيحاء وغياب الضمانة مفقوداً (في هذا التوازن بالذات تكمن البراعة الحقيقة في فن الإغراء!) فهي تتسرع حين تَعُدُّ من غير أن تظهر بوضوح أنّ وعدها هذا لا يُلزمها بشيء. ويكلام آخر، الجميع يعتبرونها سهلة المنال جداً. ثم إنّ الرجال عندما يسعون وراء إكمال ما كانت أوحت لهم به، يصطدمون بمقاومة مفاجئة لا يمكنهم تفسيرها إلاّ بكونها نابعة من فظاظة تيريزا المُزهفة.

9

جلس مراهق في السادسة عشرة من عمره على مقعد فارغ أمام طاولة الشرب. ثم أخذ يتفوه بجمل مثيرة تنزل في الحديث كما ينزل خط مغلوط في الرسم فلا يمكن متابعته ولا محوه.
قال لها: «ساقاكِ جميلتان».

فقالت متعريضة: «كما لو أنك تراهما عبر خشب طاولة الشرب!».

وأوضح الفتى: «ولكني أعرفك. أراقبك في الشارع». غير أن تيريزا ابتعدت للاهتمام ببيان آخرين. طلب منها كأس كونياك فرفضت.

فاعتراض المراهق: «ولكني أتممت لتوّي الثامنة عشرة».

- أرني إذاً بطاقةك الشخصية.

فرد المراهق:

- هذا غير وارد.

- حسناً! خذ ليموناضة!».

ثم، دون أن ينبع بكلمة، نهض عن مقعده وخرج. ثم رجع بعد زهاء نصف ساعة للجلوس أمام طاولة الشرب. أخذ يومئے بحركات كثيرة ورائحة الكحول تفوح من فمه عن بعد ثلاثة أمتار.

- «ليموناضة!»

قالت:

- «أنت ثمل!».

وأشار المراهق إلى لوحة معلقة على الحائط خلف تيريزا، كتب عليها: يُمنع منعاً باتاً تقديم مشروبات كحولية لمن دون الثامنة عشرة.

ثم قال وهو يشير إلى تيريزا بحركة موحية من يده: «يُحظر عليك أن تقدمي لي الكحول، ولكنه لم يكتب في أي مكان أنه لا يحق لي أن أسكر».

- «أين فعلت بنفسك هذا؟» سالت تيريزا.

- «في الحانة المواجهة». ثم أطلق ضحكة طويلة، وطلب من جديد ليموناضة.

- ولماذا لم تبق هناك إذاً؟

قال المراهق: «لأنني أريد أن أنظر إليك. أحبك».

حين تفوه بذلك، انقبض وجهه بشكل غريب. لم تكن تفهم: فهو يهزاً بها؟ أم يمهد لصداقتها؟ هل في الأمر العوبة ما؟ أم أنه ببساطة كان سكران ولا يعرف ماذا يقول؟

وضعت كوب الليموناضة أمامه، ثم ذهبت للاهتمام بزيائن آخرين. يبدو أنَّ كلمة «أحبك» قد أنهكت المراهق، لأنَّه لم يقل شيئاً بعدها. بل وضع دون ضجة المال على الطاولة وانسحب دون أن تلاحظ تيريزا.

ما إن خرج حتى بادر بالكلام رجل أصلع قصير كان يتناول كأسه الثالثة: «يا سيدة، تعرفين أنه لا يحق لك تقديم الكحول لمن هم دون السن؟».

- ولكنني لم أقدم له كحولاً! أخذ كوبًا من الليموناضة!

-رأيت جيداً ماذا سكبت له في الليموناضة!

- «ماذا تقول!» هتفت تيريزا.

فأمرها الأصلع: «كأس فودكا أخرى»، ثم أضاف: «منذ فترة طويلة وأنا أراقبك».

عندئذ تدخلَ رجل طويل القامة كان اقترب من طاولة الشرب ورأى المشهد بكامله:

- حسناً! اعتذر نفسك محظوظاً لأنه يتستّر لك النظر إلى سيدة جميلة واقفل فمك!

فصرخ الأصلع: «أنت ما دخلتك في هذا الأمر! هذا شيء لا يعنيك!».

فَسَأْلُ الرَّجُلِ الْعَمَلَقِ: «وَهَلْ تُسْتَطِعُ أَنْ تُشْرِحَ لِي مَا دَخَلْتَ أَنْتَ فِي هَذَا؟».

قَدَّمَتْ تِيرِيزَا كَأسَ الْفُودَكَا التِّي كَانَ الْأَصْلُعَ قَدْ طَلَبَهَا. فَشَرَبَهَا دَفْعَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ دَفَعَ الْحِسَابَ وَخَرَجَ.

قَالَتْ تِيرِيزَا لِلرَّجُلِ الطَّوِيلِ الْقَامَةَ: «أَشْكُرُكَ».

فَقَالَ الرَّجُلُ الطَّوِيلُ: «لَيْسَ هُنَاكَ مَا يَسْتَوْجِبُ الشَّكْرَ»، ثُمَّ خَرَجَ بِدُورِهِ.

10

بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ ظَهَرَ فِي الْحَانَةِ مِنْ جَدِيدٍ. عَنِّدَمَا رَأَتْهُ، ابْتَسَمَتْ لَهُ وَكَانَهُ صَدِيقٌ: «يَجْدِرُ بِي أَنْ أَشْكُرَكَ مَرَةً ثَانِيَةً، ذَاكَ الْأَصْلُعُ يَأْتِي إِلَى هَنَا غَالِبًاً، وَهُوَ ثَقِيلُ الدِّمَ بِشَكْلٍ مُنْفَرٍ».

- لَا تَفْكِري فِيهِ.

- لِمَاذَا كَانَ يَرِيدُ الْإِسَاءَةَ إِلَيَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ؟

- لِيُسَيِّرَ إِلَّا سَكِيرًا. أَطْلَبْ مِنْكَ مَرَةً ثَانِيَةً: لَا تَفْكِري فِيهِ.

- بِمَا أَنَّكَ تَطْلُبُ مِنِّي ذَلِكَ، فَلَنْ أَفْكِرَ فِيهِ بَعْدَ الْآنِ.

نَظَرَ الرَّجُلُ فَارِعُ الطُّولِ فِي عَيْنِيهَا: «يَجْبُ أَنْ تَعْدِينِي بِذَلِكَ».

- أَعْدُكَ.

فَقَالَ الرَّجُلُ وَهُوَ لَا يَكْفُّ عَنِ التَّحْدِيقِ فِي عَيْنِيهَا: «يُسْعَدِنِي أَنْ أَسْمَعَكَ تَعْدِينِي بِشَيْءٍ مَا».

كَانَ المَوْقِفُ فِي مُتَهَىِ الإِغْرَاءِ: هَذَا التَّصْرِيفُ الَّذِي يُوحِي بِإِمْكَانِيَّةِ الْمَقَارِبَةِ الْجَنْسِيَّةِ حَتَّى وَلَوْ بَقِيتْ هَذِهِ الْإِمْكَانِيَّةُ نَظَرِيَّةً بَحْثَةً وَدُونَ ضَمَانَةِ.

- كيف حدث أنه أمكن الالقاء بامرأة مثلك في الحي الأكثر رداءة في براغ؟

- وأنت؟ ماذا تفعل في الحي الأكثر رداءة في براغ؟

فقال إنه يسكن على مسافة ليست ببعيدة من هنا، وإنه يعمل مهندساً، وإنه توقف هنا صدفة في المرة السابقة عندما كان راجعاً من عمله.

11

كانت تنظر إلى توماس. لكن نظراتها لم تكن موجهة إلى عينيه، بل إلى فوقهما بمسافة عشرة ستمترات، إلى شعره الذي كانت تفوح منه رائحة فرج امرأة أخرى.

قالت: «توماس، لم أعد أقدر. أعرف أن لا حق لي في التشكي. مذ رجعت إلى براغ وأنا أحظر على نفسي الغيرة. لا أريد أن أكون غيورة. ولكنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من ذلك. لا قدرة لي. ساعدني، أرجوك».

فتأنط ذراعها واقتادها إلى حديقة صغيرة حيث كانا يذهبان مراراً قبل سنوات. كانت هناك في هذه الحديقة مقاعد: زرقاء وصفراء وحمراء. عندما جلسا، قال لها توماس:

- أفهمك وأعرف ماذا تريدين. لقد رتبْت كل شيء. عليك الآن أن تذهب إلى «مون - دو - بير».

وللحال تأكلها القلق: «إلى «مون - دو - بير»؟ لكن ماذا علي أن أفعل في «مون - دو - بير»؟».

- ستتصعدين إلى فوق وعندئذ ستفهمين؟
لم تكن راغبة إطلاقاً في الذهاب. كان جسدها أضعف من أن

يقوى على مغادرة المقعد. ولكنها لم تكن قادرة أيضاً على مخالفة أمر لتو ما س. فبذلت جهدها لتنهض.

استدارت. كان لا يزال جالساً على المقعد وبيتسم لها بسعادة تقريباً. ثم أشار لها بحركة من يده لكي يشجعها، دون ريب.

12

عندما وصلت إلى «مون - دو - بير» وهي تلة خضراء تنتصب في وسط بраг، لاحظت مذعورة أن لا أحد هناك. كان الأمر يثير الاستغراب فهناك دائمًا جموع من بраг تتوافد عادة إلى المكان وفي أي ساعة كانت، للتترى. أحسست بالقلق ينهاش قلبها. لكن الممرات كانت ساكنة إلى حد بعيد، وكان هذا الصمت يبعث على الطمأنينة، فأقلعت عن المقاومة واستسلمت بشقة لذراعي التلة. كانت تصعد إلى فوق متوقفة من وقت لآخر ل تستدير إلى الوراء. كانت ترى تحتها أبراجاً وجسوراً كثيرة. كان القديسون يلوّحون بقبضاتهم، وعيونهم الحجرية محدقة في الغيم. كانت هذه أجمل مدن العالم.

بلغت أعلى التلة. وراء الأكشاك حيث يبيعون عادة مرايا وبطاقات تذكارية وخزفاً مبرغلاً، (كان الباعة متغيرين في ذلك اليوم) حيث تمتد مرجة خضراء فسيحة الأرجاء ومغروسة بأشجار قليلة.. لمحت هناك بضعة رجال. كانوا يقفون قليلاً بلا حراك، ثم يروحون ويجيئون ببطء متناول، أشبه بلاعبي غولف يتفحصون الحفرة ثم يَزِّنون عصيّهم بأيديهم لكي يحضروا أنفسهم على الشروع في المباراة.

وصلت في النهاية بمحاذاتهم. كانت واثقة بأنها تعرف ثلاثة من بين الرجال الستة، أتوا إلى هنا لكي يقوموا بالدور نفسه الذي تقوم به هي: كانوا مرتعبين، كانوا وكأنهم راغبون في طرح أستلة لا تُحصى ولكنهم آثروا السكوت خشية الإزعاج ونظروا حولهم نظرات حائرة.

أما الرجال الثلاثة الآخرون فكانوا يفيفون طيبة وتسامحاً. كان أحدهم يمسك بندقية بيده. حين لمع تيريزا أشار لها بابتسامة قائلًا: «أجل، هنا».

حيثه بانحناء من رأسها وأحسست بضيق هائل.

أضاف الرجل: «حتى نفادى الخطأ، هل هذه «رغبتك» فعلًا؟». كان سهلاً أن تقول له: «لا، هذه ليست رغبتي»، ولكن خيانة ثقة توماس أمر غير وارد. إذ بأية حجة ستتذرع عندما تعود إلى البيت؟ فقالت عندئذ: «أجل، طبعاً. هذه رغبتي».

كان الرجل حامل البندقية يتابع: «يجب أن تفهمي لأية غاية أطرح عليك هذا السؤال. نحن لا نفعل هذا إلا إذا كنا واثقين بأنّ الذين يأتون إلينا قد قرروا بأنفسهم وملياً أن يموتو. هذه خدمة نؤديها من أجلهم». نظر إلى تيريزا نظرة مستفهمة، فتوجب عليها مرة أخرى أن تؤكد لهم: «نعم، اطمئن! هذه رغبتي».

سألها:

- «هل تريدين أن تكوني الباذنة؟».

فارادت أن تؤجل الإعدام ولو للحظات قليلة.

- «لا، أرجوك، لا. أريد أن أكون الأخيرة، لو سمحت».

- «كما تثنين». أجاب الرجل ثم مضى باتجاه الآخرين. لم يكن معاوناه يحملان سلاحاً. بل كانوا هناك للاهتمام بالناس الذين يريدون الموت. فيقتادانهم من أذرعهم ويرافقانهم إلى المراجة. والمرجة مساحة شاسعة مكسوة بالعشب على مذ النظر. كان يمكن للمرشحين للإعدام أن يختاروا الشجرة التي تعجبهم. كانوا يتوقفون وينظرون ملياً غير قادرين على الاختيار. وفي النهاية اختار اثنان منهم شجرتي دلب لكن الثالث كان يتعد أكثر فأكثر دون أن يعثر على شجرة تناسب موته.

وكان المعاون الذي يتآبّط ذراعه برقة، يرافقه بأنّة دون أن ينفد صبره. لكن الرجل في النهاية لم يعد يقوى على التقدّم فتوقف أمام شجرة قيقب كثيفة الأوراق.

عصب المعاونان أعين الرجال الثلاثة.

كان هناك فوق المرجة إذاً ثلاثة رجال متكتّين إلى ثلاثة جذوع أشجار، وكل واحد منهم معصوب العينين ورأسه باتجاه السماء.

سدد الرجل حامل البنديقية وأطلق النار. عدا أصوات العصافير لم تكن هناك أيّة ضجة. كانت البنديقية مزوّدة بكاتم للصوت. كان بالإمكان فقط رؤية الرجل المتكتّن إلى شجرة القيقب وقد بدأ يتهاوى.

ودون أن يبتعد الرجل حامل البنديقية عن مكانه، استدار في اتجاه آخر فانهار الرجل المستند إلى شجرة الدلب بدوره وسط صمت مطبق. ولحظات قليلة (كان الرجل حامل البنديقية يدور على عقبيه ملازماً مكانه) وسقط المرشح الثالث للإعدام هو أيضاً على العشب.

13

اقترب أحد المعاونين من تيريزا دون أن ينبس بكلمة. كان يحمل في يده عصابة زرقاء دكناً.

فهمت أنه يريد عصب عينيها. هزّت رأسها وقالت: «لا، أريد أن أرى كل شيء».

لكن لم يكن هذا هو السبب الحقيقي لرفضها. فهي لم تكن قط شبّيبة بالأبطال الذين صمّموا بشجاعة على النظر في أعين مُعذّبيهم. بل كانت فقط محاولة منها لتأجّيل موتها. إذ خُيّل إليها أنها ما إن تُعصب عينيها حتى تكون قد دخلت إلى غرفة انتظار الموت، من غير أمل في الرجوع.

لم يحاول الرجل معارضتها ثم أخذها من ذراعها. كانا يمشيان على المرجة الفسيحة دون أن تتمكن تيريزا من أن تقرر أية شجرة ستختار. ثم أن لا أحد كان يجبرها على الاستعجال. لكنها كانت على يقين أنها لن تتمكن من الخلاص في جميع الأحوال. رأت أمامها شجرة كستناء مزهرة، فاقتربت. ثم استندت إلى الجذع ورفعت رأسها: فرأت الأوراق يخترقها شعاع الشمس، وسمعت في البعيد المدينة تددمم بخفوت وعدوية كأنها صوت ألف كمان.

رفع الرجل بندقيته.

بدأت شجاعتها تخونها. كانت يائسة من ضعفها ولكنها لم تستطع السيطرة عليها، فقالت: «لا! ليست هذه رغبتي». فأخفض الرجل البنديقة للحال وقال بهدوء كلي: «ما دامت هذه ليست رغبتك، لا يمكننا والحالة هذه أن نقوم بهذا. ليس لنا الحق في ذلك».

كان صوته ودوداً وكأنه يريد أن يعتذر إلى تيريزا لعدم قدرته على التنفيذ ما لم تكن هذه رغبتها. كان هذا اللطف يمزق قلبها فألقت رأسها على جذع الشجرة وأجهشت بالبكاء.

14

كانت تعانق الشجرة وجسدها يختلج من البكاء، وكأنَّ هذه الشجرة لم تعد شجرة وإنما صارت أباها الذي فقدته أو جدَّها الذي لم تعرفه، أو أبا جدَّها، أو جدَّ جدَّها؛ رجلاً ما موغلاً في القيد، آتياً من أعمق أعمق الزمن ليمد لها وجهه عبر قشرة الشجرة الخشنة.

استدارت. كان الرجال الثلاثة قد ابتعدوا وهم يروحون ويجيئون على المرجة كأنهم لاعبو غولف. ذلك أنَّ البنديقة التي هي في يد الرجل المسلح تذكر كثيراً ببعض الغولف.

هبطت ثانية ممرات «مون - دو - ببير» محتفظة في داخلها بالحنين إلى الرجل الذي كان سيُطلق عليها النار ولم يفعل. اشتاقت إليه، فهي كانت بحاجة إلى أحد ما يساعدها، في نهاية الأمر! توماس لم يكن يود مساعدتها. توماس أرسلها إلى الموت. وحده رجل آخر بإمكانه أن يساعدها!

كانت كلما اقتربت من المدينة، تحس بالحزن من أجل هذا الرجل، ويزداد خوفها من توماس. هو لن يغفر لها إخلالها بوعدها، ولن يغفر لها تخاذلها وخيانتها له. كانت قد وصلت إلى الشارع حيث يسكنان، وكانت تعرف أنها ستراه بين دقيقة وأخرى. وإذا فكرت في ذلك، داهمتها خوف شديد إلى درجة أحسست معها بتشنج في معدتها وبرغبة في التقيؤ.

15

كان المهندس قد دعاها إلى زيارته ورفضت لمرتين على التوالي. لكنها هذه المرة قبلت.

تناولت غداءها كالعادة واقفة في المطبخ، ثم خرجت. كانت الساعة تقارب الثانية.

كانت تقترب من مكان سكته فأحسست عندئذ بساقيها تبطئان من تلقائهما.

ثم فكرت أن توماس هو من أرسلها إلى هذا الرجل. ألم يكن يمضي الوقت وهو يشرح لها أن الحب والجنس أمران مختلفان؟ ستحاول بكل بساطة أن تؤكد نظريته. كانت تسمع صوته يقول لها: «أفهمك وأعرف ماذا تريدين. رتب كل شيء. ستتصعدين إلى فوق وستفهمين».

أجل، هي لم تقم سوى بتنفيذ أوامر توماس.

لم تكن تؤدّي البقاء إلا هنئية عند المهندس، فقط الوقت لشرب فنجان قهوة. فقط الوقت لتكتشف ما معنى أن تتقدم حتى حدود الخيانة. كانت تريد أن تدفع بجسدها باتجاه هذه الحدود وأن تتركه هناك لحظة، كما على عمود التشهير. ثمَّ حين يحاول المهندس أن يضمها بين ذراعيه ستقول له كما قالت للرجل صاحب البندقية في «مون - دو - بير»: «لا، لا! ليست هذه رغبتي».

وعندئذ سيخفض الرجل بندقيته ويقول بصوت عذب: «إذا لم تكن هذه رغبتك، فلا يمكننا والحالة هذه أن نقوم بهذا. ليس لنا الحق في ذلك».

وستلتفت عندها إلى جذع الشجرة وتجهش بالبكاء.

16

كانت البناءة تعود إلى بداية القرن وتقع في ضاحية عمالية في براغ. ولجت في رواق جدرانه مطلية بالكلس. كانت الأدراج العتيقة للسلم الحجري الذي يحيط به درابزين حديدي، تؤدي إلى الطابق الأول. استدارت إلى الشمال، على الباب الثاني حيث لا يوجد اسم ولا جرس، قرعت.

فتح الباب.

كان المسكن بكماله يتألف من غرفة واحدة تقسمها ستارة على بعد مترين من الباب لكي توحى بأنَّ هذا مدخل، حيث يوجد طاولة وموقد وبزاد. ولجت إلى الداخل فلاحظت قبالتها مستطيل النافذة العمودي في نهاية الغرفة الضيقة والممتدة طولاً. في جهة، كانت هناك مكتبة، وفي جهة أخرى سرير وكنبة وحيدة.

- «بيتي متواضع جداً»، قال المهندس. «أمل لا يُخيب هذا ظنك».

- «لا، إطلاقاً»، قالت تيريزا وعيناها مسمرتان إلى الحاطن الذي تحجبه تماماً رفوف مزدحمة بالكتب. لم يكن هذا الرجل يملك طاولة جديرة بهذا الاسم، ولكنه مع ذلك كان يملك مئات الكتب. سرت تيريزا لذلك. والقلق الذي رافقها وهي في طريقها إلى هنا أخذ يتلاشى. منذ طفولتها، كانت ترى في الكتاب علاماً على آخرة سرية. فمن يملك مكتبة كهذه، ليس في مستطاعه إذاً أن يؤذيها.

سألها ماذا بإمكانه أن يقدم لها: نبيذ؟

لا، لا، لم تكن راغبة في النبيذ. إذا كان هناك شيء ترغب في شربه، فسيكون القهوة.

اختفى وراء الستارة فاقتربت من المكتبة. استوقفها أحد الكتب وهو مسرحية مترجمة لسوفوكليس: «أوديب»، أمر غريب أن تجد هذا الكتاب بالذات عند هذا الرجل الذي تجهله. كان توماس قد أهداه تيريزا من سنوات متوسلاً إليها أن تقرأه بانتباه، وحدثها عنه طويلاً. ثم نشر انطباعاته عن هذا الكتاب في إحدى الصحف، فقلب هذا المقال حياتهما رأساً على عقب. كانت تنظر إلى ظهر الكتاب فتهدى هذه الرؤية من روتها. كان الأمر كما لو أن توماس ترك عن قصد أثره هنا بمثابة رسالة تبلغها أنه قد رتب كل شيء بنفسه. أخذت الكتاب وفتحته.. عندما سيرجع المهندس، سوف تسأله عن سبب اقتنائه لهذا الكتاب، وعما إذا كان قد قرأه وما هو رأيه فيه. وهكذا سيكون في وسعها الانتقال بفضل خدعة كلامية من المنطقة المحفوفة بالمخاطر لمسكن المجهول، إلى العالم الأليف لأفكار توماس.

ثم أحست بيده فوق كتفها. انتزع المهندس الكتاب من يدها وأرجعه، دون أن يقول شيئاً، إلى المكتبة، ثم اقتادها إلى السرير.

فكَرت في الجملة التي كانت قالتها إلى مُنفذ الإعدام في «مون - دو - بير»، فنُطقَت بها بصوت عالي: «لا، لا! ليست هذه رغبتي!». كانت مُقتنعة بأنَّ هذه العبارة الساحرة ستغير الموقف ولكن هذه الكلمات كانت تفقد كل قدرة سحرية لها في هذه الغرفة. وفي اعتقادي حتى أنها حثَت الرجل على أن يتصرف بطريقة أكثر تصميمًا: شدَّها ناحيته ووضع يده على نهادها.

أمر عجيب: فهذه الملامسة حررتها من قلقها في الحال. كما لو أنَّ المهندس قد أظهر لها من خلال هذه الملامسة، جسدها. ففهمت عندئذ أنَّ الرهان لا يقع عليها (أي على روحها) بل على جسدها، وجسدها دون غيره. هذا الجسد الذي كان قد خانها والذي طردهه بعيدًا ليتحقق بالأجساد الأخرى.

17

فَكَ زرًّا من قميصها متطرِّأً أن تكمل البقية بنفسها. ولكنها خيَّت توقيعه. فهي كانت قد طردت جسدها بعيدًا عنها، ولا تريده بذلك أن تأخذ أمره على عهديتها. لم تتعَرَّ لكنها في الوقت نفسه لم تقاوم. وكان روحها، على الرغم من أنها تستهجن ما يجري، قد اختارت مع ذلك أن تبقى على الحياد.

عرَّاها من ثيابها، وبقيت خلال هذا الوقت جامدة تقريبًا. وحين قبلها لم تتجاوب شفاتها معه. ثم شعرت فجأة أن فرجها رطب فذُهلت لذلك.

كانت كلَّما شعرت أنها مهتاجة رغمًا عن إرادتها، يزداد اهتياجها أكثر. ها قد بدأت روحها الآن تمثِّل بطريقة غامضة لمجريات الأمور، ولكنها كانت عارفة أيضًا أنَّ موافقتها هذه يجب أن تبقى مضمورة من أجل إطالة هذا الاهتياج الشديد. فلو أنها قالت نعم بصوت عالي، لو

أنها قبلت أن تشتراك بكمال إرادتها في تمثيلية الحب، لاضمحللت الإثارة. ذلك لأنّ الأمر الذي كان يثير روحها بالذات هو خيانة الجسد لها وتصرفه ضد إرادتها، فيما هي شاهدة على هذه الخيانة.

ثم نزع سروالها الداخلي فأصبحت الآن عارية تماماً. كانت الروح تتأمل الجسد عارياً بين ذراعيِّيَّيَّ رجل غريب. فبُدأَ لها هذا المشهد عجيناً كمن يتأمل كوكب المريخ عن كثب. وتحت هذه الإضاءة العجيبة فقد جسدها للمرة الأولى تفاهته، وللمرة الأولى نظرت إليه مفتونة: كان تفرد جسدها وتميزه الذي لا يُشاهى يحتلان الصدارة. إذ لم يعد جسدها ذلك الجسد الأكثر عاديّة بين الأجساد (كما بُدأَ لها حتى الآن) ولكن الأكثر استثنائية بينها. لم تكن الروح قادرة على إشاحة بصرها عن شائبة الولادة [الصرة] المستديرة السمراء فوق العانة تماماً؛ كانت الروح ترى في هذه الشائبة ختماً وسمت به الجسد، وكانت تجد أن تحرك عضو غريب على مقربة جداً من هذا الختم المقدس، أمر فيه تجديف.

تذكريت تيريزا حين رفعت عينيها ورأت وجهه، أنها لم توافققط على أن تجد الجسد، وبالتحديد في المكان الذي طبعت فيه الروح ختمها، بين ذراعيِّيَّيَّ رجل لم تكن تعرفه ولا ترحب في معرفته. فاجتاحتها كراهية مدوّنة. جمعت ريقها عند شفتيها مستعدة لأن تبصق في وجه الرجل الغريب. كان كلّ منهما يراقب الآخر بالّهم ذاته، يبدو أنه أحسن بغضبهما فأخذ يعجل في حركاته. وإذا أحست تيريزا بالنشوة تعترىها أخذت تصرخ: «لا، لا، لا!». كانت تقاوم المتعة التي تقترب. وبما أنها كانت تقاومها، فإن المتعة المردوعة كانت تتغلغل عميقاً في حنایا جسدها دون أن تجد منفذًا لتهرب منه، كانت النشوة تسري في جسدها كما تسري حقنة المورفين في العرق. كانت تتخطى بين ذراعيِّيَّيَّ رجل وتصربيه على غير هدى وتبصق في وجهه.

ترتفع المراحيض العصرية فوق الأرض مثل زهرة النيلوفر البيضاء. فالمهندس المعماري يفعل كل ما في وسعه كي ينسى الجسد بؤسه فلا يعرف الإنسان عما سيؤول إليه غائط أحشائه بعد أن تدفعه مياه الخزان مقرقةً. ومع أنَّ قساطل المجارير تصل مجساتها حتى شققنا، فإنها محجوبة بعناية عن أنظارنا ونجهل كل أمر عن «بندقية» البراز التي تقوم عليها غرف حماماتنا ونومنا وقاعات رقصنا ومجالستنا.

أما مراحيض هذا المبني القديم، الواقع في ضاحية عمالية من براغ، فكانت أقل خبئاً. كان المرحاض يرتفع يتيمًا بائساً فوق بلاط الأرض الرمادي. ومنظره لم يكن يذكر بزهرة النيلوفر بل بأنه مرحاض أي: الفوهة الواسعة للقسطل لم تكن عليها مقعدة خشبية فاضطرت تيريزا إلى الجلوس على الصفيحة المطلية بالمينا، فجعلتها ترتعش.

كانت تيريزاجالسة فوق المرحاض وكانت الرغبةُ التي تملكتها فجأةً في إفراغ أمعانها، رغبةً في الذهاب حتى نهاية الذل، رغبةً في أن تكون جسداً، جسداً فحسب، في أن تكون ذلك الجسد الذي كانت تقول أمها عنه إنه وُجد ليهضم ويغوط. تيريزا إذاً تفرغ أمعاءها وتشعر الآن بحزن ووحدة يفوقان الوصف. إذ لا شيء أكثر تعاسة من جسدٍ عاري جالس فوق الفوهة الواسعة لقسطل التفريغ.

فقدت عندئذ روحها فضولية المُشاهد وعدوانيتها وكبرياتها: فمن جديد، غارت في قعر جسدها، في تلافيفه الأكثر سرية وقبعت تتضرر هناك ب Yas استدعاءها من جديد.

قامت عن المرحاض وشدّت على طرّادة الماء، ثم رجعت إلى

المدخل. كانت الروح ترتعش في الجسد المنبود العاري. كانت تيريزا تشعر أن الورقة التي مسحت بها مؤخرتها لا تزال عالقة هناك.

فحدث عندها شيء لا يُنسى: رغبت في موافاته إلى الغرفة وسماع صوته وندائه. لو أنه يتكلم معها بصوت عذب وخفيض ربما ستستعيد روحها الجرأة للصعود إلى سطح جسدها، وربما سوف يمكنها البكاء. ربما ستuanقه كما كانت عانقت في الحلم، الجذع العريض لشجرة الكستناء.

كانت في المدخل تحاول جاهدة أن تتمالك هذه الرغبة الجامحة في البكاء أمامه. كانت عارفة أنها لو لم تتمالك هذه الرغبة، فسوف يحدث ما لا ترغب فيه، ستقع في غرامه.

في هذه اللحظة بالذات، تناهى إلى سمعها صوت من عمق المسكن. عندما سمعت هذا الصوت غير المسجد (أي دون أن يترافق مع رؤية القامة الفارعة للمهندس) أخذها العجب: كان الصوت خافتاً وحاداً. كيف لم تلاحظ ذلك قبل الآن؟

ربما بسبب هذا الانطباع المُحير والمقيت الذي تركه هذا الصوت في داخلها، استطاعت أن تقاوم التجربة، فرجعت إلى الغرفة، حيث لملمت ملابسها ثم ارتدت ثيابها على عجل وغادرت.

20

كانت راجعة من جولاتها الشرائية بصحبة كارنينا التي تحمل فطيرة في خطمها. كانت الصبيحة باردة جليدية قليلاً. كانت تسير بمحاذة أرض مفرزة تتخلل المسافات بين البيوت الكبيرة جنائن مزروعة صغيرة جداً وحدائق صغيرة. توقفت كارنينا بفترة، وحدّقت بثبات إلى هناك. نظرت هي أيضاً إلى تلك الجهة دون أن يلفت نظرها شيء ما. كانت كارنينا تجرّها فاستسلمت لها. وأخيراً، رأت فوق الصلصال المتجمد

لمسكبة صغيرة رأس زاغ أسود ذا منقار طويل. كان الرأس الصغير دون جسد يتحرك ببطء ويرسل من وقت لآخر صوتاً حزيناً أحش.

كانت كارنينا مضطربة إلى درجة أنها تخلت عن الفطيرة. فاضطررت تيريزا لأن تربطها إلى شجرة لثلا تسيٌ إلى الزاغ. ثم انحنت وحاولت أن تبشع التراب المتكوّم حول العصفور المدفون حيّاً. لم يكن الأمر سهلاً فأحد أظفارها انكسر ونزف الدم منه.

في هذه اللحظة، سقط حجر قربها. رفعت بصرها فلمحت صبيين في العاشرة من عمرهما عند زاوية أحد البيوت. نهضت. وإذا شاهدا رد فعلها والكلب المربوط إلى الشجرة، ولما راكضين.

ركعت من جديد على الأرض لتحفر التراب الصلصالي وتمكنـت أخيراً من تحرير الزاغ من قبره، لكن العصفور كان مشلولاً وغير قادر على المشي أو على الطيران. فغطّته بالمنديل الذي كانت تلفه حول عنقها وضمّته بيدها اليسرى إلى صدرها. أفلتت باليـد اليمنى وثاقـ كارنيـنا من الشجرة. واحتـاجـتـ إلى كل قوـتهاـ لـتـتحـكمـ بـهاـ وـتـبـقـيـهاـ إـلـىـ جانبـ سـاقـهاـ.

وبـماـ أـنـ يـدـهاـ لـمـ تـكـنـ فـارـغـةـ لـتـبـحـثـ عـنـ المـفـتـاحـ فـيـ جـيـبـهاـ، قـرـعـتـ الجـرـسـ، فـفـتـحـ لـهـ توـمـاسـ. نـاـولـهـ رـسـنـ كـارـنـيـناـ وـأـمـرـتـهـ قـائـلـةـ: «ـأـمـسـكـهـاـ!ـ»ـ وـحـمـلـتـ الزـاغـ إـلـىـ الحـمـامـ. هـنـاكـ، وـضـعـتـهـ تـحـتـ المـغـسـلـةـ. كـانـ الزـاغـ يـتـخـبـطـ دـوـنـ أـنـ يـقـدـرـ عـلـىـ الـحـرـكـةـ. كـانـ هـنـاكـ سـائـلـ سـمـيكـ أـصـفـرـ يـنـزـفـ مـنـ جـسـدـهـ. صـنـعـتـ لـهـ تـيرـيزـاـ فـراـشاـ مـنـ خـرـقـ عـتـيقـةـ، وـوـضـعـتـهـ عـلـيـهـ تـحـتـ المـغـسـلـةـ كـيـلاـ تـصـلـ إـلـيـهـ بـرـوـدـةـ الـبـلـاطـ. كـانـ العـصـفـورـ يـحـرـكـ جـنـاحـهـ المـشـلـولـ يـائـساـ وـكـانـ مـنـقارـهـ نـاتـتاـ وـكـانـ إـشـعـارـ بـالـلـوـمـ.

21

كـانـ جـالـسـ عـلـىـ حـافـةـ المـغـطـسـ غـيرـ قـادـرـةـ عـلـىـ إـشـاعـهـ بـصـرـهاـ عـنـ

الزاغ المحتضر. وكانت ترى في وحدته صورة مصيرها الخاص ثم
رددت: لا أحد لي في هذا العالم غير تو ما س.

هل علّمتها التجربة مع المهندس أنّ المغامرات العاطفية لا علاقة
لها بالحب؟ وأنّ هذه المغامرات خفيفة لا تزن شيئاً؟ وهل صارت هي
نفسها أكثر هدوءاً من ذي قبل؟
إطلاقاً.

ثمة مشهد يلاحقها باستمرار: وهي خارجة لتوها من المرحاض
وكان جسدها واقفاً في المدخل عارياً ومتروكاً، وكانت الروح المذعورة
ترتعش في أحشائها. أحسّت أنّ الرجل فيما لو خاطب روحها من عمق
الغرفة في هذه اللحظة بالذات، فسوف تشهق بالبكاء مرتمية بين
ذراعيه.

كانت تخيل أنّ هناك صديقة لتو ما س واقفة مكانها في المدخل
 أمام المرحاض، وتوماس في الغرفة مكان المهندس. لو أنّ تو ما س قال
 عندها كلمة للمرأة الشابة، كلمة واحدة لا أكثر، لارتقت بين ذراعيه
 باكية.

تعرف تيريزا جيداً أنّ هذه اللحظة تشبه تلك اللحظة التي يولد
 الحب فيها: حين لا تستطيع المرأة أن تقاوم الصوت الذي ينادي
 روحها المذعورة، والرجل لا يستطيع أن يقاوم المرأة التي تصير روحها
 متنبهة لصوته. وتيريزا تعرف أيضاً أنّ تو ما س لن ينجو أبداً من فخاخ
 الحب وهي ليس في مقدورها إلاّ أن تخاف عليه كل ساعة وكل دقيقة.
 والحالة هذه، بأي سلاح يمكن لها أن تتزود؟ بوفائها فقط..
 وفاؤها الذي منحته إياه منذ البداية ومنذ اليوم الأول، كما لو أنها كانت
 عارفة للحال أنها لا تملك شيئاً آخر لتنمّحه إياه. فحبهما بناء غير
 متساوق إلى حدّ عجيب: لأنّه يرتكز على اليقين المطلّق بوفاء تيريزا
 كما يرتكز قصر ضخم على عمود واحد.

الآن، لم يعد الزاغ يحرك جناحيه تقريباً. كان بالكاد يحرك رجله الممزقة المكسورة. لم تكن تيريزا تريد أن تتركه، كما لو كانت ساهراً قرب سرير أخت تختضر. ومع ذلك ذهبت أخيراً إلى المطبخ لتناول غداءها على عجل.

عندما رجعت كان الزاغ قد مات.

22

إبان السنة الأولى لعلاقتهما، كانت تيريزا تصرخ أثناء المضاجعة، وكان هذا الصراخ، كما سبق لي أن قلت، يحاول أن يعمي الحواس وأن يصمّها. ثم صار صراخها يتضاءل، ولكن الحب كان دائماً يُعمي روحها فلا ترى شيئاً. عندما ضاجعت المهندس، ردّ غياب الحب الرؤية أخيراً إلى روحها.

كانت تأخذ حمام السونا وكانت تقف من جديد قبالة المرأة. أخذت تتأمل نفسها وتسترجع في ذهنها مشهد الحب مع المهندس، لم تكن تتذكر العشيق، وكانت في الحقيقة غير قادرة على وصفه، وربما لم تلاحظ كيف كانت هيته وهو عاري تماماً. الشيء الوحيد الذي كانت تتذكرة (والذي كانت تنظر إليه مستشاره عبر المرأة) هو جسدها وبالتحديد عانتها والشائبة المستديرة فوقها تماماً. هذه الشائبة التي لم تكن ترى فيها حتى الآن إلاً مجرد عيب جلدي، بدأت تنطبع في ذاكرتها. كانت ت يريد أن تنظر إليها وتنظر إليها من جديد وهي على مقربة لا توصف من قضيب الرجل الغريب.

لا يمكنني إلاً أنأشدّ على هذا ثانيةً: هي لم تكن راغبة في رؤية قضيب الغريب. بل كانت ت يريد أن ترى عانتها وهي على مقربة من هذا القضيب، وعانتها تحديداً. لم تكن ترغب في جسد الآخر، بل في

جسدها هي، الذي اكتشفت فجأة أنه كلما كان أكثر قرباً وأكثر غرابة، كان أكثر إثارة.

ها إنها تنظر إلى جسدها المتلألئ بقطرات ماء صغيرة من الدوش، وتفكر في أن المهندس سيمر بين يوم وآخر إلى الحانة. كانت راغبة في أن يأتي وفي أن يدعوها لزيارته! كانت عندها رغبة عارمة في ذلك!

23

كانت على مر الأيام تخشى ظهور المهندس ثانية أمام طاولة الحانة، فتكون غير قادرة على أن تقول لا. على مر الأيام، كانت خشيتها من أن تراه، تخلّي المكان لخشيتها من ألا يأتي.

انقضى شهر والمهندس منقطعة أخباره. كانت تيريزا عاجزة عن فهم السبب. فأفسحت الرغبة الخاتمة المكان للقلق: لماذا لا يأتي؟..

كانت تقدم الشراب للزبائن. ها قد رجع الأصلع القصير الذي كان اتهمها ذلك المساء بأنها تقدم الكحول لمن هم دون السن. كان يروي بصوته العال قصة دائرة. القصة نفسها التي سمعتها مئات المرات من أفواه السكارى الذين كانت تقدم لهم كؤوس جعة كبيرة في الريف. وإذا أحسست بأن عالم أمها ينقض عليها من جديد، قاطعت حديثه بفظاظة شديدة.

تضائق: «ليس هناك أوامر تملينها علي! اعتبرني نفسك محظوظة لأننا نحن الذين نتركك تعملين في هذه الحانة».

- «نحن»، ماذا تقصد بـ«نحن»؟

- «نحن»، قال الرجل ثم أمر بكأس أخرى من الفودكا. «وتذكري أنني لن أسمح لك بإهانتي».

ثم أشار إلى عنق تيريزا الذي كان مطوقاً بعقد مؤلف من عدة

صفوف من اللؤلؤ الرخيص، وقال: «من أين لكِ هذا اللؤلؤ؟ لا تقولي إنه هدية من زوجك الذي يعمل في تنظيف الزجاج والبلاط. فهو لا يقدر على أن يشتري لك هذا اللؤلؤ بالأجر الذي يكسبه! هل هم الزبائن الذين يعطونك هذا؟ ومقابل أي شيء، قولي؟».

صرخت تيريزا: «أغلق فمك فوراً.

حاول الرجل أن يمسك العقد بين أصابعه: «تذكري أن الدعاية ممنوعة في بلادنا!».

انتصبت كارنينا وأسندت قائمتها الأمامتين إلى طاولة الشرب ودمدت متذمرة.

24

قال السفير: «إنه شرطي!».

فألتحقت تيريزا: «لو كان شرطياً لكان أكثر تكتماً. فماذا تفع شرطة سرية حين لا تكون سرية!؟».

جلس السفير مقرضاً وكأنه تعلم ذلك في جلسات الليوغا. على الحائط كان كينيدي يبتسم فيضفي على كلمات السفير طابعاً مقدساً. ثم قال بلهجة أبوية: «سيدة تيريزا، للشرطة مهام عدة. المهمة الأولى كلاسيكية ومفادها أن يسمعوا ما يقوله الناس وينقلوه لرؤسائهم. والمهمة الثانية هي التهديد. يُظهرون لنا أنهم يضعوننا تحت رحمتهم ومرادهم أن نخاف. وهذا ما كان يبغىه رجالك الأصلع.

والمهمة الثالثة تعنى بإعداد مواقف يمكنها توريطنا. ما من أحد عاد يهتم بأن نتهم بالتأمر على النظام لأن هذا يزيد من تعاطف الناس معنا. لذلك، فهم يفضلون العثور على حشيشة في قعر جيوبنا أو أن يثبتوا بأننا اغتصبنا فتاة في الثانية عشرة. ويُحضرون صبية لتشهد على ذلك».

فتذكرت تيريزا المهندس. كيف يمكنها أن تفسر عدم رجوعه؟ كان السفير يتابع: «ينصبون للناس أفخاخاً ليستبعدوهم ويستغلوهم لنصب فخاخ للآخرين. وهكذا دوالياً، حتى يجعلوا شعباً بأكمله منظمة هائلة من المُخبرين».

لم تكن تيريزا تفكر إلا في شيء واحد، في أن المهندس مبعوث لها من قبل الشرطة. ولكن من يكون هذا الصبي الغريب الذي ذهب ليشمل في المقهى المقابل ومن ثم رجع ليعرف لها بالحب؟ فبسبب هذا الصبي خاصمها الشرطي وبادر المهندس إلى الدفاع عنها. ثلاثة إذاً لعبوا دوراً في سيناريو مُعدّ مسبقاً. وكل ذلك أُعدّ في سبيل أن تستلطف الرجل الذي تتصّر مهمته على أن يُغويها.

كيف أنها لم تفكّر في ذلك؟ ثم إن ذلك المسكن كان يوحى بالارتياح ولا يتناسب إطلاقاً مع هذا الشخص. فلماذا يقيم مهندس أنيق في مسكن بهذه الحقاره؟ فهو حقاً مهندس؟ كيف أمكنه إذاً أن يغيب عن عمله في الساعة الثانية من بعد الظهر؟ وهل في المستطاع تخيل مهندس يقرأ سوفوكليس؟ لا لم تكن المكتبة تلك تخصّ مهندساً. وهذه الغرفة كانت تشبه بالأحرى مسكنًا مصادراً لمثقف معدّ موجود حالياً في السجن. عندما كانت في العاشرة من عمرها أو قفوا أمامها وصادروا الشقة والمكتبة كلها. من يدرى لأي مأرب استعملوا الشقة فيما بعد؟

الآن، باتت تفهم بوضوح لماذا لم يعد ثانية. لأنه قد أنجز مهمته وأية مهمة؟ كان الشرطي الأصلع قد أوحى بها دون أن يدري عندما قال: «في الوقت الحاضر الدعاارة ممنوعة عندنا، لا تنسى هذا الأمر!» وذلك المهندس المزيف ربما سيشهد بأنها ضاجعته وأنها طلبت منه مالاً! سيهدّدونها بثاثرة فضيحة ويبيّنونها لتبليغ عن هؤلاء الذين يأتون إلى الحانة ليسكروا.

كان السفير يحاول طمأنتها: «مغامرتك لا تبدو لي خطيرة إلى الحد الذي تصورين».

فقالت تيريزا بصوت مخنوق: «ممکن». وخرجت مع كارنينا إلى شوارع براغ السوداء.

25

لكي نتحاشى العذاب نلجاً في أكثر الأحيان إلى المستقبل. فتصور أن ثمة فاصلاً ما على حلبة الزمن يتوقف بعد العذاب الحالي عن أن يكون موجوداً. ولكن تيريزا لم تكن ترى أن هذا الفاصل موجود إزاءها.. وكان الرجوع إلى الوراء وحده يجلب لها شيئاً من المؤاساة. كان نهار أحد آخر. ركبا السيارة ليذهبا في نزهة بعيداً عن براغ.

كان توماس وراء المقوود وتيريزا إلى جانبه وكارنينا على المقعد الخلفي. تمد أحياناً رأسها إلى الأمام لتلحس لهما آذانهما. في زهاء ساعتين وصلا إلى مدينة صغيرة مليئة بالمياه المعدنية. كانا قد أمضيا بضعة أيام فيها لخمس أو ست سنوات خلت. فرغبا في التوقف فيها لقضاء الليل.

أوقفا السيارة في الساحة، وترجلا منها. ما زالت المدينة كما كانت. في الجهة المقابلة الفندق الذي نزلوا فيه تلك السنة، وأيضاً شجرة الزيزفون القديمة أمام المدخل. على يسار الفندق تصطف قنطرة خشبية قديمة وفي نهايتها تناسب عين ماء في بركة رخامية. كان هناك أناس ينحون فوقها، كما في السابق، والأكواب في أيديهم.

كان توماس يشير إلى الفندق. ولكن هناك شيئاً ما تغير على أيام حال.. ففي السابق كان الفندق يُسمى «الفندق الكبير»، والآن صار اسمه استناداً إلى اللافتة «البيكار». ثم نظرت إلى اللائحة عند زاوية

المبني وقد كُتب عليها: «ساحة موسكو». فَجَالا معاً (كانت كارنيينا تبعهما وحدهما دون رَسَن) في كل الشوارع التي كانا يعرفانها وتفحصا الأسماء: شارع ستالينغراد وشارع لينينغراد، وشارع روستوف، وشارع نوفوسييرسك، وشارع كييف، وشارع أوديسا. وهناك دار تشايكوفסקי للنقاوه، ودار تولستوي للنقاوه، ودار ريمسكي كورساكوف للنقاوه، وهناك أيضاً فندق سوفوروف وسينما غوركي ومقهى بوشكين. كانت كل الأسماء مأخوذة من روسيا ومن التاريخ الروسي.

أخذت تيريزا تتذكر أيام الاجتياح الأولى. كان الناس يُخفون آنذاك اللافتات في كل الشوارع، في كل المدن، ويقتلعون من الطرقات الألواح المشيرة إلى الاتجاه. فأصبح البلد غير معروف في ليلة واحدة. كان الجيش الروسي يتسعّ في البلاد دون أن يعرف وجهته. وكان الضباط يفتّشون عن مباني الإعلام والتلفزيون والراديو ليحتلوها، لكن دون أن يتمكّنا من العثور عليها. وحين كانوا يسألون الناس عنها يهز هؤلاء الآخرون أكتافهم أو يدلّونهم على عناوين خاطئة وعلى اتجاه خاطئ.

ومع مرور السنوات، يبدو أنّ هذا التستر عاد بالضرر على البلاد. فلا الشوارع ولا البيوت تمكنت بعد ذلك من استعادة أسمائها الأصلية. وهكذا تحولت منطقة حمامات معدنية في بوهيميا، بين يوم وآخر، إلى روسيا خيالية مصغّرة. كانت تيريزا تكتشف إذاً أنّ الماضي الذي أتيا للتفتيش عنه هنا قد تمت مصادره. وكان يستحيل عليها البقاء لتمضية الليلة.

26

توجهها من جديد إلى السيارة صامتين. كانت تيريزا تقول في نفسها إنّ الأشياء كلها والناس كلهم يعرّفون عن أنفسهم متذكرين: كانت

المدينة القديمة بوهيميا قد اكتست بأسماء روسية. والتشيكيون الذين كانوا يلتقطون صوراً عن الاجتياح، كانوا يعملون دون أن يدرؤا لمصلحة الشرطة السرية الروسية. فالرجل الذي أرسلها إلى الموت كان مُقنئاً بقناع توماس، والمهندس كان يريد أن يلعب دور رجل «مون - دو - بير»، والكتاب في مسكنه كان رمزاً خادعاً وُجد هناك لتضليلها.

وإذ فكرت في الكتاب الذي أمسكته بيدها، مررت في خاطرها فكرة أحمر لها خداها خجلاً: كيف حدثت هذه الأمور؟ قال المهندس إنه ذاهب لاحضار القهوة، فاقتربت من المكتبة وانتزعت كتاب «أوديب» لسوفوكليس. ثم عاد المهندس لكن بدون قهوة.

كانت تقلب الموقف في جميع الاتجاهات: ترى، عندما ذهب متذرعاً بتحضير القهوة، كم من الوقت بقي هناك؟ لا شك أنه بقي دقيقة على الأقل أو دقيقتين وريما ثلاثة. ماذا يمكن أن يكون قد فعل كل هذا الوقت في مدخل صغير؟ هل ذهب إلى المرحاض؟ كانت تيريزا تحاول أن تذكر ما إذا كانت قد سمعت طرقة باب أو قرقرة من خزان الماء. لا، بالتأكيد لم تسمع الماء وإنما كانت تذكر ذلك. كانت على يقين تقريباً من أنها لم تسمع كذلك طرقة باب. إذاً ماذا كان يفعل في المدخل؟

وفجأة، انجلت الأمور لها تماماً: لم تكن شهادة المهندس وحدها كافية لإيقاعها في الفخ.. وإنما يجب إعطاؤهم دليلاً قاطعاً. فخلال هذا الغياب الطويل المشبوه ذهب المهندس ليضع كاميرا في المدخل. أو بشكل أفضل، من المحتمل أن يكون قد أدخل شخصاً يحمل آلة تصوير فاختبأ خلف الستارة وقام بتصويرهما.

منذ أسابيع قليلة كانت متعجبة من أن بروخازكا لم يكن يعرف أنه يعيش في معسكر اعتقال لا مكان للمرء فيه لأن تكون له حياة خاصة. لكن ماذا عنها هي؟ عندما رحلت عن بيت أمها، اعتقدت لسذاجتها

أنها أصبحت من الآن فصاعداً سيدة حياتها الخاصة. ولكن البيت الأمومي كان يمتد ليطال العالم كله ويدركها في كل مكان. كانت تيريزا غير قادرة على الإفلات منه أينما ذهبت.

نزل الدرج وسط الحدائق ليبلغوا الساحة حيث أوقفا السيارة.

«ما بكِ»، سألها توماس.

و قبل أن يتسعى لها الوقت للإجابة، ألقى أحدهم التحية على توماس.

27

كان الرجل فلاحاً في الخمسين غضنت الرح ووجهه. وكان توماس قد أجرى له قدّيماً عملية جراحية. ومنذ ذلك الوقت وهم يرسلونه كل سنة للاستشفاء في منطقة مياه معدنية. دعا توماس وتيريزا لشرب كأس. وبما أن الكلاب غير مسموح بها في الأماكن العامة، ذهبت تيريزا إذاً لتضع كارنيينا في السيارة. في خلال هذا الوقت جلس الرجلان في المقهى لانتظارها. عندما رجعت كان الفلاح يقول: «عندنا، كل شيء هادئ. حتى أنهم انتخبواني رئيساً للتعاونية من ستين». .

قال توماس: «تهانينا».

- «كما تعرفون، هنالك الريف، والجميع يغادرون. وفي الجبال، يعتبرون أنفسهم محظوظين فيما لو قبل أحد بالبقاء عندهم. ليس في إمكانهم السماح لأنفسهم بطردنا من عملنا».

قالت تيريزا: «سيكون إذاً المكان الأمثل لنا».

- «ولكنك هناك ستضجرين يا سيدتي الصغيرة.. هناك لا شيء، لا شيء إطلاقاً».

كانت تيريزا تنظر إلى الوجه الذي غضنته الربيع. كانت تستلطف كثيراً هذا الفلاح. وأخيراً وبعد وقت طويل، وجدت أحداً ما تستلطفه! وللحال انبثقت لوحة ريفية أمام نظرها: قرية وقبة جرس وحقول وغابات وأربن بري ينسحب مسرعاً من أحد الأثلام وخفير للصيد يلبس قبعة خضراء. لم يسبق لها أن عاشت في الريف. كان الريف صورة رسمها خيالها من خلال الأحاديث أو من خلال قراءاتها. أو ربما حفرها أجداد بعيدون في شعورها الباطن. ومع ذلك فإن هذه الصورة كانت واضحة في داخلها ونقية مثل صورة أم الجدة في ألبوم عائلي أو مثل محفورة قديمة.

سأل توماس: «هل ما زلت تشعر بالألم؟».

فَدَلَّ الفلاح على موضع خلف عنقه حيث تتصل الجمجمة بالعمود الفقري وقال: «أشعر أحياناً بألم في هذا المكان».

تحسس توماس المكان الذي أشار إليه مريضه القديم، دون أن ينهض عن كرسيه، طارحاً عليه بعض الأسنان. ثم قال: «لم يعد يحق لي أن أكتب لك وصفات. ولكن عند عودتك قل لطبيبك إنك تحدثت معي وإنني أمرتك بأن تأخذ هذا الدواء». ثم أخرج مذكرة من جيده الداخلي وانزع ورقة منها، ثم كتب عليها اسم الدواء بأحرف كبيرة.

28

كانا يسيران باتجاه براغ.

كانت تيريزا تفكك في الصورة حيث كان جسدها عارياً بين ذراعي المهندس. فبدأت تحاول أن تتحرر من قلقها: حتى ولو سلمت بأن هذه الصورة موجودة فعلاً، فلن تستنى لتوماس رؤيتها. لأن الصورة لا تخدم هؤلاء الناس في شيء إلا إذا استعملوها كورقة ابتزاز لتيريزا. مما يعني أن هذه الصورة إن أرسلت إلى توماس تفقد كل قيمتها في الحال.

ولكن ماذا سيحدث لو أن رجال الشرطة قرروا ألا يهتموا بأمر تيريزا مطلقاً؟ في هذه الحالة، ستتصير الصورة وسيلة جيدة للمزاح. وإن عنَّ على بال أحدهم وضعها في ظرف وإرسالها على سبيل المزاح إلى عنوان توماس، فلن يمنعه أحد من ذلك.

وماذا سيحصل لو أنَّ توماس تلقى مثل هذه الصورة. هل سيطردَها خارجاً؟ ربما لا. أو على الأصح لا. ولكن صرح حبهما الهش سوف ينهار تماماً لأنَّه مرتکز على العمود الوحيد لوفائهما. وعلاقات الحب هي مثل الإمبراطوريات، ما إن يختفي المبدأ الذي بُنيت على أساسه حتى تخفي معه أيضاً.

كانت هناك صورة مائلة أمام عينيهما: صورة الأرنب البري وهو ينسحب مسرعاً من ثلم وخفير صيد بقبعة خضراء وجرس كنيسة في أعلى الغابة.

كانت تودَ أن تقول لتوماس إنَّ عليهما ترك براغ بعيداً، بعيداً عن الأطفال الذين يدفنون طيور الزاغ أحياء، بعيداً عن الشرطة، بعيداً عن الفتياط المسلاحات بالمظللات. كانت تودَ أن تقول له إنه يجب عليها الانتقال للعيش في الريف، وإن في هذا طريق خلاصهما.

التفتت نحوه. ولكن توماس كان صامتاً وعيناه شاخصتان إلى الطريق الممتد أمامه.. كانت عاجزة عن اختراف سور الصمت الذي يعلو بينهما. وفي الحالة نفسها التي كانت عليها عندما كانت تنزل من «مون - دو - ببير»: كانت تشعر بتشنج في معدتها وبرغبة في التقيؤ. كان توماس يشير فيها الذعر فهو أقوى منها بكثير وهي أضعف منه بكثير. وكان ي ملي عليها أوامر لا تفهمها. وهي تحاول جاهدة تنفيذها ولكنها لم تكن تعرف كيف تصرف.

كانت تزيد الرجوع إلى «مون - دو - ببير» والطلب من الرجل

صاحب البن دقية أن يسمح لها بعصب عينيها، والاستناد إلى جذع شجرة الكستناء. كانت راغبة في الموت.

29

استيقظت فوجدت أنها وحدها في البيت.

خرجت ومشت باتجاه الشوارع التي تحاذى نهر الفلتافا. كانت راغبة في رؤية النهر والتوقف عند الضفة والنظر طويلاً إلى الماء. لأن رؤية الماء الجاري تهدئ وتشفي. النهر يجري عبر القرون وقصص الناس لا تنفك تحدث على ضفافه، ولكنها ما إن تحدث حتى تنسى في اليوم التالي والنهر لا يتوقف عن الجريان.

كانت تنظر إلى الأسفل متكتنة إلى الدرابزين. كانت هذه أطراف بраг حين يجتاز النهر المدينة تاركاً وراءه روعة «هردخين» والكنائس: كان النهر هناك يشبه ممثلة بعد انتهاء العرض المسرحي منهكة وسامحة البال. كانت المياه تسيل وسط ضفاف متسخة محاطة بأسياج وبحيطان توجد خلفها مصانع وملاعب مهجورة.

نظرت طويلاً إلى الماء الذي يبدو في هذا المكان أكثر حزناً وأكثر قتامة. ثم لمحت فجأة شيئاً غريباً وسط النهر، أحمر، نعم، إنه مقعد. مقعد خشبي أرجله معدنية كتلك المقاعد التي يوجد منها بكثرة في حدائق بраг العامة. كان يعوم ببطء في وسط نهر الفلتافا ويعوم خلفه مقعد ثالث ومقعد رابع. ففهمت تيريزا أخيراً أنها كانت ترى مقاعد الحدائق العامة في بраг تغادر المدينة منجرفة مع تيار الماء. كان هناك الكثير منها ودائماً بتزايد. كانت تسبح فوق الماء مثل أوراق الخريف حين تحملها المياه بعيداً عن الغابات. كان منها الأحمر والأصفر والأزرق.

استدارت تريد أن تسأل الناس ما معنى الذي يجري. تسألهم لماذا

كانت مقاعد الحدائق العامة في براغ تغادر مع التيار؟ ولكن الناس كانوا يمرون أمامها لامبالين. فسيان عندهم أن يجري النهر عبر القرون في وسط مدinetهم الزائلة.

أخذت تتأمل الماء من جديد. كانت تشعر بحزن لامتناؤ وتدرك أن هذا المشهد كان بمثابة وداع، وداع من الحياة التي تغادر مع موكب ألوانها.

كانت المقاعد قد توارت عن مدى رؤيتها. ولكنها رأت أيضاً بضعة مقاعد أخيرة متخلفة عن الأخرى. ثم رأت أيضاً مقعداً أصفر وواحداً أزرق، كان الأخير.

القسم الخامس

الخفة والثقل

1

عندما جاءت تيريزا إلى توماس في بраг، على غير انتظار، تضاجعا للحال في اليوم نفسه، كما سبق أن قلت في القسم الأول، ولكنها فيما بعد أصابتها الحمى. كانت ممددة على سريره وكان جالساً قربها وهو مقتنع بأنها طفل وضع في سلة وأرسل مع مجرى المياه. ومنذ ذلك الحين وهو يهوى صورة الولد اللقيط هذه، ويفكر دائمًا في الخرافات القديمة التي تظهر فيها هذه الصورة. ربما هنا يكمن الحافز الخفي الذي دفعه إلى الذهاب للتفتيش عن ترجمة «أوديب» لسوفوكليس.

قصة «أوديب» معروفة جدًا: ومفادها أن راعيًّا عثر على لقيط رضيع فحمله إلى الملك بوليب فاحتضنه. عندما كبر «أوديب» صادف على درب جبلية عربة كان يسافر فيها أمير مجهول. فتخاصصا وقتل «أوديب» الأمير. فيما بعد، تزوج من الملكة جوكاست وأصبح ملکاً على «طيبة». لم يكن يعلم أن الرجل الذي قتله في الماضي في الجبال كان أبيه وأن المرأة التي يضاجعها كانت أمه. في غضون ذلك، كانت المصائب تنزل بأبناء رعيته وتُثقل كاهلهم بالأمراض. وعندما فهم

«أوديب» أنه هو نفسه كان المسؤول عن عذاباتهم، فقاً عينيه بالدبابيس
وغادر «طيبة» إلى الأبد.

2

هؤلاء الذين يعتقدون أنَّ الأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية هي فقط من صنع مجرمين، فإنهم يغفلون حقيقة أساسية: الأنظمة المجرمة لم ينشئها أناس مجرمون وإنما أناس متحمسون ومُقتنعون بأنهم وجدوا الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى الجنة. فأخذوا يدافعون ببسالة عن هذا الطريق، ومن أجل هذا قاموا بإعدام الكثيرين. ثم، فيما بعد، أصبح جلياً واضحاً أكثر من نور النهار، أنَّ الجنة ليست موجودة وأنَّ المتحمسين كانوا إذاً مجرد سفاحين.

عندئذ، أخذ كل واحد يقوم بمحاجمة الشيوعيين قائلاً: «أنتم المسؤولون عن مصائب هذا البلد (فهو معوزٌ ومفلس) وعن خسارته لاستقلاله (فهو واقع تحت سيطرة الروس) وعن الجرائم القضائية!».

أما المتهمون فكانوا يجيبون: لم نكن عارفين! لقد خُدعنا! كنا مؤمنين بالقضية! نحن أبرياء في قراره قلوبنا.

كان الجدال يتمحور حول هذا السؤال: هل كان صحيحاً أنهم لم يكونوا عارفين؟ أم أنهم كانوا يتظاهرون فقط بأنهم غير عارفين؟

كان توماس يتبع هذا الجدال (كحال عشرة ملايين من التشيكيين) وكان يفكر في أنه يوجد بالتأكيد بين الشيوعيين أناس لم يكونوا على أية حال جاهلين إلى هذا الحد (كان يفترض بهم على الأقل أن يكونوا قد سمعوا الكلام على الفظائع التي ارتكبت والتي لا تزال تُرتكب في روسيا ما بعد الثورة). ولكن كان من المحتمل أيضاً ألا تكون أغلبيتهم مطلعة فعلاً على مجريات الأمور.

وكان يفكر أنَّ السؤال الأساسي ليس: هل كانوا عارفين؟ بل: هل هم أبرياء لأنهم غير عارفين؟ أيكون الغبي الجالس على العرش منزه عن كل مسؤولية فقط لأنه غبي؟

فلنُسلِّم جدلاً بأنَّ القاضي التشيكي الذي كان يطالب، في بداية الخمسينات، بعقوبة الإعدام لرجل بريء، لنُسلِّم أنه كان مخدوعاً من الشرطة الروسية السرية ومن نظام بلاده. ولكن الآن، قد عرف الجميع أنَّ التهم باطلة وأنَّ المحكومين أبرياء، كيف بإمكان القاضي نفسه أن يحتشد للدفاع عن براءة ذمته وأن يلطم صدره قائلاً: ضميري لا تشويه شائبة، لم أكن أعرف هكذا كنت أعتقد! ولكن ألا تكمن غلطته التي لا تعوض هنا بقوله: «لم أكن عارفاً، هكذا كنت أعتقد!»؟.

عندما تذكر توماس حكاية أوديب، أوديب أيضاً لم يكن عارفاً بأنه يضاجع أمه، ومع ذلك فإنه عندما عرف بالأمر لم يجد نفسه بريئاً. ولم يستطع تحمل مشهد الشقاء الذي سببه جهله ففقاً عينيه وغادر «طيبة» وهو أعمى.

كان توماس يسمع زعيق الشيوعيين وهم يدافعون عن براءة ذمتهم، ويفكر: بسبب جهلكم فقد هذا البلد حريته لقرون عديدة مقبلة وتزعقون قائلين إنكم أبرياء؟ كيف تجرؤون بعد على النظر حواليك؟ كيف، ألم تصابوا بالهلع؟ أوليس لكم عيون لتتصروا! لو كانت لكم عيون حقاً لكتتم فقاموها وغادرتم «طيبة»!

كانت هذه المقارنة تروق له إلى حد أنه كان يستعملها مراراً في أحاديثه مع أصدقائه، وكان يعبر عنها بعبارات أكثر لذعاً وأكثر فصاحة. كان يقرأ في تلك الفترة، مثل كل المثقفين، مجلة أسبوعية يطبع منها ثلاثة نسخة وينشرها اتحاد الكتاب التشيكيين الذي اكتسب استقلالاً ذاتياً لا يُستهان به في ظل النظام والذي كان يتكلم أشياء لا يجرؤ الآخرون على التفوّه بها علانية. كانت المجلة الخاصة بهؤلاء

الكتاب تنشر مقالات يسألون فيها أسئلة على نمط «من هو المذنب، أو إلى أي حد ارتكبت جرائم قضائية خلال المحاكمات السياسية في السنوات الأولى للنظام الشيوعي؟»

كان السؤال ذاته يتكرر دائمًا في كل هذه المجادلات وهو: هل كانوا عارفين أم لم يكونوا عارفين؟ وما أن توماس كان يعتبر هذه المسألة ثانوية، كتب في ذات يوم خواطره عن أوديب وأرسلها إلى المجلة الأسبوعية. بعد شهر تلقى جواباً من مسؤولي المجلة يتولون إليه أن يمر بمكتب التحرير. وعندما ذهب إلى هناك، استقبله صحافي قصیر القامة وفي غاية الاستقامة. ثم اقترح عليه أن يغير من تركيبة إحدى الجمل. وظهر المقال فيما بعد في الصفحة ما قبل الأخيرة في زاوية «رسائل القراء».

لم يكن توماس راضياً إطلاقاً عن المقال. كانوا قد ارتأوا استدعاه إلى المجلة لكي يجعلوه يوافق على تغيير في تركيبة إحدى الجمل، ولكنهم اقتطعوا جزءاً كبيراً من المقال، فصارت خواطره تقتصر على فكرة رئيسية (مبسطة أكثر مما ينبغي وتعسفية) ولم تعد تعجبه إطلاقاً.

حدث ذلك أثناء ربيع 1968. كان ألكسندر دوبتشك مستلماً سدة الحكم ومحيطاً بالشيوعيين الذين كانوا يحسون أنهم مذنبون ومستعدون لعمل شيء ما من أجل إصلاح خطئهم. ولكن الشيوعيين الآخرين الذين كانوا يزعرون بأنهم أبرياء، كانوا خائفين من أن يحيلهم الشعب الغاضب إلى المحاكمة. وكانوا يذهبون كل يوم ليشكوا أمرهم إلى السفير الروسي ويستجدوا دعمه. وعندما نُشرت رسالة توماس، أطلق هؤلاء الصرخة: هل وصل الأمر إلى هذا الحد! يتجرأون على الكتابة علانية بأنه يجب فقه عيوننا!

بعد شهرين أو ثلاثة قرر الروس عدم السماح بالجدال الحرّ في المناطق التابعة لهم واحتلّ جيشهم في غضون ليلة واحدة بلد توماس.

كان توماس بعد رجوعه من زوريخ قد وجد وظيفة له في المستشفى نفسه الذي كان يعمل فيه في براغ. ولكن، بعد قليل من الوقت استدعاه رئيس القسم.

قال له: «يا زميلي العزيز، في النتيجة أنت لست كاتباً ولا صحافياً، لست منقذ الشعب، بل أنت طبيب ورجل علم. وأنا لا أود أن أخسرك وسأفعل كل ما في وسعي للاحتفاظ بك هنا. ولكنني أرى أنه يجب أن ترجع عن هذا المقال الذي كتبته بخصوص «أوديب». هل أنت متمسك به إلى حد بعيد؟».

فقال توماس وهو يتذكر أنَّ ثلث مقالاته قد اقتُطع: «أستاذي، إنه آخر شيء يمكن أن أتمسك به في هذا العالم».

قال رئيس القسم: «هل لديك فكرة عن مجريات الأمور؟».

كان يدرك أنَّ هناك أمرين في الميزان: من جهة شرفه (الذي كان يقضي بـألا يتراجع عما كتبه) ومن جهة ثانية هناك الأمر الذي تعود على اعتباره هدف حياته (أي عمله كرجل علم وطبيب).

أردف رئيس القسم: «تلك عادة قروسطية أن نفرض على رجل ما أن يرجع عن كلامه. لكن ماذا تعني عبارة «رجوع عن كلامه»؟ في أيامنا هذه، ليس في إمكاننا أن نرجع عن قول فكرة، بل في إمكاننا فقط أن ننقضها من الأساس. وبما أنَّ الرجوع عن الكلام أمر مستحيل يا زميلي العزيز، لا بل كلامي بحث وشكلي ووهمي وسحري، فلأنِّي لا أفهم لماذا لا تنفذ لهم ما يطلبون منك. ففي مجتمع يحكمه الإرهاب، لا قيمة للبيانات، فهي مأخوذة بالابتزاز والإكراه! لذلك يجدر برجل شريف ألا يغيرها اهتماماً وألا يصفي إليها. أقول لك ذلك يا زميلي

العزيز من أجل مصلحتي ومصلحة مرضاك. يجب أن تبقى في وظيفتك».

فقال توماس والتعasse تبدو على وجهه: «أستاذِي، من المؤكد أنك محق في ما تقول».

- «ولكن؟» قال رئيسِ القسم وهو يجهد لقراءة أفكاره.

- أنا خائف من أن أشعر بالخجل؟

- لكن من؟ أتولي اعتباراً كبيراً للناس الذين يحيطون بك حتى تهتم بما يفكرون؟

- «لا»، قال توماس. «لا أتولي اعتباراً كبيراً للناس».

أضاف رئيسِ القسم: «على كل حال، لقد أكدوا لي أن الإفادة لن تكون علنية. فهم بيروقراطيون ويحتاجون إلى أن يضعوا في ملفاتهم شيئاً يثبت أنك لست ضد النظام. وهذا ليتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم في حال أخذَ عليهم إيقاؤك في وظيفتك. لقد وعدوني بأن تبقى إفادتك سراً بينك وبين السلطات، دون أن تكون لهم نية في نشرها».

فقال توماس مُنهياً الحديث: «أعطني مهلة أسبوع لأفكر».

4

كان توماس يُعدُّ أفضل جراح في المستشفى. وكان يُشاع أن رئيس الخدمة الذي كان يقترب من سن التقاعد، سيترك له منصبه عما قريب. وعندما سرَّ الخبر بأنَّ السلطات العليا كانت تفرض عليه تقديم إفادة نقد ذاتية، لم يشك أحد في أنه سيتمثل للأمر.

وهذا أول أمر فاجأه: أن يراهن الجميع على عدم استقامته مع أنه لم يقم بشيء يبرهن على صحة هذا الافتراض، بدلَ أن يُراهنوا على استقامته.

والشيء الآخر هو رد فعلهم أمام تصرفه المفترض. ويمكنني بالإجمال أن أقسم رد الفعل إلى فتدين:

فالنموذج الأول لرد الفعل يتضمن هؤلاء الذين كانوا هم أنفسهم (هم أو أقاربهم) قد تنكروا لشيء ما، والذين أجبروا على التصريح علانية أنهم على وفاق مع نظام الاحتلال، أو هؤلاء الذين كانوا يتحضرون للقيام بذلك (على مضض طبعاً، لأن أحداً لا يقوم بذلك عن طيبة خاطر).

كان هؤلاء الناس بالذات يوجهون إليه ابتسامة غريبة لم يكن له عهد بها من قبل: الابتسامة الخجولة لتواطؤ سري، كمثل ابتسامة رجلين يتلاقيان صدفة في المبغى فيعتبريهما في البداية شعور بالخجل. ولكنهما فيما بعد يُسران لكون شعورهما بالخجل متبدلاً، فينشأ بينهما ما يسمى رابطاً أخوياً.

كانوا يتسمون له بتحبّب متزايد لا سيما وأنه لم يكن يُعد امتدالياً في وقت من الأوقات. لذلك، ستكون موافقته المفترضة على عرض رئيس القسم شاهداً على أن العجين آخذ في أن يتحول ببطء ولكن يقين إلى عادة في السلوك. وسيكفت بعد وقت قصير عن أن يُحسب كذلك. فأدرك توماس بشيء من الヘル أنه لو كتب حقاً هذه الإفادة التي يملونها عليه، لا شك في أنهم عندئذ سيدعونه لتناول كأس في بيتهم وسيسعون إلى اكتساب صداقته.

أما النموذج الثاني لرد الفعل فيتضمن هؤلاء الذين كانوا هم أنفسهم (هم أو أقاربهم) مضطهدين والذين كانوا يرفضون الموافقة على أية مساومة مع السلطة المحتلة، أو هؤلاء الذين لم يكن أحد ليطالعهم بمساومة أو بإفادة (ربما لأنهم كانوا صغاراً في السن ولهم يكونوا بعد قد تورّطوا في شيء) لأن لا أحد كان مقتنعاً بأنهم سيقبلون بذلك.

س... هو أحد هؤلاء وهو طبيب شاب ومتفوق فضلاً عن ذلك... سأله توماس ذات يوم: «ماذا، هل كتبت لهم «ذاك الشيء؟».

- «عمّ تتكلّم، لو سمعت؟».

- «عن رجوعك عما قلته»، قال س... ولم يكن يقول ذلك عن خبث بل حتى أنه كان يبتسّم. وكانت هذه الابتسامة مختلفة تماماً عن أنواع الابتسamas الأخرى، ابتسامة الفوقيّة الأخلاقية الراضية عن نفسها.

قال توماس: «اسمع، ماذا تعرف بشأن إفادـة الرجـوع عـما قـلتـه؟ هل قـرأـتها؟».

- «لا»، أجاب س... .

فقال توماس: «عمّ تتحدّث إـذـا؟».

كان س... يبتسّم الابتسامة الراضية نفسها: «هـيا، نـعـرـفـ كـيـفـ تـجـريـ الأـمـورـ. فـهـذـهـ الإـفـادـاتـ تـكـتـبـ عـلـىـ شـكـلـ رسـالـةـ مـوـجـهـةـ إـلـىـ المـدـيرـ أوـ إـلـىـ الـوـزـيرـ أوـ إـلـىـ تـارـمـيـبـيـوـنـ الذـيـ يـعـدـ بـأـنـ الرـسـالـةـ لـنـ تـشـرـكـ كـيـ لاـ يـشـعـرـ كـاتـبـهاـ بـالـمـذـلـةـ. هـذـهـ هـيـ الـحـالـ، أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟».

رفع توماس كتفيه مستهزئاً وانتظر أن يُكمل.

«وبـعـدـ ذـلـكـ، تـُوـضـعـ الإـفـادـةـ فـيـ المـلـفـ، وـلـكـ كـاتـبـهاـ يـعـرـفـ أـنـ يـامـكـانـهـ أـنـ يـشـرـوـهـاـ فـيـ أـيـةـ لـحـظـةـ. مـنـ هـنـاـ، فـإـنـهـ لـنـ يـعـودـ يـامـكـانـهـ أـنـ يـقـولـ شـيـئـاـ وـلـاـ أـنـ يـنـتـقـدـ أـيـ أـمـرـ وـلـاـ أـنـ يـعـارـضـ، لـأـنـ إـفـادـتـهـ سـتـنـشـرـ حـيـنـتـذـ وـسـيـقـتـضـحـ أـمـرـهـ أـمـرـ الجـمـيعـ. وـفـيـ نـهـاـيـةـ الـأـمـرـ، إـنـهـ طـرـيـقـةـ لـطـيفـةـ نـوـعـاـ مـاـ. فـبـالـإـمـكـانـ تـصـوـرـ طـرـقـ أـسـوـاـ مـنـهـ بـكـثـيرـ».

قال توماس: «أـجلـ، تـلـكـ طـرـيـقـةـ لـطـيفـةـ جـداـ. وـلـكـنـ مـتـشـوقـ كـثـيرـاـ لـأـعـرـفـ مـنـ قـالـ لـكـ إـنـيـ وـاقـعـتـ».

رفع الزميل كتفيه هازناً ولكن الابتسامة لم تتلاشَ عن وجهه.

فَقَهُمْ توماسَ أَمْرًا غَرِيبًا. لقد كان «الجميع» يبتسمون له، وكان «الجميع» يتمنون أن يكتب إفادته، لأنَّه لو رجع عن كلامه فسيُدخل السرور إلى قلوب الجميع. كان بعضهم مغتبطين لأنَّ تصخُّم الجُنُب يعمّ سلوكيَّهم الخاص ويُرجع لهم الشرف المفقود. وكان آخرون قد اعتادوا على أن يجدوا شرفهم امتيازًا خاصًا لا ينبعون التخلُّي عنه مطلقاً. لذلك، فإنَّهم يكتُّنون للجبناء محبة سرية، فلو لاهم لما كانت شجاعتهم إلَّا مجرد جهُلٍ غير مجيد وغير مثير للإعجاب.

لم يكن توماس قادرًا على تحمل هذه الابتسامات، وكان يتخيل أنها تلاحمه في كل مكان، وحتى على وجوه المارة المجهولين في الشارع. كما وأنَّه لم يعد قادرًا على النوم. ماذا؟ هل كان يعيَّر هؤلاء الناس أهمية إلى هذا الحد؟ إطلاقًا. فهو لم يكن يبالي بأمرهم وكان يأخذ على نفسه أنه سمح لنظراتهم بأن تشوش على أفكاره. فهل يمكن لمن كان لا يقيِّم أي اعتبار للأخرين أن يجعل مصيره مرتبطًا إلى حدٍ بعيد بحكم الآخرين عليه؟

ربما ارتياه المتأصل بالناس (أي شَكَّه فيما يختص بحقهم في تقرير مصيره أو الحكم عليه) قد لعب دوراً في اختياره لمهنة ثُثنيه عن أن يكون قبلة الأنظار. فذلك الذي يختار مثلاً مهنة الرجل السياسي يجعل عن طواعية من الجمهور حَكَماً عليه مؤمناً إيماناً ساذجاً وصريحاً بأنَّ عليه أن يكسب ودَه. وكما أنَّ احتمال معاداة الجموع له يحثه بالتالي على القيام بالعائر أكثر فأكثر تطلبًا، كذلك فإنَّ صعوبة تشخيص مرض ما تُثِيرُ توماس بالطريقة نفسها.

إنَّ الطيب (بخلاف الرجل السياسي أو الممثل) لا يُحكم عليه إلا مرضاه وزملاؤه المقربون، وهؤلاء يحكمون عليه مباشرة وصراحة دون وسائلٍ وبين أربعة حيطان. وهو يمكنه، في مواجهته لعيون هؤلاء الذين يحكمون عليه، أن يردُّ مباشرة وأن يوضح رأيه مدافعاً عن

نفسه. ولكن توماس الآن (وللمرة الأولى في حياته) كان يجد نفسه محظ أنظار كثيرة لا عد لها ولا يستطيع إحصاءها. وهو حيالها لم يكن يستطيع أن يردد لا بنظراته ولا بكلمات، بل كان متربكاً تحت رحمتها. كانوا يتحدثون عنه في كل مكان، في المستشفى وخارج المستشفى (فبراغ كانت تعيش على أعصابها، وكانت أخبار هؤلاء الذين يستسلمون ويُشنون ويتعاونون مع النظام تنتشر بسرعة مدهشة مشابهة لسرعة قرع الطبول الأفريقية)، وكان يعرف هذا الأمر دون أن يستطيع القيام بشيء حياله. كان هو نفسه مدهوشًا من رؤيته إلى أي حد كان هذا غير محتمل، وفي أي ذعر يغرقه. كان الاهتمام الذي يوليه إياه الجميع يجعله معتكر المزاج كمثل تدافع حشود أو كمثل التلامس مع أشخاص ينزعون عنًا ثيابنا في كابوس.

ذهب للقاء رئيس القسم وأبلغه أنه لن يوقع على شيء.

شد رئيس القسم على يده بقوة أكبر من المعتاد بكثير، وقال إنه كان يتوقع منه أن يتخذ هذا القرار.

فقال توماس: «أستاذي، ربما بإمكانك أن تُبقيني في عملي حتى ولو لم أعطِ إفادتي». وكأنه كان يوذ أن يلمح له بأنه يكفي، في حال أُجبر على الرحيل، أن يهدد جميع زملائه بتقديم استقالاتهم.

ولكن أحداً لم يفكر في التلويع باستقالته. وكان توماس مضطراً بعد ذلك بوقت قصير، (شد رئيس القسم على يده بقوة أكبر مما في المرة السابقة، إلى درجة أن جلد يده صار ممزقاً) إلى ترك منصبه في المستشفى.

5

وجد، أول الأمر، عملاً له في عبادة ريفية تقع على بعد أربعة

وعشرين كيلومتراً من براغ. كان يذهب إليها كل يوم بالقطار ويعود منهكاً من التعب. ثم بعد مرور سنة، وُفق إلى إيجاد عمل له أكثر راحة ولكن غير هام البتة، في مستوصف في الضواحي. هناك، لم يعد يستطيع أن يكرّس نفسه للجراحة بل كان يعمل كطبيب عام. كانت صالة الانتظار تكتظ بالمرضى، وكان بالكاد يستطيع أن يخصص خمس دقائق لكلّ مريض. كان يصف لهم حبوباً من الأسبيرين أو يكتب شهادات مَرضية ليقدموها لأرباب عملهم، أو يرسلهم لاستشارة أطباء في الأقسام المختصة. وهكذا لم يعد يعتبر نفسه طبيباً بل موظفاً في مكتب.

ثم، في ذات يوم، وعند انتهاء الخدمة، جاء لزيارته رجل خمسيني كانت تمنحه سمنته مظهراً جدياً. عرف الرجل عن نفسه بصفته رئيس دائرة في وزارة الداخلية. ثم دعا توماس للجلوس في المقهي المقابل.

طلب قنينة نبيذ فاعتراض توماس قائلاً: «أقود سيارة وإذا أوقفتني الشرطة، ستأخذ مني رخصة السير». عندئذ ابتسם رجل وزارة الداخلية: «وإذا حدث لك شيء، يمكنك ذكر اسمي»، ثم أعطى توماس بطاقة كتب عليها اسمه (المزيف طبعاً) ورقم هاتف الوزارة.

ثم استفاض يشرح لتوماس عن مقدار الاحترام الذي يكتبه له. فالجميع في الوزارة ليسوا راضين على أن تقتصر مهمته جراح في مثل مكانته، على وصف حبوب الأسبيرين في مستوصف في الضاحية. وأفهمه أيضاً بطريقة غير مباشرة بأنّ الشرطة، وإن لم تكن تستطيع التصرّح عن ذلك، كانت تأسف لطرد الاختصاصيين من مناصبهم بمثل هذه الوقاحة.

وبما أنّ زمناً طويلاً قد مرّ ولم يسمع توماس أحداً يُحسن الثناء

عليه، فإنه كان يستمع إذاً بانتباه كلي إلى الرجل القصير المتكرّش؟ ويكتشف لدهشه أنه كان مطلاً كلياً وبالتفاصيل على نجاحاته في حقل الجراحة. لكم نحن ضعفاء أمام المدعي! لم يكن في مستطاع توamas لجم نفسه عن أن يأخذ على محمل الجد ما كان يقوله رجل الوزارة.

ولكن ذلك لم يكن بسبب الغرور فقط بل، خاصةً، لأنعدام الخبرة. فحين يجد المرء نفسه في حضرة شخص متعدد ومراوغ ومؤدب، يصعب عليه كثيراً أن يقنع نفسه في كل دقيقة بأن لا شيء مما كان يقوله صحيح، أو أن لا شيء حقيقي. ولكي ينجح في «الآيةصدق» (بطريقة مستمرة وجذرية ومن دون دقيقة تردد) يلزمـه جهد خارق وتدريب أيضاً، أي محاضر استجواب بوليسيـة متكررة. وهذا التدريب تحديداً هو ما يفتقر إليه توamas.

ثم تابع رجل الوزارة: «دكتور، نعرف أنَّ مركزك كان رفيعاً في زوريـخ. ونحن نقدر كثيراً رجوعك إلى هنا. تلك مبادرة جيدة من قـبلك. فأنت تعرف أن مكانك هنا». ثم أضاف وكأنه يريد توجيه ملامـة توamas «ولكن مكانك الحقيقي في غرفة العمليات!». فقال توamas: «أشاطرك الرأـي».

بعد صمت قليل، أردـف الرجل بصوت يُدمي الفؤاد: «ولـكن، قـل لي يا دكتور، أفي اعتقادك حقاً أنه يجب فـقـء عيون الشـيوـعـين؟ ألا ترى أنه أمر مستغرب أن يكون هذا الكلام صادرـاً عنك أنت بالذات؟ أنت الذي أرجـعت العافية لأنـاس كثـيرـين؟».

فاعتـرض توamas قائلاً: «ولـكن هذا لا معنى له. اقرأ جيدـاً ما كـتـبـتـ». .

قال رجل الـوزـارة بـلهـجـة تـفـتـعلـ الأـسـفـ: «ـقـرـأـتهـ».

ـ وهـلـ ثـرـانـيـ كـتـبـتـ أنهـ يـجـبـ فـقـءـ عـيـوـنـ الشـيوـعـينـ؟

فقال رجل الوزارة وصوته يزداد تحسراً: «هذا ما فهمه الجميع».

- لو أنك قرأت النص كاملاً، كما كنت قد كتبته، لما أمكنك قط
أن تفكّر في شيء مماثل. لقد اختصر النص قليلاً..

فقال رجل الوزارة وقد أرهف السمع: «ماذا؟ ألم ينشروا مقالك
كما كتبته؟».

- اختصروا منه.

- كثيراً؟

- الثالث تقريباً.

كان رجل الوزارة يبدو وكأنه صادق في سخطه: «واضح أن هذا
لم يكن نزيهاً من قبلهم».

هزّ توماس كتفيه هازتاً.

- كان يفترض بك أن تدافع عن حقوقك! كان يفترض بك أن
تطالب فوراً بتصويب ما!

فقال توماس: «ماذا تريدني أن أفعل! قديم الروس بعد ذلك بوقت
قصير، فانشغل الجميع بهموم أخرى».

- لكن لماذا تجعل الآخرين يعتقدون بأنّ طبيباً في مكانتك يتمثّل
أن يفقد أناس معيتون بصارهم؟

- مهلاً! لقد ظهر مقالٍ في مكان ما في آخر المجلة وسط رسائل
أخرى. وهو لم يشر انتباه أحد، إلا السفارة الروسية، طبعاً لأن ذلك
كان يتوافق مع رغباتهم.

- لا تقل هذا يا دكتور! لقد تجادلت بنفسي مع أناس كثيرين
حدثوني عن مقالك وكانوا كلهم مدحشين من أن تكون قادراً على
كتابته. ولكن عندما قلت لي إنّ مقالك لم ينشر بالضبط كما كتبته،

صار كل شيء أكثر وضوحاً بالنسبة لي. هل أوحوا لك إذاً بكتابته؟

قال توماس: «لا ، أرسلته من تلقاء ذاتي».

- هل كنت على معرفة بهؤلاء الناس؟

- أيهم؟

- هؤلاء الذين نشروا مقالك.

- لا.

- ألم تكلمهم من قبل؟

- لم أرهم سوى مرة واحدة. عندما طلبوا مني أن أمرّ بقسم التحرير.

- ولأي غرض؟

- بسبب ذاك المقال.

- ومع من تحدثت؟

- مع صحافي.

- وما كان اسمه؟

أدرك توماس أخيراً أن هذا كان استجواباً. فقال في نفسه إنَّ كلمة واحدة يقولها يمكنها أن تضع أحدهم في خطر. كان يعرف بكل تأكيد اسم الصحافي ولكنه أنكر: «لا أعرف».

فقال الرجل بنبرة مفعمة بالسخط على انعدام الصدق هذا: «ولكن هيئا يا دكتور! يفترض به أن يكون قد عرف عن نفسه!».

إنه لمن المضحك - المبكي أن تصير أخلاقنا الحسنة بالتحديد في صالح الشرطة، والسبب أننا لم نتعلم الكذب. فصيغة الأمر: «قل الحقيقة!» التي رستخها آباءنا وأمهاتنا في أذهاننا، تجعلنا نشعر بطريقة آلية بالعار حين نكذب حتى ولو كنا أمام الشرطي الذي يستجوبنا. وإنه

لأسهل علينا أن نتخاصم معه وأن نشتمه (وهذا لا معنى له) من أن نكذب عليه صراحة (فيما هذا هو الأمر الوحيد الذي يجدر القيام به). عندما سمع توماس رجل الوزارة يأخذ عليه انعدام الصدق، أحسن بأنه مذنب تقريباً. ووجب عليه أن يقهر جداراً أخلاقياً لكي يتمكن من الاستمرار في كذبه: «لا شك في أنه قد عرف عن نفسه، ولكن بما أن اسمه لم يكن يعني لي شيئاً، فقد نسيته في الحال».

- كيف كان شكله؟

كان الصحافي الذي ذهب لمقابلته، آنذاك، قصير القامة. وكان شعره أشقر وقصيرأً جداً ومنتصبأً. فحاول توماس أن يجد صفات مناقضة له تماماً فقال: «كان طويلاً القامة وكان شعره طويلاً أسود». قال رجل الوزارة: «آه صحيح! وهل كانت ذقنه طويلة ومعقوفة؟» فقال توماس: «أجل، تماماً.

- ومحني الظهر قليلاً؟

وردد توماس مرة أخرى بعد أن فهم أنَّ رجل الوزارة كان يشبه بشخص ما: «أجل تماماً». إنَّ توماس لم يشِّ بصحافي تعيس فحسب بل إنَّ وشایته كانت فوق ذلك كاذبة.

- ولكن لماذا استدعاك؟ وعمَّ تحدثتم؟

- كانوا يريدون أنْ أغير في تركيبة إحدى الجمل.

بدا هذا الجواب وكأنه ذريعة تافهة. فاغتاظ رجل الوزارة من جديد لأنَّ توماس يرفض أن يقول الحقيقة: «هيا يا دكتور! لقد أكدت لتوك بأنهم حذفوا من النص ثلثة، والآن تقول لي بأنكمما تحدثتما بخصوص تغيير جملة! ألا ترى أنَّ هذا غير منطقي أبداً!».

وجد توماس على الفور ويسهولة أكبر جواباً، والسبب أنَّ ما قاله كان الحقيقة عينها فقال وهو يضحك: «هذا ليس منطقياً، ولكن هذا

هو بالضبط ما حصل. لقد طلبو مني أن أسمح لهم بالتغيير في تركيبة إحدى الجمل لكنهم فيما بعد اقتطعوا ثلث المقال».

من جديد هزّ رجل الوزارة هازناً وكأنه لم يكن في مستطاعه أن يستوعب تصرفاً لأخلاقياً إلى هذا الحد، ثم قال: «لم يكن هؤلاء الناس نزيهين معك».

أفرغ كأس النبيذ مستتتجًا: «دكتور، لقد كنت ضحية التلاعب. إنه لأمر يدعو إلى الأسف أن تدفع الثمن أنت ومرضاك. نعرف تماماً ما تتحلى به من مزايا يا دكتور. وسنرى ما في وسعنا أن نفعل».

مدد يده إلى توماس مصافحاً ثم استاذن بالانصراف بمحبة قلبية. ثم خرجا من المقهى وتوجه كل منهما إلى سيارته.

6

عُكر هذا اللقاء مزاج توماس. فهو كان يأخذ على نفسه استسلامه للنبرة البشوشة لل الحديث. ما دام قد قبل بالتحدث مع الشرطي (لم يكن مستعداً في الأساس لموقف كهذا ولم يكن عارفاً ماذا يبيح القانون وماذا يحظر) كان يجدر به على الأقل أن يرفض الذهاب معه إلى المقهى ومشاركته في شرب كأس وكأنه يشارك صديقاً ماذا لو رأه أحد، أحد يعرف ذلك الرجل! بالطبع سيكون على استعداد لأن يستنتاج أن توماس يعمل في خدمة الشرطة! ثم لماذا قال لهذا الشرطي إن مقاله قد اجترئ منه! لماذا أخبره بهذا الأمر وليس هناك سبب يدعوه إلى ذلك؟ شعر عندها بأنه مستاء من نفسه كل الاستواء.

بعد مرور خمسة عشر يوماً، رجع رجل الوزارة. واقتراح عليه الذهاب إلى المقهى المقابل كما في المرة السابقة. ولكن توماس فضل البقاء في حجرة المعاينة.

فقال الآخر وهو يتسنم: «دكتور، أفهمك».

فصدمت توماس هذه الجملة. لأنَّ رجل الوزارة كان يتكلم مثل لاعب شطرنج يؤكد لخصمه أنه سُجِّل خطأً في النقلة السابقة.

كانا جالسين على كرسيهما وجهًا لوجه تفصل بينهما طاولة توماس. ثمَّ أخذَا يتحدثان لمدة عشر دقائق عن انتشار وباء الزكام الذي كان يجتاح البلاد آنذاك. ثمَّ قال الرجل: «لقد فكرنا في وضعك يا دكتور. لو كان الأمر يتعلق بك وحده، لكانت الأمور أكثر سهولة. ولكن علينا أن نحسب حساباً للرأي العام. إنَّ مقالك، ثثت أم أيت، ساهم في إحياء الهستيريا المعادية للشيوعية. ولا أخفيك القول إنَّهم أوحوا لنا بمقاصاتك بسبب هذا المقال. فهناك شرعة قانونية تتعلق بذلك ومفادها تحريض الشعب على أعمال العنف».

توقف رجل وزارة الداخلية للحظة محدقاً في عينيَّ توماس، فرفع توماس كتفيه هازئاً. ثمَّ تكلَّم الرجل بنبرة مطمئنة: «لقد تخلينا عن هذه الفكرة. أيَّاً تكون مسؤوليتك فإنَّ مصلحة المجتمع تقضي بأنْ تكون في المكان حيث يمكن أن توظَّف قدراتك بالشكل الأفضل. رئيس قسمك القديم يقدِّرك جلَّ تقدِّير كما وأنتا سأنا عنك مرضاك. أنت اختصاصي كبير يا دكتور. لا يمكن لأحد أن يطالب طببياً بأنْ يتعاطى السياسة. لقد جعلت من نفسك هزأة يا دكتور، عليك أن تصلح الأمر. من أجل هذا نوَّذ أن نقترح عليك نصاً لإفادة لكي تضعها حسب رأينا في تصرف الصحافة. ثمَّ بعد ذلك نبذل كلَّ ما في وسعنا لكي تُنشر في الوقت المناسب». ثمَّ مدَّ ورقة إلى توماس.

وعندماقرأ توماس ما جاء فيها، أصيب بالذهول. كان الأمر أسوأ بكثير مما طلب منه رئيس قسمه القديم أن يفعل قبل ستين. إذ لم تكن الإفادة رجوعاً بسيطاً عن مقال «أوديب»، بل كانت تتضمن جملةً عن حبه للاتحاد السوفيتي ووفائه للحزب الشيوعي وتتضمن أيضاً اتهاماً

للمثقفين الذين كانوا، حسب ما جاء في الإفادة، ي يريدون أن يقودوا البلاد إلى الحرب الأهلية. ولكنها كانت تتضمن على الأخضر تشهيراً بمحرري المجلة الأسبوعية الخاصة بالكتاب وباسم الصحفي طويل القامة والمحني الظاهر (لم يكن توماس قد قابله من قبل ولكنه كان يعرف اسمه، وقد شاهد صورته) الذي استغلَّ توماس عن قصد فشوء معنى المقال وجعل منه نداءً معادياً للثورة. والسبب أن هؤلاء كانوا، استناداً إلى ما ورد في النص، أجبن من أن يكتبوا بأنفسهم مقالاً مماثلاً مفضّلين الاختباء خلف طيب ساذج.

كان رجل الوزارة يقرأ الهرل في عينيَّ توماس. انحنى إلى الأمام وربَّت بمودة على ركبة توماس تحت الطاولة: «دكتور، هذه مجرد مسوقة. ستفكر مليتاً في الأمر وإذا ارتأيت أن تغيير عبارة أو أخرى فسيكون بإمكاننا التفاهم بشأن ذلك، بكل تأكيد. فالنص «نصك» في النهاية».

أعاد توماس الورقة إلى الشرطي وكأنه خاف أن يحتفظ بها في يده ثانية واحدة بعد. كان يتخيّل، لوهلة، أنهم سيتحققون من بصمات أصابعه.

ويبدُّل أن يسترَّه رجل الوزارة الورقة، أبعد ذراعيه بحركة تنم عن دهشة مصطنعة (مثل إشارة البابا وهو يبارك الجموع من أعلى شرفه) ثم قال: «ولكن يا دكتور، لماذا تعدها إليَّ؟ يجب أن تحافظ بها لتفكير في الأمر مليتاً في البيت».

هزَّ توماس رأسه نفياً، وهو يمسك بالورقة بصبرٍ في يده الممدودة. وكفَّ رجل الوزارة عن تقليد البابا الأعظم وهو يبارك الجموع، واقتنع أخيراً باستعادة الورقة.

كان توماس يريد أن يقول له بلهجة حازمة إنه لن يكتب شيئاً ولن

يُوَقَّعُ عَلَى شَيْءٍ . . . وَلَكِنَّهُ غَيْرَ لَهْجَتِهِ فِي الْلَّهْظَةِ الْأُخْرَى وَقَالَ بِهَدْوَهُ :
«أَنَا لَسْتُ أَمِيًّا . لِمَاذَا يَنْبَغِي عَلَيَّ أَنْ أَوْقَعَ عَلَى شَيْءٍ لَمْ أَكْتُبْ؟» .

- جيد، جيد يا دكتور. يمكننا أن نسلك طريقةً معاكساً: تكتب في أول الأمر شيئاً بنفسك ومن ثم تباحث في شأنه سوية. أما الورقة التي قرأتها الآن في يمكنك على الأقل أن تستخدمها كنموذج.

لَكُنْ لِمَاذَا لَمْ يَرْفَضْ تُومَاسْ حَالًا وَيُشَكِّلْ قاطع اقتراح الشرطي؟
لأنه تمسك بهذه الفكرة بأسرع ما يمكن: زُدْ عَلَى أَنْ إِفَادَاتِهِ مِنْ هَذَا النَّوْعِ تَرْمِيَ إِلَى إِفْسَادِ أَخْلَاقِ أُمَّةٍ بِكَامِلِهَا (فَالْتَّعْبُنَةُ السُّوفِيَّاتِيَّةُ كَانَتْ تَسِيرُ فِي هَذَا الاتِّجَاهِ) فَالشُّرْطَةُ كَانَتْ تَلَاحِقُ فِي وَضْعِ كَوْضُعِهِ هَدْفًا مُحَدَّدًا: إِذْ رِبَّمَا كَانُوا يَسْتَعْدُونَ لِإِقْامَةِ مُحاكِمَةٍ ضَدَّ صَحَافِيِّ الْمَجَلَّةِ الْأَسْبُوعِيَّةِ الَّتِي كَانَ تُومَاسْ بَعْثَ بِمَقَالَهُ لَهَا . وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ، سَتَكُونُ إِفَادَةُ تُومَاسْ بِمَثَابَةِ وَثِيقَةٍ إِثْبَاتٍ يَسْتَعْدِمُونَهَا فِي الْحَمْلَةِ الَّتِي سُتُّشِنُ عَلَى الصَّحَافِيِّينَ الْمُذَكُورِيْنَ . . . وَلَوْ أَنَّهُ رَفَضَ حَالًا وَيَطْرِيقَةَ حَازِمَةَ لَا رَجْوَعٍ فِيهَا، فَهُوَ سَيَخَاطِرُ إِذَا بِقِيَامِ الشُّرْطَةِ بِنَشَرِ هَذَا النَّصِّ الْمَعَدُ مُسبِقاً وَإِرْفَاقَهُ بِتَوْقِيعِهِ الْمُزُورِ . وَعِنْدَئِذٍ لَنْ تَنْشَرْ أَيْهَا صَحِيفَةٌ إِطْلَاقاً نَفِيَهُ لِلْخَبَرِ! وَلَنْ يَصْدِقَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ لَمْ يَكْتُبِ الْمَقَالَ بِنَفْسِهِ وَلَنْ يَوْقَعْ . أَلْمَ يَسْبِقَ لَهُ أَدْرِكَ أَنَّ النَّاسَ يَتَلَذَّذُونَ بِتَحْقِيرِ الْآخَرِيْنَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَفْسُدُوا هَذِهِ الْمُتَعَةَ بِالشَّرْوُحِ وَالْتَّفَسِيرَاتِ!

وَإِذَا كَانَ قَدْ أَعْطَى الشُّرْطَةُ أَمْلَأَ بِأَنَّهُ سَيَكْتُبُ النَّصِّ بِنَفْسِهِ، فَهَذَا لِكَسْبِ الْوَقْتِ لِأَنَّهُ كَتَبَ رِسَالَةَ اسْتِقالَتِهِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي . وَكَانَ يَقْتَرَضُ (وَإِفْتَرَاضَهُ فِي مَحْلِهِ) أَنَّهُ فِيمَا لَوْ هَبَطَ عَنْ عَمَدِهِ إِلَى أَسْفَلِ درَجَةِ فِي السَّلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ (وَالَّتِي تَوَجَّبُ حِينَذَاكَ عَلَى آلَافِ الْمُشَفِّفِيْنَ وَمِنْ مُخْتَلِفِ الْفَنَاتِ، الْهَبُوطُ إِلَيْهَا) فَإِنَّ الشُّرْطَةَ لَنْ يَكُونَ فِي مُسْتَطِاعِهَا أَنْ تَمْلِكَ أَيِّ وَسِيلَةً لِلْضَّغْطِ عَلَيْهِ، فَتَكْفُّ عنِ الْاِهْتِمَامِ بِأَمْرِهِ . وَلَنْ يَقْدِرُوا أَيْضًا عَلَى نَشَرِ إِفَادَةٍ تَدْعِيُ أَنَّهَا مُوَقَّعَةٌ بِاسْمِهِ لَأَنَّ الْأَمْرَ سَاعَتَهَا لَنْ يَعُودُ

قابلًا للتصديق. والسبب أن الإفادات الدينية العلنية تترافق عادة مع ترقيات موقعها وليس مع تدئي أحوالهم.

ولكن الأطباء في بوفيميا هم مجرد موظفين وبإمكان الدولة تسريحهم من وظائفهم ساعة شاء، ولكنها غير مضطرة إلى ذلك. حاول الموظف الذي قدم له توماس استقالته أن يقنع توماس بالعدول عن ترك وظيفته. فهو كان مطلعاً على شهرته ويحترمه. ففهم توماس فجأة أنه غير واثق بأنه قام بالاختيار المناسب. ولكنه شعر مع ذلك بأنه ملتزم بقراره هذا وكأنه عهد على الوفاء. فأصرّ عليه بعناد، وهكذا أصبح مُنظّف زجاج.

7

لسنوات خَلَتْ، عندما كان توماس يقود سيارته من زوريخ إلى براغ، كان يردد قائلاً: «ليس من ذلك بد» وهو يفكر في جبه ليريزا. وحين عبر الحدود ساوره الشك وبدأ يفكّر فيما إذا كان قراره لا بد منه فعلاً: ففهم حينئذ أن سلسلة الصدف التافهة التي حصلت قبل سبع سنوات هي التي دفعته باتجاه تيريزا (كانت هذه الصدف قد بدأت بمرض ألم عرق التّسا الذي أصاب رئيس القسم) واقتادته إلى قفص لا سبيل إلى الفرار منه.

هل يجب الاستنتاج من هذا أنه لم يكن في حياته «ما ليس منه بد». إنه لم يكن في حياته ما يُسمى ضرورة قصوى؟ حسب رأيه، ثمة ضرورة قصوى في حياته. وهي لا تمثل في الحب بل في المهنة. فالشيء الذي دفعه للطلب لم يكن الصدفة ولا القرار المنطقي وإنما رغبة داخلية دفينة.

إذا كان من سبيل لتصنيف الكائنات إلى فئات فسيجري هذا التصنيف بالطبع وفقاً لتلك الرغبات الدفينة التي تقودهم باتجاه هذا

النشاط أو ذاك، الذي يمارسونه طوال حياتهم. فكل فرنسي مثلاً مختلف عن الآخر، ولكن جميع ممثلي العالم متشابهون سواء كانوا في باريس أم في بраг أم في المسرح الأكثر تواضعاً في أحد الأرياف. لأن الممثل هو ذاك الذي يقتضي منذ الطفولة بأن يقدم عروضاً أمام الجمهور المجهول. فمن دون هذه الموافقة الجوهرية التي لا علاقة لها بالموهبة، بل هي شيء أعمق من الموهبة، لا يمكن للمرء أن يصير مثلاً. كذلك، فإن الطيب هو ذلك الذي يقبل أن يكرس نفسه للجسد البشري متحملاً جميع العواقب، طوال حياته. إن هذا العهد الأساسي (لاموهبة أو البراعة) هو الذي يسمح له، في خلال سنته الدراسية الأولى، بالدخول إلى غرفة التشريح ليتخرج طبيباً بعد ذلك بست سنوات.

الجراحة ترفع المبدأ الإلزامي لمهنة الطب إلى حدّ الأقصى حيث يلامس البشري الإلهي. عندما يُضرب أحدهم بعنف على ججمنته بالهراوة، فإنه ينهاي ويتوقف عن التنفس إلى الأبد. ولكته في جميع الأحوال سيتوقف يوماً عن التنفس. لا أهمية لهذه الجريمة سوى أنها عجلت بما سيقوم به الله آجلاً. فهو لم يكن يشك في أن يجرؤ الإنسان يوماً على إدخال يده في أحشاء الجسم التي خلقها مغلفة بعناية بالجلد ومحتوة ومحجوبة عن الأنظار. عندما وضع توماس، لأول مرة، المبضع على جلد مريض خامد تحت تأثير المخدر وعندما شق هذا الجلد بضررية قوية محكمة وفتقه تبعاً لخط مستقيم ودقيق (كانه قطعة لحم ميتة أو أنه رداء أو تنورة أو ستارة) أحسن حينئذ بشعور وجيزة لكن حاد وبأنه يخرق المقدسات. وهذا الشعور بالتحديد كان يشدّه في آن! هذه الضرورة، هذا الذي «لا بد منه» المتجلّد عميقاً في داخله والذي لم تدفعه إليه لا الصدفة ولا ألم عرق النساء الذي أصاب رئيس القسم، ولا أي شيء آخر.

إذاً، كيف تتمكن في هذه الحالة من أن يتخلص بهذه السرعة وبهذا الإصرار وبهذه السهولة من شيء متجرد في أعماقه إلى هذا الحد؟ ربما سيكون جوابه أنه تصرف على هذا النحو ليمتنع الشرطة من استغلاله. ولكن، ولنكن صريحين، حتى ولو كان هذا الأمر ممكناً على الصعيد النظري (فهناك حالات من هذا النوع حصلت فعلاً) فإنه قلماً كان محتملاً أن تقوم الشرطة بنشر إفادة مزورة مرفقة بتوقيعه.

من البديهي أن يملك الواحد منا الحق في أن يخاف حتى من المخاطر القليلة الاحتمال. فلنقبل بذلك. ولنسسلم أيضاً بأنه كان غاضباً من نفسه ومن رعنونه بالذات وبأنه كان يريد أن يتحاشى علاقات جديدة مع الشرطة لافائدة ترجى منها سوى أنها تزيد من حدة شعوره بالضعف. ولنسسلم أيضاً بأنه قد خسر وظيفته فعلاً منذ زمن لأن عمله الآلي في المستوصف حيث كان يصف جوباً من الأسيرين لا علاقة له بالفكرة التي كان يكتونها عن مهنة الطب. ومع ذلك كله، فإن فجائية قراره قد بدت لي غريبة. ألا تظنون معي أنها تخفي في طياتها شيئاً ما أكثر غموضاً، شيئاً يتعدى مجال تفكيره المنطقي؟

8

كان توماس قد شرع يحب بيتهوفن ليُدخل السرور إلى قلب تيريزا. ولكنه لم يكن مولعاً بالموسيقى، لذا أشك في أن يكون عارفاً بالحكاية الحقيقة للازمة بيتهوفن الشهيرة: «أليس من ذلك بدّ؟ ليس من ذلك بدّ». .

لقد جرت الحكاية على هذا النحو: كان هناك رجل يدعى دمبشر وكان مديناً لبيتهوفن بخمسين فوراناً. وذات يوم جاء المؤلف الذي كان مفلساً على الدوام يطالب دمبشر بها، فتهجد هذا المسكين قائلاً: «أليس من ذلك بدّ؟» ورد عليه بيتهوفن وهو يضحك من كل قلبه: «اليس من

ذلك بدّ!». ثم دوّن هذه الكلمات مع أنغامها على مفكرة وألف انطلاقاً من هذه اللازمـة الواقعـة قطـعة صـغـيرـة من أربعـة أصـوات: ثـلـاثـة أصـوات فيها تـغـنـي «ليـسـ منـ ذـلـكـ بدـ،ـ أـجـلـ،ـ أـجـلـ،ـ أـجـلـ».ـ ويـضـيفـ الصـوتـ الرابعـ:ـ «أـخـرـجـ صـرـةـ نـقـودـكـ!».

ثم، بعد أربع سنوات، أصبحت اللازمـة ذاتـها نـواـةـ العـبـارـةـ الموسيـقـيةـ الرابـعـةـ منـ الـرـبـاعـيـةـ الـأـخـيـرـةـ فيـ مـجـمـوعـةـ القـطـعـ الموسيـقـيـةـ رقمـ 135ـ.ـ لمـ يـعـدـ بيـتهـوـفـنـ يـفـكـرـ إـطـلاـقاـ فيـ صـرـةـ نـقـودـ دـمـبـشـ.ـ فـصـارـتـ الكلـمـاتـ «ليـسـ منـ ذـلـكـ بدـ»ـ تـتـخـذـ طـابـعاـ اـحـتـفـالـيـاـ مـتـزـايـداـ،ـ وـكـانـ الـقـدـرـ مجـسـداـ كـانـ يـتـفـوهـ بـهـ.ـ فـفـيـ لـغـةـ «ـكـانـطـ»ـ،ـ حـتـىـ عـبـارـةـ «ـصـبـاحـ الـخـيـرـ»ـ المـلـفـوـظـةـ حـسـبـ الـأـصـولـ تـرـتـدـيـ طـابـعاـ مـيـتـافـيـزـيـقـيـاـ.ـ فـالـلـغـةـ الـأـلـمـانـيـةـ هيـ لـغـةـ الـكـلـمـاتـ الـثـقـيلـةـ.ـ «ـليـسـ منـ ذـلـكـ بدـ»ـ لمـ تـعـدـ مـجـرـدـ مـزـحةـ بلـ صـارـتـ «ـالـقـرـارـ الـمـفـكـرـ فـيـ بـخـطـورـةـ»ـ.

كان بيتهوفن قد حـوـلـ إـذـاـ إـلـاهـاماـ فـكـهـاـ إـلـىـ رـبـاعـيـةـ جـديـةـ.ـ ومـزـحةـ إـلـىـ حـقـيـقـةـ مـيـتـافـيـزـيـقـيـةـ.ـ إـنـهـ لـمـثـلـ هـامـ عـلـىـ الـاـنـتـقـالـ مـنـ الـخـفـيفـ إـلـىـ الـثـقـيلـ (إـذـاـ هوـ مـثـالـ عـلـىـ التـبـدـلـ مـنـ الإـيجـابـيـ إـلـىـ السـلـبـيـ،ـ حـسـبـ رـأـيـ بـارـمـينـيدـسـ).ـ لـكـنـ الغـرـيبـ فـيـ الـأـمـرـ أـنـ هـذـاـ التـحـولـ لـاـ يـفـاجـئـنـاـ.ـ فـلـوـ أـنـ بيـتهـوـفـنـ اـنـتـقـلـ مـنـ رـبـاعـيـتـهـ الـجـديـةـ إـلـىـ اـتـبـاعـ الـمـزـحـةـ الـخـفـيفـةـ لـلـأـصـواتـ الـأـرـبـعـةـ الـمـتـعـلـقـةـ بـصـرـةـ نـقـودـ دـمـبـشـ،ـ لـأـثـارـ الـأـمـرـ سـخـطـنـاـ.ـ يـبـدـأـ أـنـ بيـتهـوـفـنـ لـوـ فـعـلـ ذـلـكـ لـكـانـ تـصـرـفـ تـمـامـاـ مـنـ وـجـهـ نـظـرـ بـارـمـينـيدـسـ:ـ لـكـانـ اـنـتـقـلـ إـذـاـ مـنـ الـثـقـيلـ إـلـىـ الـخـفـيفـ،ـ وـمـنـ السـلـبـيـ إـلـىـ الإـيجـابـيـ!ـ فـيـ الـبـداـيـةـ،ـ سـتـكـونـ هـنـاكـ حـقـيـقـةـ مـيـتـافـيـزـيـقـيـةـ كـبـرىـ (ـتـحـتـ شـكـلـ عـمـلـ غـيرـ مـنـجـزـ)ـ وـفـيـ الـنـهاـيـةـ مـزـحـةـ وـلـاـ أـخـفـ!ـ (ـعـلـىـ شـكـلـ مـقـطـوـعـةـ مـنـجـزـةـ)ـ.ـ وـلـكـنـنـاـ لـمـ نـعـدـ نـتـقـنـ التـفـكـيرـ مـثـلـ بـارـمـينـيدـسـ.

أـغـتـيـقـدـ أـنـ تـوـمـاسـ كـانـ،ـ فـيـ صـمـيمـ أـعـماـقـهـ،ـ حـانـقـاـ مـنـذـ زـمـنـ بـعـيدـ عـلـىـ نـغـمـةـ «ـليـسـ منـ ذـلـكـ بدـ»ـ لـعـدـائـيـتـهـ وـاحـتـفـالـيـتـهـ الـصـارـمـةـ.ـ وـكـانـتـ

تراوده رغبة عميقه في أن يبدّل، تمشيًّا مع وجهة نظر بارمينيدس، الثقيل إلى خفيف. فلتذكّر في هذه المناسبة أن لحظة واحدة كانت كافية في السابق ليُمتنع إلى الأبد عن رؤية زوجته وابنه. وأنه قد تلقى بارتياح تام قطع علاقة والديه به. فهل كان الأمر شيئاً آخر سوى ضربة عنيفة وقلماً كانت منطقية، يدفع بها ما يفرض نفسه عليه كواجب ثقيل، كمثل «ليس من ذلك بدّ».

جلّي أن الأمر حينذاك كان يتعلّق بـ«ليس من ذلك بدّ» خارجي تملّيه الأعراف الاجتماعية، في حين «ليس من ذلك بدّ» المتعلق بمحنة للطلب، كان ضرورة داخلية. لذلك، فإنّ الأمر الآن كان أسوأ من السابق. لأنّ الضرورة الداخلية أكثر قوّة وتحثّ بشكل أكثر عنفاً على التمرد.

أن يكون المرء جرّاحاً، فمعنى ذلك أن يشرّط ظاهر الأشياء ليري ما الذي يختبئ داخلها. ربما هذه الرغبة هي التي حدّت بتوماس للذهاب لرؤيه «ما وراء» «الذي ليس منه بدّ». وبكلمة أخرى، للذهاب لرؤيه ماذا يبقى من الحياة حين يتخلّى الإنسان عن كلّ ما كان اعتبره حتى الآن رسالته.

بيد أنه، حين جاء للمثول أمام المديرة اللطيفة لمؤسسات تنظيف الزجاج والواجهات في براغ، بدت له نتيجة قراره فجأة في كامل حقيقتها فكان يرتعب منها. وعاش في جو الرعب هذا، الأيام الأولى من تسلمه وظيفته الجديدة. ولكن بعدها اجتاز (في خلال أسبوع تقريباً) الغرابة المخدرة لحياته الجديدة، اكتشف أنه كان يجد نفسه فجأة في عطلة طويلة الأمد.

كان يقوم بأعمال لا تعني له شيئاً وكان الأمر جميلاً. أخذ يتفهم شعور الناس (الذين كان دائماً يشعر بالشفقة حيالهم، حتى ذلك العين)

الذين يمارسون مهنة لم يدفعهم إليها «ما ليس منه بدّ»، بل يقدرون على نسيانها ما إن ينتهوا من عملهم. لم يكن قد عرف هذه اللامبالاة السعيدة من قبل. وهو الذي كان في السابق حين لا تتجه عملية جراحية كما يتمنى، يتعلّكه اليأس ولا يعود قادرًا على النوم، ويفقد شهيته للنساء حتى. كان «ما ليس منه بدّ» المتعلق بمهنته أشبه بعَلْقة تمتص دمه.

أما الآن، فها هو يجوب براوغ حاملاً عصاه الطويلة التي ينطف بها الواجهات.. . كان متعجبًا من اكتشافه أنه يحس نفسه أصغر بعشر سنوات. كانت بائعات المخازن الكبرى يناديه بالدكتور (فرع الطبول في براوغ كان يسير على الوجه الأكمل) ويسترشنه بشأن زكامهن أو آلامهن الحقوية أو تأخير عادتهن الشهرية. كن يشعرون بالخجل وهن يرينه يرش الواجهات بالماء ومن ثم يثبت فرشاة في نهاية عصاه ويشرع في التنظيف. لو كان في وسعهن ترك الزبائن في المخزن لكيّن بادرن إلى أحد الفرشاة من يده وتنظيف الواح الزجاج بدلاً منه.

كان توماس يعمل بخاصة في المخازن الكبرى، ولكن المؤسسة كانت ترسله أيضًا إلى بيوت أشخاص معينين. كان الناس في ذلك الحين يعيشون الاحتضان المممارس على المثقفين التشيكيين في حالة من التضامن المتباهي. عندما عرف مرضى توماس القدامى بأنه كان يعمل منظفًا للزجاج، اتصلوا بالمؤسسة يطلبون إرساله إليهم. كانوا يستقبلونه بقنية شمبانيا أو أي نوع من الخمر ويسجلون على ورقته أنه قام بتنظيف ثلاثة عشرة نافذة. ثم يمضون برفقته ساعتين وهم يشرثرون أو يقرعون الكؤوس. وعندما كان يغادرهم ذاهبًا إلى أشخاص آخرين أو مخزن آخر، كان يشعر أنه رائق المزاج كلّيًّا. كانت عائلات الضباط الروس تتواجد للإقامة في البلاد. كان الراديو يبث الخطابات الإرهابية لموظفي وزارة الداخلية الذين كانوا يحلّون محل الصحفيين

المسرحين. أما هو فكان يترنح سكران عبر شوارع براغ وفي حالة رجل يتقلل من فرحة إلى فرحة. كانت هذه أيام عطلته الطويلة الأمد.

كان يرجع إلى عهد حياته كرجل عازب. فهو وجده نفسه فجأة دون تيريزا التي لم يكن يراها سوى في الليل حين ترجع من العحانة، بفتح عيناً في بداية نومه. وفي الصباح تكون هي غارقة في النوم فيما هو معجل للذهاب إلى عمله. كان يملك في متناول يده ست عشرة ساعة وكانت هذه فسحة حرية منحت إليه بطريقة مباغتة. وفسحة الحرية تعني له، مذ كان في مطلع الصبا، النساء.

9

عندما كان أصدقاؤه يسألونه كم يبلغ عدد النساء اللواتي حظي بهن في حياته، كانت إجابته مراوغة. وحين كانوا يصرون، كان يقول: «ما يقارب المئتين». كان بعض الحاسدين يؤكدون أنه يبالغ في الدفاع عن نفسه قائلاً: «هذا ليس بالعدد الكبير. إن علاقاتي بالنساء بدأت منذ خمسة وعشرين عاماً تقريباً. أقسموا مئتين على خمس وعشرين فيكون العاصل ثمانين نساء جديداً كل عام. وهذا ليس بكثير».

ولكنه مذ صار يعيش مع تيريزا أخذ نشاطه الجنسي يصطدم بصعوبات في التنظيم. لم يكن في مستطاعه أن يخصص له (بين عمله في غرفة العمليات الجراحية وبين بيته) إلا حيزاً ضيقاً من الوقت ليستغله قدر الإمكان طبعاً (كما يعني المزارع الجبلي بقطعة أرضه بدأب متواصل). ولكن لا يمكن مقارنة ذلك بفسحة الست عشرة ساعة التي نزلت عليه فجأة نعمتها غير المتوقعة (أقول ست عشرة لأن الساعات الثمانية التي كان ينطف خلالها الزجاج، كانت هي أيضاً تمنحه ألف فرصة للتعرف إلى بائعات جديداً أو إلى موظفات أو إلى مدبرات منازل، وضرب مواعيد معهن).

عمَّ كان يبحث لدى كل هؤلاء النساء؟ ما الذي كان يشدُّه إليهن؟
أليست العلاقة الجنسية تكراراً للشيء نفسه؟

إطلاقاً. تبقى هناك دائماً نسبة صغيرة من «المتعلّر تصوّره» فهو حين كان يرى امرأة في كامل ثيابها، كان في وسعه أن يتخيّل تقريباً كيف ستبدو وهي عارية (هنا كانت خبرة الطيب تكمّل خبرة العاشق). ولكن بين مقاربة الفكرة ودقة الواقع تبقى دائماً هناك ثغرة صغيرة، ثغرة المتعلّر تصوّره. وهذه الثغرة بالذات هي التي لم تكن تتركه في سلام. ثم وأنَّ ملاحقة المتعلّر تصوّره لا تكتمل باكتشاف العربي وحده بل تتعداه: كيف ستكون حركاتها وهي تخلع ملابسها؟ ماذا ستقول عندما يضاجعها؟ وكيف ستكون نغمة تنهّداتها؟ وأي تكشيرية ستترسم على وجهها لدى وصولها إلى لحظة النشوء؟

إنَّ تفرد الأنّا يمكن تحديداً في هذا الجزء من «المتعلّر تصوّره» الذي يملّكه كل إنسان. ليس في الإمكان تخيل إلا ما هو مشترك بين الكائنات.

أما «الأنّا» الفردية التي تتميز عن ما هو عام، فهي تلك التي لا تدعنا نتّكهن بها أو نحدّسها. وهي أول ما يجب نزع الحجاب عنه لاكتشافه وامتلاكه لدى الآخر.

كان توماس قد اهتمَ في السنوات العشر الأخيرة من نشاطه الطبي بالدماغ الإنساني على وجه أخص.. كان يعرف أن لا شيء أكثر صعوبة من الاستحواذ على «الأنّا». فبين هتلر وأينشتاين، أو بين بريجينيف وسولجنستين هناك تشابه أكثر مما هناك اختلاف. وإذا أردنا أن نعبر عن ذلك حسابياً نقول إنه يوجد فيما بينهم جزء من المليون من الاختلاف، وتسع مائة وتسعة وتسعون ألفاً وتسع مائة وتسعة وتسعون جزءاً من المليون من التشابه.

وتوماس يسكنه هاجس اكتشاف هذا الجزء من المليون

والاستحواذ عليه. هكذا يحدد معنى هوسيه بالنساء. فهو ليس مهوساً بالنساء بل بما تملكه كل واحدة منها من «المتعدد تصوره». وبكلمة أخرى، بهذا الجزء من مليون من الاختلاف الذي يميز امرأة عن سواها.

(ربما كان شغفه بالجراحة يتلاقي وشغفه بالجري وراء النساء. لذلك لم يكن يتخلى عن المبضع الوهمي حتى عندما يكون مع عشيقاته. كان يرغب في الاستحواذ على شيء ما، دفيناً في أعماقهن، شيء يجب أن تُمزق في سبيله القشرة الخارجية).

يحق لنا بالطبع أن نتساءل لماذا لم يكن يفتش إلا من خلال الجنس عن هذا الجزء من مليون من الاختلاف. ألم يكن قادراً مثلاً على إيجاده في مشيتها أو في ذوقهن في المأكل، أو في ميلهن الفنية؟

بطبيعة الحال، هذا الجزء من مليون من الاختلاف موجود في جميع مجالات الحياة الإنسانية. ولكن ظاهر علانية أينما كان ولا تدع الحاجة إلى اكتشافه ولا يحتاج الأمر إلى مبضع. فأن تفضل امرأة الجبنة في الحلويات، أو لا تتحمل واحدة أخرى الأرضي - شوكى، بهذه بالطبع علامة تميز. ولكننا ندرك تلقائياً أن التمايز هذا تافه وغير مُجدٍ وأن اهتمامنا به وتفضيلنا فيه عن قيمة ما، إنما هو مضيعة للوقت.

ولكن في الجنس وحده يظهر هذا الجزء وكأنه شيء ثمين. لأنه لا يمكن إدراكه علانية بل يجب امتلاكه. قبل نصف قرن، كان هذا النوع من الامتلاك يتطلب الكثير من الوقت (أسابيع وربما أشهراً في بعض الأحيان!) لأن قيمة المحظية العاطفية كانت تُقاس بالمدة التي اقتضتها امتلاكها. ولكن، اليوم، وعلى الرغم من أن المدة التي يستغرقها الامتلاك قد تقلّصت بشكل محسوس، فإن الجنس يبدو دائماً وكأنه الخزينة التي يختبئ في داخلها سر «الأن» الأنوثية.

إذاً، لم تكن الرغبة في المتعة الجنسية (مع أن المتعة تأتي تقريراً في الطبيعة) هي التي تدفع توماس لمطاردة النساء، بل الرغبة في الاستيلاء على عالم (في شرط جسد العالم المسجى بالمبضم).

10

في الإمكان قسمة الرجال الذين يلاحقون النساء بكثرة إلى قسمين: القسم الأول يبحث لدى كل النساء عن حلمه الخاص وعن فكرته الذاتية عن المرأة. والقسم الآخر تحركه رغبة الاستحواذ على الاختلاف اللامتناهي للعالم النسائي الموضوعي.

هوسُ الأوَّلِينَ هوسُ رومانتيقي: فالشيء الذي يفتشون عنه عند النساء هو أنفسهم ومثالهم الأعلى. وهم دائماً وأبداً خائبون لأنَّ المثال كما نعرف يستحيل إيجاده. وبما أنَّ الخيبة هي التي تدفعهم للتنقل من امرأة إلى امرأة أخرى، فإنها تعطي تقلُّبهم ذريعة ميلودرامية. وهناك الكثير من النساء العاطفيات اللواتي يجدن تعددية عشيقاتهن المستمرة مؤثرةً في النفس.

أما الهوس الآخر فهوُسُ إياحي، والنساء لا يجدنه مؤثراً إطلاقاً: فبما أنَّ الرجل في هذه الحالة لا يُسقط على النساء مثالاً ذاتياً فإنَّ كلَّ شيء عندئذ يشير اهتمامه ولا شيء يمكن أن يجعله خائباً في آن.. وهذا العجز عن الخيبة بالذات يحمل في حد ذاته شيئاً مخزياً. فبالنسبة للجميع هوُسُ المضاجع الرومنطيقي لا يكُلَّ (لأنَّه لا يُكَفَّر عن هذا الوسواس من خلل الخيبة).

وبما أنَّ المُضاجع الرومنطيقي يلاحق دائماً النموذج عينه من النساء، فإننا لا نلاحظ أنه يغيّر عشيقاته، ويسبب له أصدقاؤه خلافات مع عشيقاته لأنَّهم لا يلاحظون فرقاً بينهن وبين دونهن كلُّهن بالاسم نفسه.

أما المُضاجعون الإباحيون (بالإمكان تصنيف توماس طبعاً ضمن هذه الفتنة) فإنهم يبتعدون، أثناء سعيهم وراء المعرفة، عن معايير الجمال الأنثوي المتعارف عليها (والتي يأنفونها سريعاً) ويتحولون في نهاية المطاف حتماً إلى هواة للغرائب. وهم يعرفون هذا الأمر ويسعرون بقليل من الخجل. لذا فإنهم لا يظهرون برفقة عشيقاتهم أمام الملا لثلا يزعجوا أصدقاءهم.

كان قد مضى على عمله في تنظيف الزجاج ستان عندما استدعته زبونة جديدة. ما إن رأها لأول مرة عند عتبة الباب حتى أسرته غرابتها للحال. كانت غرابتها مكتمة ومحفظة واقفة عند حدود التفاهة المرحة (كان ميل توماس إلى الغرائب لا يمْتَ بصلة للإعجاب الفللنّي بالنساء المخيفات ب بشاعتهن): كانت طويلة القامة فوق العادة، أطول منه بكثير. كان أنفها دقيقاً وطويلاً جداً ووجهها غريباً جداً إلى درجة يستحيل معها أن نقول إنها جميلة (فالجميع سوف يعارضون ذلك) ولكنها لم تكن خالية من أي جمال (على الأقل، حسب رأي توماس). كانت ترتدي بنطلوناً وقميصاً أبيض. ويخيل للناظر أنها مزيج عجيب من صبي ضامر وزرافة ولقلق.

كانت ترمي بنظرات طويلة متقطعة ومستقصية، ولا تخلو أيضاً من شعاع سخرية ذكية.

قالت: «ادخل يا دكتور».

فهم عندئذ أن المرأة تعرف من يكون. فسأل دون أن يُظهر أي تعجب: «أين يمكنني أن أستعمل الماء؟».

فتحت باب غرفة الحمام. فرأى أمامه المغسلة والمغطس والمرحاض. وأمام المغطس والمغسلة والمرحاض كانت هناك سجادات صغيرة زهرية اللون.

كانت المرأة التي تشبه زرافة ولقلقاً تبتسم غامزة بعينها، وكل ما كانت تقوله كان يلمح إلى معنى وسخرية خفيتين.

قالت: «غرفة الحمام هي تحت تصرفك يا دكتور. افعل هناك ما يحلو لك».

- هل أستطيع أن استحم أيضاً؟

فسألته: «هل تحب الاستحمام؟».

ملاً دلواً من المياه الساخنة ورجع إلى الصالون ثم قال: «من أين أبدأ؟».

قالت وهي ترفع كتفيها هازئة:

- هذا متوقف عليك.

- هل يمكنني رؤية نوافذ الغرف الأخرى.

- هل ترغب في مشاهدة شقتي؟

كانت تبتسم كما لو أن تنظيف النوافذ إنما هو نزوة من نزوات توماس، من غير أن تثير هذه التزوة اهتمامها إطلاقاً.

دخل إلى الغرفة المجاورة. كانت نوافذها كبيرة وفيها سريران متلاصقان ولوحة تمثل مشهدأً خريفياً عبارة عن أشجار سندر تضيئها الشمس الغاربة.

عندما رجع، كانت هناك على الطاولة قنية نبيذ مفتوحة وكأسان.

سألت: «ألا تريد أن تشذد من عزمك قليلاً قبل البدء بعملك المضني؟».

قال توماس وهو يجلس: «بكل سرور».

قالت: «لا بد أنه أمر مثير للاهتمام أن تذهب إلى بيوت الناس؟».

فقال توماس: «ليس بالأمر السيئ».

- تلقي في كل مكان بنساء أزواجهن في العمل.

فقال توماس: «ومرات كثيرة بجذات وحموات».

- وعملك القديم، ألا تحزن إليه؟

- قولي لي أولاً أين سمعتهم يتحدثون عن عملي السابق؟

قالت المرأة - اللقلق: «مستخدمك فخور بك جداً».

- «حتى في هذا الوقت أيضاً؟» قال توماس متعجبًا.

- اتصلت بهم ليرسلوا لي أحداً لتنظيف الزجاج، فسألوني إن كنت أرغب في طلبك أنت بالذات. يبدو أنك كنت جراحاً كبيراً طردوه من المستشفى. وأعتقد أن هذا يثير اهتمامي!

- أنت فضولية بشكل غريب.

- وهل هذا واضح؟

- نعم، من الطريقة التي تنتظرين فيها.

- وكيف هي طريقي في النظر؟

- تطرفين بعينيك وتطرحين الأسئلة دون توقف.

- لماذا؟ ألا تحب أن تجيب؟

كان الحديث يتتحول بفضلها إلى دعابة. ولم تكن أي كلمة قالتها تتعلق بالعالم الخارجي. بل كانت كلماتها كلها توجه إليهما وحدهما. وبما أن كليهما نصب الحوار كموضوع رئيسي فلم يكن أسهل عندئذ من تكميل الكلمات بالملامسات. ففيما كان توماس يتحدث عن عينيها اللتين تطرفان، أخذ يداعبها. وكانت هي ترد على كل ملامسة منه بمداعبة منها. لم تكن تتصرف بطريقة عفوية وإنما بدبأب متعمد. كانوا وكأنهما يريدان أن يلعبا لعبة «أفعل لك ما تفعله لي». كانوا جالسين وجهاً لوجه ويدا كلّ منهما موضوعتان على جسد الآخر.

ولكنها بدأت أخيراً تتنمنع عندما حاول توماس أن يضع يده بين

فخذليها.. لم يكن قادراً على التمييز ما إذا كانت تتمكن بجدية. ولكن وقتاً طويلاً قد مر، ودقائق عشر تفصله عن موعده مع الزيتون القادم. فنهض شارحاً أن عليه الرحيل. كان خداها محمرین.

قالت: «انتظر لأوقع لك على ورقة الحساب».

اعتراض قاتلاً: «ولكني لم أفعل شيئاً».

قالت: «هذه غلطتي». ثم أضافت بلهجة ناعمة وبطيبة: «يجب أن أطلبك من جديد لكي تتمكن من إنجاز ما لم تتمكن من البدء به بسيبي أنا».

وبما أنّ توماس كان يرفض إعطاءها الورقة لتوقعها، قالت بعذوبة وبلهجة من يتسلل خدمة: «أرجوك، أعطني هذه الورقة». ثم أضافت: «أنا لا أدفع بل زوجي. وأنت لا تقضى بل مؤسسة الدولة. هذه الصفقة لا تخصننا، لا أنت ولا أنا».

11

كان مجرد التفكير في اللاتناسب الغريب للمرأة الشبيهة بالزرافة واللقلق يثيره: الغنج المقرون بالرعونة، والرغبة الجنسية المصرّح بها بسذاجة مصحوبة بابتسمة ساخرة، والتفاها المبتدلة للشقة مقارنة بفرد صاحبها. ثُرى كيف ستكون هيئتها وهما يمارسان الحب؟ كان يحاول أن يتخيل ذلك، ولكن الأمر لم يكن سهلاً. وأصبح هذا شغله الشاغل لأيام عديدة.

عندما دعته لزيارتها في المرة الثانية، كانت هناك قنية نبيذ تتضرر على الطاولة مع كأسين. ولكن هذه المرة حدث كل شيء بسرعة. وجدا نفسيهما بعد قليل متواجهين في الغرفة (كانت الشمس تغيب فوق مشهد أشجار السندر البيضاء) فتعانقا. قال كعادته: «اخلعي ثيابك»

ولكنها بدل أن تطيعه أمرته قائلة: «كلا، أنت أولاً».

لم يكن معتاداً على ذلك فاضطراب قليلاً. أما هي فأخذت تفك أزار بمنظونه. «اخلعي ثيابك!»، أمرها بذلك عدة مرات (ولكن بفشل مُبْحِثٍ) فلم يجد وسيلة عندئذ إلا القبول بتسوية، فمشى تبعاً لقوانين اللعبة التي فرضتها في المرة السابقة («أفعل لك ما تفعل لي»). نزعت عنه بنظلونه فنزع عنها ثورتها. ثم جرّدته من قميصه فجرّدها من قميصها. وهكذا حتى وجدا نفسهما أخيراً عاريين وجهاً لوجه. وضع يده على فرجها الرطب ثم أنزل أصابعه باتجاه الثقب الشرجي وهو المكان الأحب عند النساء جميعهن. كان ثقبها ناتتاً للغاية مما يوحى بوضوح بأنّ الجهاز الهضمي الطويل ينتهي في هذا المكان بحدبة صغيرة. تحسّس الحلقة الصلبة السليمة، ذلك الخاتم الأجمل بين الخواتم جميعها، والذي يسمى في لغة الطب «الصّارة». عندها، أحَسَّ فجأة بأصابع المرأة تستقر في المكان نفسه من مؤخرته. فهي كانت تعيد حركاته كلها بدقة المرأة.

ومع أنه، كما قلت آنفاً، قد عرف في حياته مثني امرأة، (ومذ أصبح منظف زجاج، كان عدهن قد زاد كثيراً) لم يحدث له من قبل أن رأى امرأة أطول منه تتصرف أمامه وتطرف بعينيها وتحسس شرجه. فدفعها بقوة إلى السرير لكي يتغلب على إحساسه بالانزعاج.

عَدَرَّتها فجائية هذه الحركة فتهاوى جسدها الضخم على ظهره. كان وجهها المكسو بلطخات حمراء أشبه بالهيئة المذعورة لشخص اختلَّ توازنه. وبما أنه كان واقفاً أمامها أمسكها من تحت ركبتيها ورفع ساقيها المنفرجتين قليلاً عالياً. فبدت له ساقاها فجأة وكأنهما ذراعان مرفوعتان لجندى مذعور يستسلم أمام سلاح يُشهر عليه.

أثارت الرعونة المقرونة بالحماس والحماس المقرون بالرعونة،

توماس بشكل رائع. تضاجعاً طويلاً جداً. كان يراقب وجهها المكسو بلطخات حمراء مفتشاً فيه عن الهيئة المرتبعة لأمرأة يتعدم أحدهم إيقاعها فتسقط. كان هذا التعبير الذي لا يضاهي يُصعد تيار الإثارة المتدفق إلى رأسه.

عندما انتهيا، ذهب للاغتسال في غرفة الحمام. فلتحت به وشرحت له مطرولاً عن مكان الصابون وكف الحمام وكيف عليه أن يتصرف للحصول على المياه الساخنة. فاستغرب أن تشرح له هذه الأمور البسيطة بهذا الإسهاب. فقال لها إنه فهم وإنه يرغب في البقاء وحيداً في غرفة الحمام.

قالت له بنبرة متولدة: «ألا تريدين أن أشاهدك وأنت تغسل؟».

لكنه نجح أخيراً في إخراجها. كان يغسل ويبول في المغسلة (وهذه عادة شائعة عند الأطباء التشيكيين). كان يساوره شعور أنها تتحرك جيئة وذهاباً بنفاذ صبر أمام غرفة الحمام، مفتشةً عن ذريعة تمكنها من الدخول إلى هناك. عندما سُكِّر الحنفيات، لاحظ أن السكون تام في الشقة، فخيَّل إليه أنها كانت تراقبه، كان شبه متأكد أنها تلصق عينها الجميلة الطارفة في ثقب الباب.

عندما غادر، شعر أنه رائق المزاج. كان يحاول أن يتذكر الأساسية، وأن يكتشف هذه الذكرى في صيغة كيميائية تسمح له بتحديد التفرد (أي هذا الجزء من مليون من الاختلاف) الخاص بهذه المرأة. فتوصل في النهاية إلى صيغة تتألف من ثلاثة عناصر:

- 1 - الرعنونة المقرونة بالحماس.
- 2 - الوجه المذعور لشخص يختلس توازنه ويسقط.
- 3 - الساقان المرفوعتان الشبيهتان بذراعي جندي يستسلم أمام سلاح يُشهر عليه.

عندما كان يتلو على نفسه هذه الصيغة، كان يغمره شعور مشرق،
شعور بأنه تمكّن مرة أخرى من الاستحواذ على جزء من عالم، بأنه
اقطع بمبعضه الوهمي قطعة رقيقة من نسيج القماشة اللامتناهية للكون.

12

هاكم ما جرى معه في الفترة نفسها تقريباً: كان يلتقي مراراً بامرأة شابة في شقة كان يعيده إياها صديق حميم كل يوم حتى منتصف الليل. بعد مرور شهر أو شهرين ذكرته بأحد لقاءاتهما: كانوا يمارسان الحب فوق السجادة أمام النافذة، وكانت البروق تلتفع والرعود تز مجر. مارسا الحب في أثناء هبوب العاصفة.. وكان الأمر، كما كانت تقول، جميلاً لا ينسى.

كان توماس يسمعها متعجبًا: نعم، كان يتذكر أنهم تضاجعاً فوق السجادة (إذ لم يكن في شقة صديقه الصغيرة سوى سرير واحد ضيق لا يُشعره بالارتياح) ولكنه نسي تماماً أمر العاصفة! يا للعجب! فهو كان قادرًا على تذكر اللقاءات القليلة التي جمعته بها، حتى أنه كان يتذكر بالضبط الطريقة التي كانا يتضاجعان بها (فهي كانت ترفض أن يلجهها من الخلف)، وكان يتذكر أيضاً الجمل القليلة التي تتفوه بها أثناء المواقعة (فهي كانت تطلب منه أن يضمّ وركيحاً بقوّة، وكانت تعارض إذا نظر إليها) ويذكر كذلك «تفصيلة» ثيابها الداخلية - ولكنه لم يعد يتذكر العاصفة إطلاقاً.

لم تكن ذاكرته تسجل من مغامراته العاطفية غير الممزوجة الضيق الوعر للامتلاك الجنسي: الكلام المثير الأول، واللاماسة الأولى والعبارة الفاجرة الأولى التي قالها لها والتي قالتها له وكل الممارسات المتهتكة الصغيرة التي كان يفرضها عليها شيئاً فشيئاً، أو حتى تلك التي كانت ترفض القيام بها. أما البقية فكانت مستبعدة (ويعني ذلك تقارب

الادعاء) من ذاكرته. كان يتغافل أيضاً عن المكان الذي التقى فيه هذه المرأة أو تلك، لأنَّ هذه اللحظة حديث قبل الامتلاك الجنسي.

كانت المرأة الشابة تتحدث عن العاصفة فيما تغمر وجهها ابتسامة حالمه. وكان هو ينظر إليها متعجباً وبشِيء من الخجل. فهي عاشت شيئاً جميلاً لم يشاركها فيه. كانت ردة الفعل الثانية لذاكرتهما تجاه العاصفة الليلية تعبر عن كل الاختلاف الذي يمكن أن يوجد بين الحب واللأحب.

لا أقصد باللأحب أنَّ توماس قد تصرف بحقاره مع المرأة الشابة، أو أنه لم يكن يرى فيها إلاً أداة جنسية. على العكس، فهو كان يحبها وكأنها صديقة ويقدر شخصيتها وذكاءها، لا بل كان مستعداً لمساعدتها كلما احتاجت إلى ذلك. لم يكن هو الذي يتصرف معها بسوء وإنما ذاكرته التي أقصتها بعيداً عن دائرة الحب دون أن يكون له هو دخل في الأمر.

يبدو أنَّ في الدماغ منطقة خاصة تماماً ويمكن تسميتها بـ«الذاكرة الشاعرية»، وهي التي تسجل كل الأشياء التي سحرتنا أو التي جعلتنا ننفعل أمامها، وكل ما يعطي لحياتنا جمالها. مذ تعرف توماس إلى تيريزا، لم يعد لأي امرأة الحق في أن تترك أثراً ولو عابراً في هذه المنطقة من دماغه.

كانت تيريزا تحتل ذاكرته الشاعرية باستبداد، مكتسحة منها كل أثر للنساء الآخريات. لم يكن هذا عادلاً لأنَّ المرأة الشابة التي مارس الحب معها مثلاً فوق السجادة أثناء العاصفة لم تكن أقلَّ جدارة من تيريزا بذاكرته الشاعرية. كانت تصرخ له: «أغمض عينيك وامسكنني من وركي ثم ضمني بقوّة!». لم تكن تستطيع أن تتحمل عيني توماس مفتوحتين، ومتيقظتين ومتفحصتين أثناء الجماع. ولم تكن تتحمل أيضاً

أن يكون جسده الذي يعتلي جسدها غير ملتصق به تماماً. لم تكن تريد أن يتفحصها توماس بل كانت تريد أن تجذبها إلى بحر السحر الذي لا يمكن الولوج فيه إلا بعينين مغمضتين. كانت ترفض أن تدب على الأربع لأن جسديهما في هذا الوضع يتلامسان بالكاد، ولأنه كان يستطيع مراقبتها من مسافة تقارب الخمسين سنتمراً. وهي كانت تكره هذه المسافة. لذلك، كانت تؤكّد أمامه بإصرار، وهي تنظر إلى عينيه، أنها لم تكن تستمتع بذلك، مع أنّ السجادة كلّها تبللت من ماء ارتعاشتها. وكانت تقول: «لا أفترش عن المتعة بل أفترش عن السعادة. والمتعة دون السعادة ليست بمتعة». وبكلمة أخرى، كانت تدق على باب ذاكرته الشاعرية ولكن الباب كان مغلقاً. لم يكن هناك مكان لها في ذاكرة توماس الشاعرية. لم يكن هناك لها إلا فوق السجادة.

ابتدأت مغامرة توماس مع تيريزا في المكان الذي تنتهي عنده بالضبط مغامراته الأخرى مع النساء. كانت المغامرة مع تيريزا تجري في الجانب الآخر من الضرورة التي تدفعه لامتلاك النساء. فهو لم يكن ينوي نزع أي حجاب عند تيريزا. لقد وجدها متزوجة من زوجها. ومارس معها الحب دون أن يصرف وقتاً في الأخذ بمبعشه الوهمي الذي كان يشرط به جسد العالم المسجى. وقع في حبها دون أن يصرف وقتاً في التساؤل كيف ستكون أثناء الجماع.

حكاية الحب لم تبدأ إلا فيما بعد: كانت الحمى تتباين ولم يكن يستطيع أن يرجعها إلى بيتها كما كان يفعل مع النساء الآخريات. كان راكعاً أمام سريرها عندما خطرت له فكرة أنها أرسلت إليه في سلة مع مجرى المياه. سبق لي أن قلْتُ آنفًا إن الاستعارات خطيرة وإن الحب يبدأ من استعارة. وبكلمة أخرى: الحب يبدأ في اللحظة التي تسجل فيها امرأة دخولها في ذاكرتنا الشاعرية من خلال عبارة.

ما لبست تيريزا أن جددت مكانتها في حياته: ذهبت لشراء الحليب كما في كل صباح، وعندما فتح لها الباب رأها تضم طائر زاغ ملفوفاً بالمنديل الأحمر إلى صدرها، كما تحمل الغجريات أطفالهن بين أذرعهن. لن يكون في إمكانه أن ينسى أبداً منقار الزاغ الضخم البارز من وجهه وكأنه اتهام.

وَجَدَتْهُ شَبَهَ مَدْفونَ كَمَا كَانَ يَعْمَلُ الْقَوْزَاقِيُّونَ قَدِيمًا أَعْدَاءِهِمُ الَّذِينَ يَقْعُونَ فِي الْأَسْرِ. «إِنَّهُمْ أَطْفَالٌ، الَّذِينَ فَعَلُوا بِهِ هَذَا»، كَانَ فِي هَذِهِ الْجَمْلَةِ شَيْءٌ أَكْثَرُ مِنْ مُجْرَدِ تَقْرِيرٍ. كَانَتْ التَّعْبِيرُ عَنِ الْفَرْقِ الَّذِي تَمْلِكُهَا فَجَأًةً مِنِ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ. فَتَذَكَّرُ أَنَّهَا قَالَتْ مُؤْخَرًا: «صَرَّتْ أَشْعُرُ بِالْأَمْتَانِ لَكَ لَأَنِّكَ لَمْ تَرْغُبْ قَطْ فِي إِنْجَابِ الْأَطْفَالِ».

البارحة، كانت تشتكى من أن أحدهم شتمها في الحانة التي تعمل فيها. ثم أمسك عقد اللؤلؤ الذي تضنه حول عنقها مؤكداً أنها كسبته من الدعاية. كانت مضطربة تماماً، أكثر مما ينبغي، فتكرر توماس. وفجأة أزعجه فكرة أنه لا يراها إلا قليلاً منذ سنتين، ولا تنسى له الفرصة ليضم يديها طويلاً إلى يديه ويعندهما من الارتجاف.

كانت تراوده هذه الأفكار فيما هو ذاهب صباحاً إلى المكتب ليأخذ من الموظفة برنامج عمله اليومي. فوجد أن زبونا قد طلب استدعاءه هو بالتحديد لينظف له النوافذ. ذهب إلى العنوان المكتوب معكرا المزاج خائفاً من أن يكون الزبون امرأة أخرى تبعث في طلبه. كان الآن مستغرقاً كلياً في أفكاره عن تيريزا ولم تكن المغامرات تستهويه.

عندما فتح الباب، أحسن بالارتياح. رأى أمامه رجلاً طويلاً القامة محني الظهر. ثم إن ذقن الرجل طويلاً ومعقوف يذكره بأحدهم. ثم قال مبتسمًا: «تفضل يا دكتور» وأدخله إلى الصالون.

كان هناك شاب في انتظارهم. كان واقفاً محمر الوجه، ينظر إلى توماس وهو يحاول جاهداً أن يبتسم.

قال الرجل: «لا أرى أن هناك داعياً لأن أعرف أحدكمما إلى الآخر».

قال توماس دون أن يبتسم: «لا»، ثم مد يده إلى الشاب مصافحاً. كان ابنه.

ثم عرف الرجل ذو الذقن الطويل المعقود عن نفسه.

فقال توماس: «كنت واثقاً أنك تذكريني بأحد ما. كيف لا! بالطبع أعرفك! بالاسم فقط».

توزعوا على كنبات تفصل بينها طاولة واطنة. فكر توماس أن الرجلين الجالسين قبالته كانوا من صنيعه هو دون أن ينوي ذلك أو يرغب فيه: فهو قد صنع طفلاً تحت ضغط زوجته وصورة هذا الرجل الطويل المحنى الظهر تحت ضغط الشرطي.

ولكي يبعد عنه هذه الأفكار، قال: «حسناً، بأية نافذة علىي أن أبدأ؟».

فضحكت الرجالان قبالته دون تردد.

نعم، كان الأمر واضحاً، وهو لا يتعلق إطلاقاً بتنظيف النوافذ. فهو لم يستدعي إلى هنا من أجل التنظيف بل اجتذب إلى كمين. لم يكن قد تحدث مع ابنه من قبل. وهذه هي المرة الأولى التي يصافحة فيها. لم يكن يعرفه إلا بالنظر ولا نية عنده في أن يعرفه بشكل آخر. وهو لم يكن يريد أن يعرف عنه شيئاً آملاً أن يعامله ابنه بالمثل.

ثم قال الصحفي وهو يشير إلى رسم كبير مؤطر معلق على الجدار قبالة توماس: «ملصق جميل، أليس كذلك؟».

رفع توماس عينيه للمرة الأولى مذ دخل. كانت الجدران مكسوة

بلوحات لافتة للنظر وبصور وملصقات كثيرة. كان الرسم الذي أشار إليه الصحافي قد ظهر في أحد الأعداد الأخيرة من المجلة الأسبوعية قبل أن يمنعها الروس من الصدور. كان الملصق اقتباساً عن ملصق شهير ظهر سنة 1918 خلال الحرب الأهلية الروسية، وكان يدعو الشعب للانضمام إلى الجيش الأحمر. كان يمثل جندياً يرتدي قبعة مزينة بنجمة حمراء، ونظرته المفرطة في الصرامة تحدّق فيك مباشرةً، وكان يصوّب يده نحوك شاهراً سبابته. كان النص الروسي الأصلي يقول: «أيها المواطن ألم تنضم بعد إلى الجيش الأحمر؟» فاستبدل بالجملة التشيكية التالية: «أيها المواطن، ألم توقع أنت أيضاً على «اللوفي كلمة»؟».

كانت هذه مزحة موفقة جداً! فالألفا كلمة هي أول بيان كبير ظهر في ربيع 1968 وكان يطالب بنشر جذري للديمقراطية في النظام الشيوعي. وقع هذا البيان حشد من المثقفين ثم وقع عليه أناس عاديون. وبدأت تتدفق التواقيع حتى لم يعد بالإمكان إحصاؤها. وعندما اجتاح الجيش الروسي بوهيميا وبدأت عمليات التطهير السياسية، كان هناك سؤال موجه إلى المواطن يقول: «هل وقعت أنت أيضاً على بيان اللوفي كلمة؟» فصرّف هؤلاء الذين اعترفوا بأنهم وقعوا من وظائفهم في الحال.

قال توماس: «رسم جميل، أتذكّرُه».

ابتسم الصحافي قائلاً: «لنأمل ألا يكون جندي الجيش الأحمر ساماً ما نقول».

ثم أضاف ببررة جادة: «لكي يكون كل شيء واضحاً من البداية يا دكتور. هذا البيت ليس بيتي بل هذه شقة لصديق. إذاً، لست أكيداً من أن تكون الشرطة تسمعنا الآن. الأمر محتمل فقط. ولكن، لو أني دعوتك إلى بيتي، لكأن الأمر أكيداً».

ثم تابع من جديد بلهجة أكثر مرحًا: «ولكني أنطلق من مبدأ أنه ليس هناك ما يستوجب أن نخفيه على أحد. على أية حال، تصور المنفعة التي ستعود على المؤرخين التشيكيين في المستقبل! سيجدون حياة المثقفين كلهم موضوعة في ملفات الشرطة ومسجلة على شرائط كاسيت! هل عندك فكرة عن الجهد الذي يقوم به المؤرخ الأدبي لو أراد مثلاً إعادة كتابة الحياة الجنسية لفولتير أو بلزاك أو تولستوي؟ أماناً في حالة الكتاب التشيكيين، فلن يكون لديهم أدنى شك. فكل شيء مسجل، حتى أقل تهيدة».

ثم التفت ناحية آلات التسجيل الوهمية المخفية في الجدران، وقال بصوت عالٍ: «أيها السادة، أريد في مناسبة كهذه أن أشجعكم كالعادة على عملكم، وأن أقدم لكم الشكر باسمي وباسم مؤرخي المستقبل».

فضحك ثلاثة، ثم أخذ الصحفي يتكلم بإسهاب عن الظروف التي أحاطت بمنع مجلته من الصدور. وأخذ يتكلم أيضاً عما يفعله الآن الرسام الذي خطرت له فكرة أن يرسم هذا الكاريكاتور، وعما يفعله الآن غيره من الرسامين وال فلاسفه والأدباء التشيكيين. وبعد الاجتياح الروسي، سُرّحوا جميعاً من أعمالهم وصاروا إما منظفي زجاج أو حراساً في مواقف السيارات أو حراساً ليليين، وإما وقادين للمراجل في الأبنية الشعبية، أو صاروا، وفي أحسن الحالات، سائقي تاكسي، لأن هذا الأمر يحتاج إلى دعم مسبق.

لم يكن ما يقوله الصحفي غير مثير للاهتمام، ولكن توماس كان عاجزاً عن التركيز في معنى كلماته. كان يفكر في ابنه ويتذكر أنه التقاه في الشارع منذ بضعة أشهر. ولم يكن الأمر صدفة بالطبع. ولكن ما يفاجئه الآن هو أن يراه برفقة صحافي مضطهد من قبل السلطات. وهو من كان يحسب أن ابنه واقع لا بد تحت تأثير زوجته الأولى التي كانت

شيوعية متشددة. كان بإمكانه الآن أن يسأله كيف تسير الأحوال مع أمه، ولكن السؤال بدا له في غير موضعه خصوصاً في حضرة رجل غريب.

ثم وصل الصحافي أخيراً إلى صلب الموضوع. فقال إنَّ عدد الناس الموقوفين بسبب تمسكهم بآرائهم يتزايد باطراد. ثم أنهى حديثه بهذه الكلمات: «فقررنا أخيراً أن نقوم بعمل ما». فسأل توماس: «وماذا ت يريدون أن تفعلوا؟».

في هذه اللحظة، تدخل ابنه. كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمعه يتكلم فيها. فتعجب من اكتشافه بأنه كان يتأنى.

فقال: «استناداً إلى ما نعرفه، فإنَّ المساجين السياسيين يعاملون معاملة سيئة، وإنَّ وضع بعضهم خطير فعلاً. لذا قررنا أنَّ كتابة عريضة موقعة من المثقفين التشيكيين، والذين لا يزال لاسمهم وزن معين، ستكون أمراً جيداً».

لا، لم تكن هذه تأتأة وإنما حازوقة تجعل كلماته أكثر بطناً، بحيث إن كل كلمة يلفظها تبدو وكأنها موقعة ومنته بها رغمَا عنه. لا شك في أنه كان متتبهاً لهذا الأمر، لأنَّ خديه، بعد أن كان رجع إليهما لونهما الطبيعي، عاداً لل أحمرار من جديد.

سأل توماس: «هل ت يريدون أن أدلّكم على أنساً ينتمون إلى حقل اختصاصي ويإمكانهم مساعدتكم؟».

ضحك الصحافي قائلاً: «لا، لا نريد منك نصيحة. بل توقيعك!».

مرةً أخرى أحسَّ أنه موضع مدحِّ ! مرةً أخرى كان سعيداً لأنَّ أحدهم لم ينسَ بعد أنه كان جرّاحاً! فَمَانَعَ من باب التواضع: «اسمعوا جيداً! إذا كانوا قد طردوني فهذا لا يعني أنني طبيب مشهور!».

قال الصحافي وهو يتسم لتوماس: «لم ننس المقال الذي كتبته في مجلتنا الأسبوعية».

وبحماس لم يفهمه توماس ربما، هتف ابنه: «نعم!».

قال توماس: «لا أفهم ماذا يستطيع اسمي أن يفعل: إذا كان على عريضة من أجل المساجين السياسيين. فهؤلاء الذين يفترض بهم أن يوقعوا، يجب ألا يكونوا مغضوباً عليهم، وأن يكونوا قد حافظوا على حد أدنى من التأثير على الناس المسلمين زمام السلطة. ألا تعتقدون ذلك؟».

- «آه، بالطبع، يفترض بهؤلاء أن يوقعوا!!»، قال الصحافي وهو يضحك.

ثم أطلق ابن توماس ضحكة رجل عارف بالكثير من الأشياء. وقال: «إلا أن هؤلاء لن يوقعوا أبداً».

وأضاف الصحافي قائلاً: «لكن هذا لا يعني أننا لن نسعى لمقابلتهم، فنحن لسنا طيبين إلى درجة أنها سنوفر عليهم تشنج عضلات وجوههم. وأود لو تسمع اعتذاراتهم، فهي رائعة».

فضحك الابن ضحكة تنم عن موافقته على ما قيل.

وأضاف الصحافي: «بالطبع، سيؤكدون جميعاً أنهم متفقون معنا على جميع النقاط. ولكننا لو أصغينا إلى قولهم فعلينا أن نتصرف بطريقة أخرى: علينا أن تكون خبراء بالتعبئة بطريقة أكثر تعللاً وأكثر تكتماً. فهم خائفون من التوقيع وخائفون في الوقت نفسه من أن نظن بهم السوء إن لم يوقعوا».

ضحك الابن والصحافي معاً.

قدم الصحافي ورقة لتوماس كتب عليها نص وجيز حيث يطلب

من رئيس الجمهورية، وبلهجة مؤدية نسبياً، أن يُصدر عفوأً شاملأً عن المساجين السياسيين .

حاول توماس أن يجبل التفكير في الأمر سريعاً: العفو عن المساجين السياسيين؟ جيد جداً. ولكن هل سيتم العفو عنهم فقط لأنّ أنساً ينبذهم النظام (إذاً سجناء سياسيين محتملين) يطالبون به رئيس الجمهورية؟ النتيجة الوحيدة التي يمكن أن تصدر عن عريضة من هذا النوع هي أنه لن يتم العفو عن السجناء السياسيين، حتى ولو اتفق أنهم كانوا يتھيأون فعلاً للعفو عنهم !

ثم قطع عليه الابن هذه الأفكار: «المهم هو أن نجعلهم يعرفون أنه لا تزال في هذا البلد حفنة من الناس الذين لا يهابون شيئاً. وأن ظهر مَنْ مع مَنْ. وأن نفصل القمح الجيد عن الزؤان».

كان توماس يفكر: نعم، هذا صحيح. ولكن ما علاقة هذا بالمساجين السياسيين! فهناك أمر من أمرين: إما أن الأمر يتعلق بالحصول على العفو، وإما يتعلق بفصل القمح الجيد عن الزؤان. والأمران مختلفان.

سؤال الصحفي: «هل أنت متعدد يا دكتور؟».

نعم. كان متعددًا. ولكنه كان خائفاً من أن يقول هذا. كانت هناك على الحائط قبالته صورة الجندي الذي يشهر إصبعه مهدداً وهو يقول: «هل ما زلت متعددًا للانضمام إلى الجيش الأحمر؟» أو يقول: «المل توقيع بعد على الألفي كلمة؟» أو بالأحرى: «هل وقعت أنت أيضاً على الألفي كلمة؟» أو أيضاً: «ألا ت يريد أن توقيع على العريضة لالتماس العفو؟». وأياً يكن جوابه، كان الجندي يهدده.

كان الصحفي يشرح لتوه ما كان يفكر به في شأن هؤلاء الناس الذين على الرغم من أنهم كانوا مقتنيعين بضرورة العفو عن المساجين

السياسيين، يتذمرون في الوقت نفسه بألف حجة لكي لا يوقعوا على العريضة. وتلك الحجج كانت، حسب ما يقوله الصحافي، مجرد ذرائع يخفون خلفهما جبنهم. ماذَا بإمكانه إذاً أن يقول عن توماس؟

امتد الصمت طويلاً ولكن توماس قطعه هذه المرة ضاحكاً. ثم أشار إلى الرسم المعلق إلى الجدار وقال: «انظروا إلى هذا الرجل الذي يهددني سائلاً هل سأوقع أم لا. يصعب علينا التفكير تحت وطأة نظرته».

ضحك ثلاثة طويلاً.

ثم قال توماس: «حسناً. سأفكر في الأمر. ألا يمكننا أن نلتقي في الأيام المقبلة؟».

قال الصحافي: «يسري جداً أن أراك. ولكن لم يعد هناك متسع من الوقت لإنجاز هذه العريضة. إذ إننا سنسلمها غداً إلى رئيس الجمهورية». «غداً؟».

كان توماس يفكّر في الشرطي السمين الذي أعطاه الورقة حيث كان يتوجب عليه بالتحديد أن يشي ضمنها بالرجل ذي الذقن الطويل والمعقوف. كان الجميع إذاً يريدون إجباره على توقيع نصوص لم يكتبها بنفسه.

قال ابنه: «في هذه الحالة لن يكون هناك داع للتفكير».

كانت الكلمات فظة ولكن النبرة يشوبها شيء من التوسل. هذه المرأة نظر أحدهما إلى الآخر مباشرة. فلاحظ توماس أنَّ ابنه كان يرفع قليلاً الزاوية اليسرى من شفته العليا، حين يمعن النظر. كانت هذه التكشيرية تشبه تكشيرته هو حين كان يتحقق بدقة أمام المرأة ما إذا كانت

حلاقة لحيته جيدة. لذلك فإنه لم يستطع أن يكتب شعوره بالانزعاج لدى رؤيته هذه التكشيرة تحديداً على وجه شخص آخر.

عندما يعيش المرء باستمرار مع أولاده فإنه يعتاد إذاً على مثل هذه الخصال ويجدتها أمراً طبيعياً. وإذا حدث له ولاحظها فإن الأمر قد يُمتعه ربما. ولكن، كانت هذه المرة الأولى في حياته التي يتحدث فيها توماس مع ابنه! ولم يكن معتاداً على الجلوس قبالة تكشيرته هو بالتحديد.

افرضوا أن يداً بُترت منكم لكي تجري زراعتها لشخص آخر. ثم جاء أحدهم ذات يوم، وجلس قبالتكم وأخذ يشير بهذه اليد تحديداً في وجهك. لا شك أنكم ستخالونها فزاعة. مع أنكم تعرفون هذه اليد حق المعرفة، وستخافون من لمسها مع أن هذه يدكم. أخذ الابن يتتابع قائلاً: «أنت، كما أمل، في جانب المضطهدِين!».

طوال الحوار، كان توماس يتساءل هل سيخاطبه ابنه مع رفع الكلفة أو دونها؟ وهو حتى الآن كان يصوغ جمله بطريقة تجنبه هذا الاختيار. ولكنه هذه المرة اختار أخيراً. كان يخاطبه دون كلفة، وتيقن توماس فجأة من أن هذه التمثيلية بأكملها لم تكن تتعلق إطلاقاً بالتماس العفو للسجناء السياسيين، بل كان موضوع الرهان يتعلق بابنه: لو أنه يوقع على العريضة فإن مصيرهما سيتلاقيان وسيُضطر توماس إلى التقرب منه. أما إذا لم يقع فإن علاقتهما ستكون معدومة كما سبق لها أن كانت على الدوام. ولكن الفرق هذه المرة أنها لن تكون معدومة ببارادته هو، بل بارادة ابنه الذي سيتذكر لأبيه بسبب جبنة. ثم قال: «أعطيني هذه الورقة»، وأخذها.

وكما لو أنه أراد مكافأته على اتخاذه هذا القرار، قال الصحفي: «المقال الذي كتبته عن «أوديب» كان ممتازاً».

ناوله ابنه قلماً وقال: «من الأفكار ما يشبه جريمة اعتداء».

كان ثناء الصحفي يطربه ولكن استعارة ابنه بدت له مبالغة فيها وفي غير موضعها. فقال: «السوء الحظ، فإن هذه الجريمة لم توقع إلا ضحية واحدة: أنا. فبسبب هذا المقال لم أعد أستطيع القيام بعمليات جراحية لمرضى».

كان لهذه الكلمات وقع بارد يشوبه شيء من العدائية.

ولكي يمحو الصحفي هذا النشاز الصغير، استدرك (بذا أشبه شخص يقدم اعتذاره) قائلاً: «ولكن مقالك ساعد أناساً كثيرين».

كانت عبارة «مساعدة الناس» تعني لتوomas منذ الطفولة نشاطاً واحداً: الطب. ثم هل حدث لمقال في صحيفة أن ساعد أناساً من قبل؟ ماذا كان هذان الاثنين يريدان إفادته؟ أنهما يريدان حياته كلها إلى خواطر تعيسة كتبها عن «أوديب»، لا بل إلى أقل من هذا أيضاً: إلى كلمة «لا» وحيدة ساذجة كان تلفظ بها في وجه النظام

ثم قال (ودائماً بالنبرة الباردة نفسها ولكن دون أن يتعمد ذلك): «لا أعرف حقاً ما إذا كان هذا المقال قد ساعد أحداً ما. ولكنني خلال عملي كجراح أنقذت حياة أناس كثيرين».

ساد صمت جديد ثم قطعه ابنه قائلاً: «الأفكار أيضاً يمكنها أن تنقذ الحياة».

كان توomas يرى فمه هو بالذات في وجه ابنه، قائلاً في نفسه: «أمر مضحك أن نرى فمنا يتأنئ أمامنا».

وتتابع الابن بجهد ملحوظ: «ثمة أمر رائع في مقالتك وهو رفض المساومة. فهذه القدرة، والتي نحن في طريقنا إلى خسارتها، هي التي تميّز بوضوح الخير من الشر.. لم نعد نعرف ما معنى أن نكون مذنبين. فالشيوعيون وجدوا لأنفسهم ذريعة مفادها أن ستالين هو الذي خدعهم. كما عندما يبرر القاتل نفسه متذرعاً بأنّ أمه لم تكن تحبه وأنه كان محروماً من العطف. ولكنك جئت أنت فجأة وقلت: لا مكان للتبرير. إذ لم يكن أحد في روحه وضميره أكثر براءة من «أوديب». ومع ذلك فقد عاقب نفسه بعد أن رأى فعلته».

حاول توماس جاهداً أن يشيح بيصره عن الشفة التي كان يراها في وجه ابنته، فأخذ يولي انتباذه للصحافي. كان متضايقاً ويشعر برغبة في معاكستهما، فقال: «كما تعلمون، كل هذا لم يكن إلاّ سوء تفahم. فالحدود بين الخير والشر حدود ملتبسة بشكل لا يوصف.. لم أكن أطالب بالعقاب لأحد ولم يكن هذا هدفي. فإنّ عاقب أحداً لا يدرك ماذا يفعل أمر بربيري. أسطورة «أوديب» أسطورة جميلة. ولكن استخدامها بتلك الطريقة...». كان على وشك أن يضيف شيئاً ما ولكنه تذكّر أنه من المحتمل أن يُسجل قوله. وهو لم تكن لديه أدنى رغبة في أن يستشهد به مؤرخو العصور المقبلة. أو أنه كان يخاف بالأحرى من أن تستشهد به الشرطة. فالأمر الذي كانت طالبته به هو بالضبط هذه الإدانة لمقاله. فإنّ يتمكن أخيراً من سماعه من فمه هو بالذات أمر يقرّره. فهو يدرك أن كل جملة يتلفظ بها المرء في هذا البلد يمكن أن تبيّن ذات يوم على الراديو. فَصَمت.

سأل الصحافي: «ما الذي دفعك إلى تغيير رأيك؟».

فقال توماس: «بل إنني أتساءل بالأحرى ما الذي دفعني إلى كتابة هذا المقال». ثم تذكّر على الفور: كانت قد جنحت إلى صفة سريره مثل طفل متترك داخل سلة في مجاري المياه. نعم، هذا هو السبب

الذي دفعه للتفتيش عن هذا الكتاب، راجعاً إلى عهد حكايات روميلوس وموسى وأوديب. وفجأة رأها أمامه تضم إلى صدرها الزاغ الملفوف بالمتديل الأحمر. كانت هذه الصورة تريخه وكأنها تريد أن تقول له إنَّ تيريزا لا تزال حية وإنها كانت في هذه اللحظة في المدينة نفسها التي يقطن هو فيها، وأن لا شيء غير ذلك يهم.

قطع الصحافي الصمت قائلاً: «أنفهم موقفك يا دكتور. أنا أيضاً لا أحب أن يجازيني أحد. ولكننا لا نطالب بالعقاب لأحد بل نحن نطالب بوقف العقاب».

- «أعرف» قال توماس. كان يتقبل الفكرة بأنه سيقوم في خلال ثوانٍ بعمل نبيل ربما ولكن بالتأكيد غير مجيد إطلاقاً (لأنه لن يساعد بشيء المساجين السياسيين)، بعمل كان يستكرهه شخصياً (فهو كان يتصرف وفق شروط مفروضة عليه).

قال ابنه مرة أخرى (وبلهجة شبه متسللة): «إنه لمن واجبك أن توقع!».

واجبه؟ وهل سيكون ابنه من يذكره بواجبه؟ لا، هذا أسوأ ما يمكن أن يقال له! مثلث أمام عينيه من جديد صورة تيريزا وهي تحمل بين ذراعيها الزاغ. فتذكر أنها قالت له: إنَّ شرطياً جاء البارحة إلى العانة وراح يضايقها. كانت يداها تبدآن بالارتجاف من جديد. لقد كبرت. لا شيء كان ذا أهمية بالنسبة له، عداتها. هي وحدها تهمه، هي المتحدرة من صُدُفِ ست، هي الزهرة النابتة من ألم عرقى التّسا الذي أصاب رئيس القسم، هي التي كانت في الجانب الآخر من كل أنواع «المحتمات»، هي الشيء الوحيد الذي كان متمسكاً به فعلاً.

فلماذا عليه إذاً أن يتساءل بعد هل يجرد به أن يوقع أم لا؟ فهناك معيار واحد يزنُ به جميع قراراته وهو: لا يفعل شيئاً يمكنه أن يؤذى

تيريزا. لم يكن توماس قادرًا على إنقاذ المساجين السياسيين ولكنه كان قادرًا على إسعاد تيريزا. لكن لا، كان غير قادر أيضًا على تحقيق هذا الأمر. ولكنه كان متيقنًا من أنه في حال وقوع على العريضة فستأتي الشرطة لمضايقته أكثر من ذي قبل، وستبدأ يدا تيريزا بالارتجاف أكثر من ذي قبل.

قال: «إن إنقاذ زاغ مدفون حيثًا لهُو أكثر أهمية بكثير من إرسال عريضة إلى رئيس الجمهورية».

كان يعرف أن لا أحد سيفهم حرفًا مما يقوله، وكان هذا الأمر تحديداً يزيده رضى. كان يشعر بنشوة مفاجئة وغير متوقعة. تلك النشوة السوداء نفسها حين أعلن لزوجته بأنه لم يعد راغبًا في رؤيتها، لا هي ولا ابنتها. تلك النشوة السوداء نفسها حين رمى الرسالة التي ضمنها تخليه إلى الأبد عن مهنة الطبيب، في صندوق البريد. لم يعد واثقاً إطلاقاً أنه يتصرف بشكل حسن، إنما كان واثقاً أنه يتصرف حسب ما كان يرغب.

فقال: «اعذراني، لن أوقع».

15

بعد مرور بضعة أيام، أخذت الجرائد كلها تتحدث عن العريضة. بالطبع، لم يجر الحديث على أن العريضة كانت مجرد التماس بسيط لصالح المساجين السياسيين، أو أنها كانت مطالبة لإعتاقهم من السجن. لا، لم ترد في أية صحفية جملة من هذا النوع. وإنما كانت موضوعات الصحف ستتحدث مطلقاً وبعبارات غامضة ومتعددة عن دعوة مخربة لا بد أنها تشكل ذريعة لأشعال فتيل حرب جديدة ضد الاشتراكية. كانت أسماء الموقعين منشورة بحذافيرها ومصحوبة بشتائم وكلمات لاذعة تقشعر لها الأبدان.

كان الأمر متوقعاً بالطبع. فكل نشاط علني (تجمعاً كان أو عريضة أو تظاهرة في الشارع) لا ينظمه الحزب الشيوعي يُعتبر غير قانوني ويعرض للخطر كل من يشارك فيه. الجميع كانوا على علم بهذا الأمر. وربما هذا هو السبب الذي حدا بتوماس لأن يلوم نفسه أشد الملامة، لعدم توقيعه العريضة. فما الذي منعه حقاً من توقيعها؟ ما عاد يفهم بوضوح الحواجز الكامنة وراء هذا الرفض.

وها إنني أراه مرة ثانية كما بدا لي في أول هذه الرواية: أمام النافذة، ينظر عبر الباحة إلى حائط البناء المقابل.

إنه وليد هذه الصورة. فكما سبق وقلت لكم، أشخاصي لا يولدون من أجساد أمهاتهم كما تولد الكائنات الحية، ولكنهم يولدون من حالة أو من جملة أو من استعارة تحوي في داخلها برعم احتمال إنساني صميم يُخيّل للكاتب أنه لم يتَّسَّن له اكتشافه بعد أو أنه لم يكتب عنه شيئاً يستحق الذكر حتى الآن.

ولكن، ألا يجري دائماً التأكيد على أنَّ الكاتب لا يسعه أن يتحدث إلا عن ذاته؟

فالنظر بعجز عبر الباحة وعدم التوصل إلى قرار، وسماع القرقرة المعاندة للبطن أثناء لحظة احتدام عاطفي، والخيانة والعجز عن التوقف على متابعة الطريق الرائعة للخيانات، ورفع القبضة في موكب المسيرة الكبرى، وعرض النكات أمام آلات التسجيل التي أخفتها الشرطة، كل هذه الحالات عرفتها وعشتها بنفسي، لكنَّ أيّاً من هذه الشخصيات لا تتحدر من هذه الشخصية التي هي أنا والموجودة في بيان سيرتي. فشخصيات روائيتي هي إمكاناتي الشخصية التي لم تتحقق. هذا ما يدفعني لأن أحبهم كلهم ولأن أرتعب منهم في الوقت نفسه. ذلك أنَّ كل واحد منهم عَبَر حدوداً ليس في مستطاعي سوى الالتفاف حولها.

وهذه الحدود التي عبروها (والتي بعدها تنتهي «أناي») هي ما يشدني إليهم. لأنَّ في هذا الجانب الآخر وحده يبدأ السر الذي تسبِّر غوره الرواية. فالرواية ليست اعترافاً ذاتياً للكاتب، وإنما تقييب عَمَّا تصيره الحياة الإنسانية في الفخ الذي يسمُّ العالم. ولكن هذا يكفي. فلنعد إلى توMas.

توماس أمام النافذة ينظر عبر الباحة إلى الحائط المتسع للبنية المقابلة، ويشعر بنوع من الحنين إلى ذلك الرجل طويل القامة ذي الذقن الطويل المعقوف، وإلى أصدقائه الذين لم يعرفهم والذين لا يتسمى إليهم. كمن يلتقي بجميلة مجاهولة على رصيف المحطة وقبل أن يتتسنى له الوقت للدنو منها، تكون قد صعدت إلى عربة - نوم في قطار متوجه نحو لشبونة أو اسطنبول.

أخذ يفكِّر من جديد: ماذا كان يجدر به أن يفعل. حتى عندما كان يطرح جانباً كل ما له علاقة بالمشاعر، (مثلاً الإعجاب الذي كان يديه بالصحافي والغضب بسبب ابنه) فهو لم يكن يتوصل إلى معرفة هل كان عليه أن يوقع على النص الذي عُرض عليه أم لا.

هل صحيح أنه يجب علينا أن نرفع صوتنا حين يُسكت أحدهم رجالاً؟ نعم.

ولكن من جهة ثانية: لماذا كانت الصحف تعلق أهمية كبيرة على هذه العريضة. ألم يكن بإمكان الصحافة (وهي تقع بأكملها تحت إشراف الدولة) ألا تنبس بكلمة فيما يتعلق بالقضية من الأساس فلا يُعرف شيئاً عنها؟ إذا كانت قد تحدثت عنها فهذا يعني أنَّ الأمر يلائم أسياد البلاد! وأنَّ هذه أعطيته من السماء يستخدمونها من أجل تبرير حملة جديدة من الاضطهادات.

إذاً، ماذا كان يجدر به أن يفعل؟ التوقيع أو عدمه؟

بالإمكان أيضاً صوغ السؤال على الشكل التالي: أيهما أفضل،
الصراخ وتبجيل نهايتها، أم السكوت والحَرْز على احتضار أكثر بطنًا؟
أيوجد جواب واحد لهذه الأسئلة؟

ومن جديد خطرت له فكرة سبق لنا أن عرفناها وهي: الحياة الإنسانية لا تحدث إلا مرة واحدة، ولن يكون في وسعنا أبدًا أن نتحقق أي قرار هو الجيد وأي قرار هو السيء، لأننا في كل الحالات لا يمكننا إلا أن نقرر مرة واحدة. لأنه لم تعط لنا حياة ثانية أو ثالثة أو رابعة حتى نستطيع أن نقارن بين قرارات مختلفة.

وحال التاريخ كحال الإنسان. فالتشيكيون يملكون حكاية تاريخ واحدة. وذات يوم ستنتهي هذه الحكاية مثل حياة توماس دون أن يقدر لها أن تكرر مرة ثانية.

ففي سنة 1618، تشجع نبلاء بوهيميا وقرروا أن يدافعوا عن حرياتهم الدينية. ومن شدة حنقهم على الإمبراطور العجالس على عرشه في ثيينا، ألقوا من نافذة الـ «هرادخين»، باثنين من ممثليه الرفيعي المستوى. وهكذا ابتدأت حرب الثلاثين عاماً التي أدت إلى إبادة شبه تامة للشعب التشيكى. فهل كان التشيكيون يحتاجون آنذاك إلى الحذر أكثر مما كانوا في حاجة إلى الشجاعة؟ قد يبدو الجواب سهلاً ولكنه ليس كذلك.

بعد ثلاثة وعشرين سنة من هذا التاريخ، أي في سنة 1938 وعلى إثر مؤتمر ميونخ، قرر الشعب بأكمله أن يتخلى عن بلاده لهتلر. إذ هل من المعقول أن يقاتلوا آنذاك وحدهم عدواً يفوقهم عدداً بثماني مرات؟ لقد أظهروا إذاً، خلافاً لما فعلوا في سنة 1618، من الحذر أكثر مما أظهروا من الشجاعة. إن استسلامهم لهذا أرخ لبداية الحرب العالمية الثانية التي انتهت بخسارتهم الكاملة لحربيتهم كامة مستقلة لعشرين السنين ولعدة قرون ربما، فهل كانوا عندها يحتاجون إلى

الشجاعة أكثر مما كانوا في حاجة إلى الحذر؟ ماذا كان عليهم أن يفعلوا؟

لو كان بإمكان التاريخ التشكيلي أن يعيد نفسه، لكان تجربة الاحتمال الآخر أمراً مهماً بالطبع، لأنه إذ ذاك يمكن المقارنة بين النتيجتين. ولكن، بانعدام وجود هذه التجربة، فإن هذه البراهين كلها تبقى لعبة افتراضات.

مرة واحدة لا تُخسب، مرة واحدة هي أبداً. تاريخ بوهيميا لن يتاح له أن يتكرر مرة ثانية ولا تاريخ أوروبا أيضاً. فتاريخ بوهيميا وتاريخ أوروبا هما محاولات خطّهما انعدام الخبرة المحتم للبشرية. فالتأريخ خفيف بقدر ما هي الحياة الإنسانية خفيفة، خفيفة بشكل لا يطاق، خفيفة مثل الوير، مثل غبار متطاير، مثل شيء سيخفي غداً.

فَكَرْ توماس بشيء من الحنين أو من الحب ربما، في الصحافي الطويل القامة والمحني الظاهر. كان ذلك الرجل يتصرف وكأن كل ما يفعله سوف يتكرر مرات لا عد لها في سياق العود الأبدي. كان توماس متأكداً أنه لا يشك في أعماله، ومقتنعاً بأنه كان على حق. وهو لا يرى في يقين الرجل هذا دليلاً على بلادة الذهن بل علامه على فضيلة. كان يعيش في حكاية مختلفة عن حكاية توماس، في حكاية لم تكن محاولة أولية، مسوقة (أو لم تكن تعي نفسها على أنها كذلك).

16

بعد ذلك بوقت قصير، خطرت له أيضاً هذه الفكرة. وأنوّه بها لأنّي ضوءاً على الفصل السابق: لنفرض أنّ هناك كوكباً آخر في الكون حيث يمكن أن نولد مرة ثانية، وحيث يمكن أيضاً أن نتذكر تماماً ما حصل لنا في حياتنا السابقة على الأرض وكل التجربة التي اكتسبناها في هذه الدنيا.

ولنفرض أن هناك ربما كوكباً ثالثاً حيث يستطيع كل منا أن يبصر النور مرة ثالثة مزوداً بالخبرة التي اكتسبها خلالحياتين السابقتين اللتين عاشهما.

وأن هناك أيضاً وأيضاً كواكب أخرى حيث يمكن للجنس البشري أن يولد من جديد مرتقياً في كل مرة درجةً (أي حياة) على سُلم الكمال.

تلك هي الفكرة التي يكونها توماس عن العَوْد الأبدِي.

نحن أيضاً سكان هذه الأرض (أي الكوكب رقم واحد، كوكب عدم الخبرة)، ليس في إمكاننا طبعاً إلا أن نكون فكراً غامضة جداً عما يحل بالإنسان على الكواكب الأخرى. تُرى أيكون أكثر ثقلًا؟ هل الكمال في متناول يده؟ وهل يستطيع الوصول إليه بواسطة التكرار؟

ضمن أفق هذه البيوتوبيا وحده، يمكن لمفهومي التشاوُم والتَّفاؤل أن يكون لهما معنى: فالمتفائل هو ذلك الذي يتصور أن التاريخ الإنساني سيكون أقل نزفاً على الكوكب رقم 5. والمتشارِم هو من لا يصدق ذلك.

17

لجول فيرن رواية شهيرة كان توماس يحبها كثيراً عندما كان طفلاً وعنوانها «ستان من العطلة». وهذا صحيح، فإن الحد الأقصى لعطلة ما هو ستان.وها قد انقضت ثلاثة سنوات تقريباً وتوماس لا يزال منظفًا للزجاج.

خلال هذه الأسابيع الأخيرة، أخذ يكتشف (بحزن ولكن أيضاً بفرح غامض) أنه بدأ يتعب جسدياً (كان يشن كل يوم معركة وأحياناً معركتين جنسيتين) وأنه، دون أن يفقد شيئاً من شهيته للنساء، لم يكن

في استطاعته ممارسة الجنس معهن إلا لقاء شحن كامل لقواه كلها (لا يعني قواه الجنسية وإنما قواه الجسدية، فهو لم يكن يعاني صعوبات مع قضيه بل مع نفسه. وهذا بالضبط ما كان يبدو له مضحكاً).

كان يحاول ذات يوم أن يعيّن موعداً لفترة ما بعد الظهر. ولكن، وكما يحدث أحياناً، لم ترداً أي صديقة من صديقاته على الهاتف فأوشك ما بعد الظهر أن يكون فاحلاً. كان يشعر باليأس. حاول أن يتصل عشرات المرات بأمرأة شابة كانت طالبة في معهد التمثيل وجميلة جداً. كان جسدها الذي ذهبته الشمس على أحد شواطئ العراة في مكان ما من يوغسلافيا يزدهي بسمرة متسلقة تماماً وكأنه قلب على شيش يدور بدقة عجيبة.

خابرها من كل المخازن حيث كان يعمل ولكن دون جدوى. ونحو الساعة الرابعة، عندما كان راجعاً بعد انتهاء جولته إلى المكتب ليقدم لوائح الحساب الموقعة، نادته واحدة في شارع وسط براغ. كانت تبتسّم له قائلة: «دكتور، أين كنت تخبي؟ لقد سهوت عن بالي تماماً!».

كان توماس يبذل جهداً ليتذكر من أين كان يعرفها. هل هي إحدى مريضاته القديمتات؟ كانت تتصرف معه وكأنها صديقة حميّة فحاول أن يجيّبها بطريقة لا تُظهر أنه لا يعرف من تكون. وعندما كان يتساءل كيف سيقنعها بمرافقته إلى شقة صديقه الصغيرة والتي يملك مفاتحها في جيبه، كشفت له ملاحظة مفاجئة عمن تكون هذه المرأة: إنها الطالبة في معهد التمثيل، صاحبة الجسد البرونزي الرائع التي كان يخابرها دون توقف طوال النهار.

أمتعه هذا الحادث المزعج وأربعه في الوقت نفسه: فهو لم يكن منهكاً جسدياً فحسب بل عقلياً أيضاً. فَسَنَّا العطلة لا يمكن إطالتها إلى غير أمد.

كانت العطلة دون طاولة العمليات عطلة أيضاً دون تيريزا: فأيام بكمالها كانت تمر دون أن يتقابلوا. وحين يجتمعان أخيراً في يوم الأحد، كانوا يمثلان رغبة واحدهما في الآخر ولكن يظلان بعيدين كما في ذلك المساء حين رجع توماس من زوريخ وتوجّب عليهما أن يجتازا طريقاً طويلاً قبل أن يقدرا على التلامس أو المعاشرة. كانت العلاقة الجنسية تمنحهما المتعة ولكنها لا تمنحهما أية مواساة. فهي لم تعد تصرخ كما كانت تفعل من قبل حين كانت تصل إلى لحظة النشوة، بل كانت تبدو تكشيرتها وكأنها تعبر عن الألم وعن غياب غريب. لم يكونا متחדدين بحنان إلا في الليل أثناء النوم. كانوا يتماسكان دائماً بأيديهما فتنسى عندئذ الهاوية (هاوية ضوء النهار) التي كانت تفصل بينهما. ولكن هذه الليالي لم تكن تعطي توماس لا الوقت ولا الوسيلة لحمایتها والاعتناء بها. لذلك فهو عندما كان يراها في الصباح ينقبض قلبه ويرتجف خوفاً من أجلها: كانت تبدو حزينة ومتوعكة.

ذات يوم اقتربت عليه أن يركب السيارة وينطلقما إلى مكان ما في الريف. ذهبا إلى مدينة المياه المعدنية حيث اكتشفا أن جميع الشوارع هناك قد تغيرت أسماؤها وأصبحت روسية، وحيث التقى بأحد مرضى توماس القدامي. أثر فيه هذا اللقاء. فها إن أحداً يتحدث معه فجأة كما يجري التحدث مع طبيب. لقد اعتقاد لوهلة أنه استعاد حياته السابقة بنظاميتها المريحة وساعات المعاشرة ونظرات المرضى الوافقة التي كان يتظاهر بأنه لا يغيرها اهتماماً فيما هي تمنحه حقاً الرضا الذي يفتقر إليه.

أخذ توماس إذاً يردد في نفسه، وهو يقود السيارة أثناء عودتهما، إن رجوعهما من زوريخ إلى براغ كان خطأ فادحاً. كان يُبقي عينيه

مسمرتين باتجاه الطريق كي يتعاشى رفية تيريزا. كان حضورها إلى جانبه ينكشف له في كل احتماليته التي لا تُحتمل. فلماذا كانت إلى جانبه؟ ومن ذا الذي وضعها في سلة وتركها لتجري مع المياه؟ ولماذا قُدر لها أن ترسو على سرير توماس؟ ولماذا هي بالذات دون سواها؟

كانا يسيران في السيارة ممتنعين عن الكلام طوال الطريق.

كان الصمت يتصلب بينهما كالشقاء، ويُثقل في كل دقيقة. ولكي يتخلصا منه أسرعا إلى النوم. وأنباء الليل أيقظها ليخلّصها من نحيبها فأخبرته: «كنت مدفونة. منذ زمن بعيد. وكنت تأتي لزيارتني كل أسبوع. كنت تقع على السرداد فأخرج. كانت عيناي ممتلتتين تراباً». كنت تقول: «أنت لا تستطيعين أن ترى شيئاً». ثم أخذت تزيل التراب عن عينيَّ.

وكنت أردة عليك: «لكني في جميع الأحوال لن أرى شيئاً. فهناك فجوتان مكان العينين».

ثم ذهبت مدة طويلة وكانت أعرف أنك برفقة امرأة أخرى. كانت الأسابيع تمرّ وأنت لا تعود. وأنا لم أعد أنام إطلاقاً، لأنني كنت أخاف من أن أفوّت عودتك. وذات يوم رجعت أخيراً وقرعت على السرداد، ولكنني كنت منهكة لأنني لم أنم منذ شهر كامل، فالكلاد كانت لي القوة لأخرج من السرداد. وعندما تمكنت من ذلك أخيراً، كنت تبدو وكأنك خائب. كنت أعرف أنني لا أروق لك وأن خديٍّ غائران وأنني أقوم بحركات فظة وغير متماسكة.

ولكي أعتذر إليك، قلت: سامحني لم أنم منذ ذلك الوقت.

فقلت لي بصوت مطمئن، لكن خادع: أرأيتِ، يجب أن ترتاحي، أن تأخذني عطلة شهر..

وكنت أعرف جيداً ماذا تقصد وأنت تتحدث عن العطلة! كنتُ

أعرف أنك تريد أن تبقى شهراً كاملاً دون أن تراني لأنك ستكون برفقة واحدة أخرى. ذهبت ونزلت أنا من جديد إلى عمق القبر. كنت أعرف أنني سأبقى شهراً آخر دون نوم لأنني لا أريد أن أفوت عودتك. وأعرف أيضاً أنك حين ستعود بعد شهر، سأكون أشدّ قبحاً وستكون أكثر خيبة من قبل.

لم يكن قد سمع في حياته حكاية مزقت قلبه بهذه الحكاية. أخذ يضم تيريزا وجسدها يرتعش بين ذراعيه. كان يفكر أنه لم تعد لديه القوة ليتحمل الحب الذي يكتئ لها.

يإمكان الكوكب أن يتهاوى على أثر تفجير القنابل. ويمكن للوطن أن ينهي كل يوم مختلس جديد، ويمكن لسكان الحي جميعهم أن يُساقوا إلى كتيبة الإعدام. يمكنه أن يتحمل كل هذا بسهولة أكبر مما يجرؤ على القول، ولكنه غير قادر على تحمل الحزن الذي يسببه حلم واحد من أحلام تيريزا.

كان يرجع إلى داخل الحلم الذي أخبرته به لتوها. كان يراها أمامه. كان يداعب خديها ثم يزيل التراب، بحذر شديد لثلا تلاحظ شيئاً من فجواتي عينيها. ويسمعها تقول هذه الجملة، الجملة الأكثر إيلاماً بين الجمل كلها: «لكني في جميع الأحوال لن أرى شيئاً. هناك فجواتان مكان العينين».

كان قلبه ينقبض ويشعر أنه على شفير الإصابة بالسكتة القلبية. عادت تيريزا إلى النوم من جديد. ولكنه هو لم يستطع النوم. كان يتخيّلها ميتة وترى أحلاماً رهيبة. ولم يكن في استطاعته إيقاظها لأنها ميتة. نعم، هذا هو الموت: أن تنام تيريزا وترى أحلاماً فظيعة دون أن يتمكن من إيقاظها.

خمس سنوات قد مرت على اجتياح الجيش الروسي لبلاد توماس وبراغ كانت تغيراً كثيراً: لم يكن الناس الذين يصادفهم توماس في الشارع هم أنفسهم الذين كان يراهم في السابق، وكان نصف أصدقائه قد هاجروا والنصف الآخر، الذين لم يهاجروا، ماتوا. وهذا الحدث لن يدونه أي مؤرخ. كانت السنوات التي أعقبت الاجتياح الروسي، سنوات ماتم ، إذ لم يسبق أن حدثت وفيات بهذه الكثرة. لا أتكلم فقط عن الحالات (وهي نادرة على كل حال) حيث طورد أنساب حتى الموت كما حصل ليان بروخازكا. وبعد مرور خمسة عشر عاماً على إذاعة أحاديثه الخاصة المسجلة عبر الراديو يومياً، أدخل إلى المستشفى. لا شك أن السرطان الذي كان يرقد سراً داخل جسده منذ فترة طويلة بدأ يفتح مثل وردة. أُجريت العملية له بحضور الشرطة. وعندما اكتشفت هذه الأخيرة بأن ليس هناك منأمل في شفائه، كفت عن الاهتمام به وتركته يموت بين ذراعي زوجته. ولكن الموت كان يتزل أيضاً بهؤلاء الذين لم يكونوا مضطهدین مباشرة. كان اليأس الذي ضرب البلاد مستحوذاً على الأجساد وزارعاً الذعر فيها ينفذ أيضاً إلى الروح .. كان بعضهم يتهربون من النعم التي كان النظام يريد أن يغدقها عليهم لاجبارهم علانية على الظهور إلى جوار القادة الجدد. هكذا حصل مع الشاعر فراتشوك هروبين الذي مات وهو يتهرب من محبة الحزب. فللحقة وزير الثقافة، وهو الذي كان حاول بكل ما أوتي من قوة الفرار منه، لحقه حتى النعش وألقى على قبره خطبة ضمّنها محبة الشاعر للاتحاد السوفيياتي. ربما تلفظ بهذا الكلام الشنيع لعله يُقيّم الميت من رقاده. ولكن العالم كان من البشاعة بحيث إن ما من أحد كان يريد أن يُبعث من بين الأموات.

ذهب توماس إلى محرقة الجثث لحضور مأتم عالم إحياء شهير كان قد طُرد من الجامعة ومن أكاديمية العلوم. ولكي يتجنبا تحول الجنازة إلى تظاهرة، كانوا يحذرون الإشارة إلى ساعة الدفن على أوراق النعي. ولم يبلغوا الأقارب إلا آخر لحظة بأنّ الفقيد سيتم إحراقه في الساعة السادسة والنصف صباحاً.

عندما دخل توماس إلى صالة محرقة الجثث، وجد صعوبة في فهم ما كان يجري. كانت الصالة مضاءة وكأنها صالة استوديو. نظر حواليه مدھوشًا فلمح آلات التصوير في ثلاثة زوايا من الصالة. لا، ليس موظفو التلفزيون هم الذين يقومون بالتصوير. بل كانت الشرطة تصوّر حفل الجنازة لكي تتحقق من هوية المشاركين فيه. ثم تجرأ زميل قديم للفقيد، وهو كان لا يزال عضواً في أكاديمية العلوم، على إلقاء بعض كلمات أمام النعش. لم يكن يفكر أنه سيصير بهذه السهولة نجماً سينمائياً.

بعد الجنازة وبعد أن صافح الجميع عائلة الفقيد، لمح توماس في إحدى زوايا الصالة جماعة صغيرة فتعرّف فيها إلى الصحافي صاحب القامة الطويلة والمحنيّة. شعر من جديد بالحنين إلى هؤلاء الناس الذين لا يهابون شيئاً والذين تربط بعضهم ببعض صدقة قوية. اقترب منه وابتسم له هاماً بأن يقول صباح الخير ولكن الرجل ذا الجسد الفارع والمنحني قال له: «احذر يا دكتور، من الأفضل لا تقترب».

كانت هذه الجملة غريبة. فهو كان يرى فيها إنذاراً صادقاً ومحباً («احترس، إنهم يصوروتنا، لو توجهت إلينا بالكلام ستكون عندئذ نافعاً في استجواب جديد»). ولكنه لم يكن يستبعد في الوقت نفسه أنها كانت تتضمّن نبرة ساخرة («لم تنسِ لك الشجاعة لتوقع على العريضة. كن منطقياً إذاً ولا تتوافق معنا»). أيّاً كان التأويل الصائب لهذه الجملة، فإنّ توماس امتنع وانسحب. كان يشعر أن تلك الجميلة

المجهولة التي صادفها على رصيف المحطة كانت تصعد إلى عربة نوم في قطار سريع. ثم في اللحظة التي أراد أن يُسرّ إليها بإعجابه، وضعت إصبعاً على شفتيها لمنعه من الكلام.

20

وفي فترة ما بعد الظهر أيضاً جرى له لقاء هام. كان يقوم بتنظيف واجهة أحد محلات الأحذية عندما توقف رجل شاب على بعد خطوتين منه. انحنى الرجل فوق الواجهة ليتفحص الأسعار.

«كل شيء يزداد ثمناً»، قال توماس دون أن يكف عن تمرير اسفنجته على الزجاج المبلل.

التفت الرجل. كان ذلك الزميل في المستشفى، والذي دعوته س... والذى كان يبتسم ساخطاً على توماس معتقداً أن هذا الأخير كتب رسالة النقد الذاتية. سرّ توماس لهذا اللقاء (إنها المتعة الساذجة التي تجلبها لنا الصدفة) ولكنه ما لبث أن لمح في نظرة زميله (فهو لم يتسنّ له في الثانية الأولى الوقت ليتحكم برد فعله) تعبيراً عن مفاجأة لا تروق له.

- «كيف الحال؟» سأل س...

و قبل أن يصوغ جوابه فهم توماس أن س... كان خجلاً من سؤاله.. كان جلياً أنه تصرف أحمق أن يبادر طبيب لا يزال يمارس مهنته إلى أن يسأل طبيباً ينظف الوجهات، عن حاله.

- «في أحسن ما يكون». أجاب توماس وهو يتصئّل المرح لكي يخفف عن الطبيب ازعاجه. لكنه أحس فوراً أنّ عبارة «في أحسن ما يكون» يمكن أن تؤول رغمماً عنه (وبسبب النبرة الفكاهة التي لجا إليها بالذات).

لذلك استعجل يقول: «هل هناك من جديد في المستشفى؟».

فأجاب س...: «لا، كل شيء، لما ينزل على حاله».

ولكن هذا الجواب والذي كان يتظاهر بأنه محابيد كلياً، كان في غير موضعه تماماً. وكلّ منهما يعرف ذلك ويعرف أن الآخر يعرف: إذ كيف بإمكان كل شيء أن يكون على حاله فيما أحد الطيبين منظف زجاج؟

ثم قال توماس مترياً: «ورئيس القسم؟».

- «ألا تراه؟» سأل س...

فقال توماس: «لا».

كان هذا صحيحاً. فهو منذ رحيله عن المستشفى لم يرّ قط رئيس القسم ثانية، مع أنها كانتا في السابق متعاونين ممتازين وحتى أنها كانتا يميلان تقريرياً إلى أن يعودا نفسيهما صديقين. ومهما يكن، فإن «الalla» التي تلفظ بها لته كان فيها شيء من الحزن. فأخذ توماس يشك في أن س... قد استاء منه لأنّه طرح عليه هذا السؤال ذلك أن س... بالذات رئيس القسم لم يأتيا قط إلى زيارة توماس والسؤال عن أحواله أو عما إذا كان يحتاجا إلى شيء.

كان الحوار بين الزميين القديمين يصير مستحيلاً، ولو أنّ كليهما يأسف لذلك وخصوصاً توماس. فتوماس لم يكن يحمل أي ضغينة لأصدقائه بسبب أنهم نسوه. وكان في نيته أن يشرح ذلك في الحال للطبيب الشاب. كان راغباً في أن يقول له: «لا تتكلّف نفسك هذا الانزعاج. فأمّرْ طبيعي أنك لم تحاول التردد لزيارتني، فهذا يسير وفق المجرى المعروف للأمور. لا داعي لأن تحمل نفسك أي شعور بالخجل! ومن دواعي سروري أن ألتقيك!» ولكنّه لم يجرؤ على هذا القول، لأنّ أيّاً من كلماته لم يتضمن هذا المعنى الذي يحملها إياه

الآن. وفوق ذلك، يمكن لزميله القديم ساعتها أن يشتبه بأنه يُضمر سخريةً وراء جملة صادقة على كل حال.

وأخيراً قال س... «اعذرني، إني مستعجل». ثم صافحه وقال: «أتصل بك».

في السابق، حين كان زملاؤه يحتقرونه بسبب جبنه المفترض كانوا يتسمون له بكلهم. أما الآن، وفيما لم يعودوا قادرين على احتقاره، لا بل صاروا مرغمين على احترامه، فقد بدأوا يتحاشونه.

وفضلاً عن ذلك، فإن مرضاه القدامي لم يعودوا يدعونه إلى عب الشمبانيا احتفالاً به. والسبب أن وضع المثقفين المُبعدين لم يعد استثنائياً بل صار حالة مستمرة وغير مستحبة.

21

رجع إلى البيت ثم اندسَّ في الفراش ونام بسرعة أكثر من المعتاد. بعد نحو ساعة تقريرياً، أيقظه ألم في معدته. كان هذا ألمه القديم الذي يعاوده في لحظات الإحباط. ففتح خزانة صيدليته، لا توجد أدوية. شتم.. لقد نسي أن يتزود منها، فحاول أن يخمد نوبة الألم بقورة الإرادة ووُفق إلى ذلك تقريرياً، ولكنه لم يستطع الرجوع إلى النوم. عندما عادت تيريزا عند الواحدة والنصف صباحاً، رغب في أن يتحدث إليها. أخبرها عن الدفن وعن الصحافي الذي رفض التحدث معه وعن لقائه بزميله س...

قالت تيريزا: براغ تصير بشعة.

قال توماس: هذا صحيح.

بعد فترة قصيرة، قالت تيريزا بصوت منخفض: الأفضل هو أن نرحل عن هنا.

قال توماس: أجل، لكننا لا نستطيع الذهاب إلى أي مكان. كان يجلس على السرير مرتدياً بيجامته. جاءت وجلست قربه ثم طوّقه بذراعها.

قالت تيريزا: إلى الريف.

قال مدهوشًا: إلى الريف؟

- هناك سنكون وحدنا. لن نلتقي لا الصحافي ولا زملاءك القدامى. هناك سنلتقي أناساً مختلفين والطبيعة التي ما زالت على عهدها.

عندما أحسن توماس من جديد بألم غامض في معدته. كان يشعر أنه عجوز وأن لا رغبة له في شيء آخر عدا قليل من الطمأنينة والسلام. ثم قال بعد جهد، لأنه يتنفس بصعوبة عندما يكون مريضاً: «ربما أنت على حق».

أردفت تيريزا: سيكون عندنا كوخ وحديقة صغيرة وستمضي كارينا هناك أوقاتاً ممتعة جداً.

- «نعم». قال توماس.

ثم حاول أن يتصور ماذا سيحدث لو أنهما ذهبا حقاً للعيش في الريف. هناك سيجد صعوبة في أن يحظى بامرأة جديدة كل ثمانية أيام. هناك ستكون إذاً خاتمة مغامراته الجنسية.

كان الألم يزداد، ولم يعد في استطاعته الكلام. فتكر أن مطاردته للنساء كانت هي أيضاً «ما ليس منه بدّ» وضرورة تستعبده. كان راغباً حقاً في أن يأخذ عطلة. ولكن عطلة تامة وتسريراً من الضرورات كلها. إذا كان قد استطاع في السابق أن يطلب تسريراً من طاولة العمليات في المستشفى، فلماذا لا يكون في إمكانه أيضاً أن يطلب تسريراً من طاولة عمليات العالم حيث كان يفتح بمبضعه الخيالي خزنة

«الآن» الأنثوية فيكتشف هذا الجزء من مليون من الاختلاف؟
وأخيراً لاحظت تيريزا: هل معدتك تولمك؟
رداً بالإيجاب.

- هل حفنت نفسك بإبرة؟

أجاب نفياً برأسه، ثم أضاف: نسيت أن أشتري أدوية.
لامته على إهماله وداعبت جبينه الناضح بالعرق.
قال: أنا الآن أحسن حالاً.

قالت: «تمدد» ثم دثرته بالغطاء. ذهبت إلى غرفة الحمام ثم
عادت بعد قليل لتتمدد إلى جانبه.

أدبر رأسه نحوها على الوسادة فأصيب بالذهول: كان الحزن
المبعث من عيني تيريزا غير محتمل.

قال: اسمعني يا تيريزا! ماذا بك؟ أنت غريبة الأطوار منذ فترة.
أشعر بذلك وأعرفه.

هزّت رأسها: لا، ليس بي شيء.

- لا تنكري!

قالت: إنه الأمر نفسه دائمًا.

«الأمر نفسه دائمًا»، هذا يعني إذاً أنها كانت تشعر بالغيرة وأنه كان
خائناً باستمرار.

ولكن توماس كان يصرّ: لا يا تيريزا، هذه المرة، الأمر مختلف.
فأنا لم أرك في مثل هذه الحالة من قبل.

احتجت تيريزا قائلة: حسناً، ما دمت تريدين أن أقول لك: قم
واغسل رأسك!

لم يكن يفهم.

قالت بحزن ودون عداية وبشيء من الحنان: لشعرك رائحة نفاذة
منذ عدة أشهر. تفوح منه رائحة فرج. لم أكن أريد أن أقول لك ذلك.
ولكنها أنا لا أعرفكم من الليالي جعلتني أتشدق رائحة فرج إحدى
عشيقاتك.

وعلى إثر هذه الكلمات، عاودته تشنجات معدته. كان الأمر
ميسوراً منه. فهو كان يغتسل بإفراط ويفرك جسمه كله يديه ووجهه
بعناية فائقة كي لا يترك أي أثر لرائحة غريبة. كان يتحاشى في حمامات
النساء الآخريات أن يستعمل الصابون المعطر. بل كان يتزود دائماً
بصابونه الخاص المستورد من مرسيليا. لكن غاب عن باله أن يغسل
شعره. أما الشعر، فلا، لم يكن يفكر في الأمرا

تذكرة عندئذ المرأة التي كانت تفرشخ فوق رأسه وتأمره بأن
يضاجعها بواسطة وجهه وأعلى ججمته. كم كان يكرهها الآن! ويكره
هذه الأفكار البلياء! كان يجد أنه لا توجد وسيلة لأن ينكر. فهو لا
يسعه إلا أن يضحك بسذاجة ويتحضر للذهاب إلى غرفة الحمام ليغسل
رأسه.

أخذت تداعب جبينه من جديد. «ابق في سريرك. لا تحمل
نفسك هذا العناء. لقد تعودت على الأمر».

كانت معدته تؤلمه ولم يكن راغباً إلا في الهدوء والسلام.
قال: سأكتب رسالة إلى ذلك المريض الذي التقيناه في مدينة
المياه المعدنية. هل تتذكرينه في أي منطقة توجد قريته؟

قالت تيريزا: لا.

كان توماس يشعر بمشقة في الكلام. كان يوقف فقط إلى تلفظ
بعض الكلمات: «غابات... تلال...».

- «أجل، هذا ماعنيت. فلنرحل عن هنا». ولكن توقف عن

الكلام الآن. كانت لا تزال تداعب جبينه. كانا متهددين جنباً إلى جنب دون أن يقولا شيئاً. أخذ الألم ينحسر ببطء. وبعد قليل، استسلم كلاهما للنوم.

22

استيقظ في ساعة متأخرة من الليل متعجبًا من اكتشافه أنه رأى أحلاماً جنسية في منامه. كان لا يتذكر بوضوح إلا الحلم الأخير: كانت هناك امرأة عملاقة تسurg عارية في بركة للسباحة. كانت أطول منه بخمس مرات ويطئها مكسواً بشعر كثيف يمتد من بين فخذيها وحتى السرة. كان يراقبها من عند الحافة وهو في أشد الهياج. كيف أمكنه أن يكون مهتاجاً في الوقت الذي كانت تهدُ جسده آلام معدته؟ كيف أ يمكنه أيضاً أن تهيجه رؤية امرأة لا يسعها إلا أن تشعره بالقرف فيما لو كان مستيقظاً؟

فقال في نفسه: هناك عجلتان مستantan تدوران في اتجاه مخالف داخل آلات ساعة الدماغ. على واحدة منها الرؤى وعلى العجلة الثانية ردود فعل الجسد. فالسن الذي انطبع عليه صورة امرأة عارية يتشابك في الجهة المقابلة مع السن الذي سجلت عليه ضرورة الانتصاف. فلنفترض أن العجلة قفزت سناً واحداً لسبب أو لآخر. وأن سن التهيج اتصل صدفة بالسن الذي رسمت عليه صورة لسنونه تحلق في طيرانها، عندها سيتصبب قضيبنا لمرأى هذه السنونة.

من جهة ثانية، كان توماس قد اطلع على دراسة أجراها أحد زملائه وهو اختصاصي في مجال النوم. كان يؤكد فيها أن الرجل الذي يحلم، هو في حالة انتصاف دائمة أياً يكن حلمه. ارتباط الانتصاف بصورة امرأة عارية ليس إذا إلا طريقة ضبط اختيارها الخالق من بين آلاف الاحتمالات لينظم بها حركة آلات الساعة في رأس الرجل.

أما ما علاقة كل ذلك بالحب؟ فلا شيء. إذا دارت عجلة ستاً واحداً في رأس توماس فتهيئ لمرأى سنونو، فهذا لن يغير شيئاً في حبه لتيزيزا.

إذا كان الهياج الجنسي آلية يتسلى بها الخالق، فإنّ الحب، خلافاً لذلك لا يتمّي إلّا إلينا ويمكّنا من خلاله الإفلات من قبضة الخالق. فالحب هو حريتنا. الحب هو ما وراء كل «ما ليس منه بد».

ولكن هذا أيضاً لا يعطي فكرة كاملة عن الحقيقة. حتى ولو كان الحب مختلفاً عن آلية ساعة الجنس التي ابتدعها الخالق ليتسلّى، فهو مع ذلك موثوق إلى الجنس كما توثق امرأة غضة عارية إلى راقص ساعة هائلة.

قال توماس في نفسه: إنّ ربط الحب بالجنس هو إحدى الأفكار الأكثر غرابة للخالق.

وقال في نفسه أيضاً ما معناه: الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الحب من غباء الجنس قد تكون في ضبط الساعة بطريقة مختلفة في رأسنا فتهيئ لرؤيه السنونو.

وعلى هذه الفكرة العذبة، أخذه النعاس. وإذا هو على عتبة النوم، هناك في المساحة الساحرة للرؤى المشوشة، تيقن فجأة من أنه كان يكتشف حلّ الألغاز كلها، مفتاح السرّ، يوتوريا جديدة، الجنة: كان يكتشف عالماً حيث تنهيئ لرؤيه سنونو وحيث بإمكانه أن يحبّ تيريزا دون أن يضايقه الغباء الأرععن للجنس.
ثم نام من جديد.

23

كان وسط نساء شبه عاريات يحملن حوله وكان يشعر بالتعب. ثم، لكي يتمكن من الإفلات منهن، فتح باباً يؤدي إلى غرفة مجاورة. رأى

قبالته امرأة شابة مستلقية على أريكة. كانت هي أيضاً شبه عارية وليس عليها سوى سروال داخلي فقط. كانت مستلقية على جنبها ومتكئة إلى مرفقها وتنظر إليه وهي تبسم وكأنها عارفة أنه سيأتي.

اقرب منها فانتشرت سعادة قصوى في حنايا جسده. فها قد عثر عليها أخيراً وأصبح في مستطاعه الاختلاء بها. جلس قربها وهمس لها بضع كلمات فأسررت إليه بدورها ببعض الكلمات. كانت تشع هدوءاً وحركات يديها بطيئة ناعمة. طوال حياته حلم بمثل هذه الحركات الناعمة. طوال حياته فقد هذا الهدوء الأنثوي بالذات.

ولكن، في هذه اللحظة، انزلق من النعاس إلى الوعي الجزئي. كان في تلك المنطقة المحايضة حيث لا تكون في حالة النوم ولا في حالة اليقظة أيضاً. كان حانقاً من أنه رأى تلك المرأة تختفي، وكان يقول في نفسه: يا إلهي! يجدر ألا فقدتها. كان يحاول أن يستجمع قواه ليتذكر أين التقى بها وأي حياة عاش معها. هل من المعقول أن يتذكر هذا وهو يعرفها حق المعرفة؟ عزم على أن يتصل بها باكراً. ولكنه ارتجف خوفاً ل ساعته عندما فكر أنه لن يتمكن من الاتصال بها والسبب أنه لا يتذكر اسمها. كيف أمكنه أن ينسى اسم شخص يعرفه حق المعرفة؟ ثم عندما استفاق تماماً، فتح عينيه وقال في نفسه: أين أنا؟ عرفتُ، أنا في براغ. ولكن تلك المرأة هل هي من براغ أيضاً؟ لم التقيها في مكان آخر؟ أو ربما تعرفت إليها عندما كنت في سويسرا؟ لزمه بعض الوقت ليفهم أنه لم يكن يعرف هذه المرأة وأنها لم تكن لا من زوريخ ولا من براغ، بل من منطقة الحلم، لا من أي مكان آخر غير الحلم.

كان مضطرباً إلى حد بعيد فاستوى على حافة السرير. كانت تيريزا تنفساً عميقاً إلى جواره. كان يقول في نفسه إنَّ امرأة حلمه الشابة لا تشبه أي امرأة من النساء اللواتي عرفهن في حياته. تلك المرأة الشابة

التي بدت أليفة جداً، كانت غريبة عنه تماماً. ولكن هي من رغب فيها على الدوام. لو أنه وجد ذات يوم جنته الخاصة، هذا إذا افترضنا أن هناك جنة، فلا بد أنه كان سيعيش فيها إلى جانب هذه المرأة. كانت المرأة الشابة لحلمه هي «ما ليس منه بدّ» لحبه!

تذكّر عندئذ أسطورة «مأدبة» أفلاطون الشهيرة. ففي السابق كان البشر مزدوجي الجنس فقسمهم الله إلى أنصاف تهيّم عبر العالم يفتش بعضها عن بعض. الحب هو تلك الرغبة في إيجاد النصف الآخر المفقود من أنفسنا.

فلنفترض أن هذا صحيح وأن كل واحد منا يملك في مكان ما من العالم شريكاً كان يؤلّف معه فيما مضى جسداً واحداً. إذاً، النصف الآخر لتوomas هو المرأة الشابة التي رأها في منامه. ولكن لن يتستّن لأحد أن يصادف النصف الآخر من ذاته. لقد أرسلت له تيريزا، عوضاً عن المرأة، في سلة عبر مجرى المياه. ولكن ما الذي سيحدث لو أنه التقى فعلاً في وقت لاحق المرأة التي قدرت له، أي النصف الآخر من ذاته؟ لمن ستكون الأفضلية؟ للمرأة التي وجدها في سلة أم للمرأة الطالعة من أسطورة أفلاطون؟

أخذ يتصور بأنه يعيش في عالم مثالي إلى جوار امرأة حلمه.وها إن تيريزا تمُّر بالقرب من الشبابيك المفتوحة لدارتهما. ها إنها تتوقف وحيدة على الرصيف وتُلقي نحوه من بعيد نظرة حزينة، حزينة. عندئذ، سوف يشعر مرة أخرى بالألم تيريزا في قلبه! مرة أخرى سيكون فريسة الشعور بالشفقة وسيغور في روح تيريزا. وإذا ذاك، سوف يقفز من النافذة فيفاجأ بأنها تقول بمرارة ما عليه إلا أن يبقى حيث يشعر بالسعادة. ثم تقوم بتلك الحركات العصبية وغير المتماسكة التي أثارت حنقه على الدوام والتي وجدها مزعجة على الدوام. فيمسك بيديها المرتجفتين ويضمّهما إلى يديه بقوة ليهدئ من روّعهما. عندئذ أيضاً

سيعرف أنه مستعد لأن يترك في أية لحظة بيت سعادته، وأنه مستعد لأن يترك في أية لحظة الجنة التي يعيش فيها مع امرأة حلمه، وأنه سيخون «ما ليس منه بدّ» لحبه في سبيل الرحيل مع تيريزا، هذه المرأة المولودة من ست صدفٍ مضحكة.

كا جالساً على السرير ينظر إلى المرأة النائمة إلى جواره والتي كانت تمسك بيده أثناء نومها: كان يشعر نحوها بحب لا يفسر. لا شك أنها في هذه اللحظة غارقة في نوم هش جداً لأنها فتحت عينها وألقت نحوه نظرات مذعورة.

ثم سأله: إلام تنظر؟

كان يعرف أنه لا ينبغي له أن يوقظها بل أن يعيدها إلى النوم من جديد. حاول أن يجيئها بكلمات يمكن أن تبعث في فكرها شرارة حلم جديد.

فقال: أنظر إلى النجوم.

- لا تكذب، أنت لا تنظر إلى النجوم بل تنظر إلى الأرض.

- ولكن بما أننا في الطائرة، فإن النجوم تحتنا.

- «آه، حسناً» قالت تيريزا. كانت تشتد على يد توماس بقوة أكبر، ثم ما لبثت أن استرسلت في النوم. كان توماس يعرف أن تيريزا كانت تنظر الآن عبر كوة طائرة تعلق عالياً جداً فوق النجوم.

القسم السادس

المسيرة الكبرى

١

لم يتسع لنا أن نعرف الظروف التي مات فيها ابن ستالين إلاً من خلال مقال نشرته مجلة «الصانداي تايمز» عام 1980. فبعد أن أسره الألمان خلال الحرب العالمية، أدخل في معسكر الاعتقال نفسه مع ضباط إنكلترا أسرى. كانت مراحيلهم مشتركة في المعسكر وكان ابن ستالين يتركها دائمًا متسخة. وإنكلترا، لم يكونوا يحبون رؤية مراحيلهم ملطخة بالبراز، حتى لو كان ذلك البراز يخص ابن الرجل الأكثر نفوذاً في العالم آنذاك. كانوا يلومونه على ذلك فاستاء منهم. ثم عاودوا تأنيبه وأجبروه على تنظيف المراحيض. فغضب ثم تخاصل وتعارك معهم، وطلب في النهاية مقابلة آخر المعسكر. كان يريده أن يحكم في نزاعهم ولكن الألماني كان أكثر اعتزازاً بنفسه من أن يتجادل بخصوص البراز. فأطلق ابن ستالين شتائم روسية شنيعة ثم انقضّ باتجاه الأسلاك الشائكة المحيطة بالمعسكر والمزودة بتيار كهربائي ذي توتر عال. ترك نفسه يتهاوى فوق الأسلاك. وجسده الذي لن يلوث المراحيض البريطانية بعد الآن، بقي معلقاً هناك.

لم تكن حياة ابن ستالين سهلة. فلقد أنجبه والده من امرأة كان كل شيء يؤكد أنه سيقتلها يوماً. كان ستالين الابن إذاً ابنًا للإله (لأن أبوه كان مبجلاً وكأنه إله) وملعوناً في الوقت نفسه من الإله. كان الناس يهابونه لسبعين: الأول، لأنه كان بإمكانه أن يؤذيه بسلطته (فهو على كل حال ابن ستالين) وبصداقته (لأن الأب كان يمكنه معاقبة الصديق بدلاً من الابن المنبوذ).

اللعنة والحظوة، السعادة والشقاء، لا أحد أحسن مثله فعلاً إلى أي حد هذه التناقضات قابلة للتبدل فيما بينها، وإلى أي حد ضيقة هي الحافة التي تفصل بين قطبي الوجود البشري.

في بداية الحرب أسره الألمان وسجنهو إلى جانب أسرى آخرين ينتمون إلى أمة كان يشعر نحوها بكره عميق وجامح بسبب تحفظها الغريب. وفوق ذلك كانوا يتهمونه بأنه وسخ، هو الذي كان يحمل فوق كتفيه المأساة الأكثر عظمة التي قدر لها أن توجد (كان في الوقت نفسه بأنه ابن إله وملائكاً ساقطاً) فهل يجب أن يُدان بسبب أشياء غير عظيمة (لا تخص الله والملائكة) وإنما بسبب البراز؟ هل المأساة الأكثر عظمة والمأساة الأكثر ابتدالاً هما قريبتان بهذا الشكل المدوح؟ قريبتان بشكل مدوح؟ هل يمكن للتقارب إذاً أن يسبب الدوار؟

بالطبع، غداً عندما سيقترب القطب الشمالي من القطب الجنوبي إلى حد التلامس تقرباً، فسيختفي الكوكب حيثند وسيجد الإنسان نفسه في فراغ مدوح مما يجعله يستسلم لإغواء السقوط.

فإذا كانت اللعنة والنعمة شيئاً واحداً، إذا لم يكن هناك فرق بين العظيم والحقير، إذا كان بالإمكان إدانته بسبب البراز، فإن الوجود الإنساني يفقد معناه ويصبح خفيفاً خفة لا تُحتمل. عندما ينقض ابن

ستالين باتجاه الأسلاك الشائكة المكهربة، لكي يرمي هناك بجسده،
كأنما على كفة ميزان، فتصعد الكفة مدفوعة بالخفة غير المتناهية لعالم
صار دون أبعاد.

ابن ستالين قضى في سبيل البراز. ولكن الموت في سبيل البراز
ليس موتاً مجرداً من المعنى. فالألمان الذين ضخوا بحياتهم من أجل
توسيع إمبراطوريتهم أكثر باتجاه الشرق، والروس الذين ماتوا لكي تمتد
سلطة بلادهم أكثر صوب الغرب. أجل، كل هؤلاء ماتوا من أجل
بلادة، وموتهم مجرد من أي معنى ومن أي مغزى عام. أما موت ابن
ستالين فكان بالمقابل، الموت الميتافيزيقي الوحيد وسط البلادة
العالمية للحرب.

3

عندما كنت صغيراً، وبينما كنت أتصفح كتاب العهد القديم الذي
أعد للأطفال والمزيّن بصور رسمها غوستاف دورريه، كنت أرى الرب
فيها طائراً فوق غيمة. كان رجلاً عجوزاً له عينان وأنف ولحية طويلة.
وكنت أقول في نفسي إنه ما دام له فم فيفترض به إذاً أن يأكل، وإذا
كان يأكل فهذا يعني أن لديه أمعاء. ولكن هذه الفكرة كانت تزعبني في
الحال. ومع أنني كنت من عائلة ملحدة، فإنني كنتأشعر بأنَّ هذه
الفكرة المتعلقة بأمعاء الله فكرة تجديفية.

ومن دون أي إعداد لاهوتى، كان الطفل الذي كنته آنذاك يفهم
بشكل عفوي أنَّ هناك تناقضاً بين الدونيات والله. وكنت أفهم بالتالي
شاشة الفرضية الأساسية لعلم الإنسنة المسيحي والتي تقول بأنَّ
الإنسان خُلق على صورة الله ومثاله.

كان الغنوصيون القدامى يعون هذه المسألة بالوضوح ذاته الذي
كنت أراها فيه لما كنت في الخامسة من عمري. ولكي تُحسن هذه

المسألة اللعينة، كان ثالاتين، وهو أستاذ كبير للفنوصية في القرن الثاني، يؤكد أنَّ المسيح «كان يأكل ويشرب ولكنه لم يكن يتغوط». البراز إذاً هو معضلة لاهوتية أكثر صعوبة من معضلة الشر. فالله قد أعطى الحرية للإنسان وبذلك يمكننا أن نسلم بأنَّ الله ليس مسؤولاً عن جرائم البشر.

4

في القرن الرابع، كان القديس جيروم يرفض جذرياً أن يكون آدم وحواء قد تمكنا من ممارسة الحب عندما كانا في الجنة. خلافاً لذلك، كان جان سكوت إريجين وهو عالم لاهوتي شهير من القرن التاسع يسلُّم بهذه الفكرة. ولكن حسب رأيه، كان بإمكان آدم أن يجعل عضوه ينتصب بالطريقة نفسها تقريباً التي يرفع فيها ذراعه أو ساقه، إذاً ساعة يشاء وكيفما يشاء. ولا يتبدرون إلى أذهاننا أنَّ هذه الفكرة تخفي وراءها الحلم الأبدى للرجل المسكون بها جس العجز الجنسي. إنَّ لفكرة سكوت إريجين معنى آخر. إذا كان عضو الذكر يقوى على الانتصاب بمجرد إبعاز من الدماغ، ينبع عن ذلك أنَّ بإمكانه الاستغناء عن الإثارة. ذلك أنَّ العضو لا ينتصب نتيجة لاحتياج المرء بل لأنَّه يأمره بذلك. كان هذا اللاهوتي الكبير يعتقد أنَّ الشيء الذي لا يتفق والجنة ليس الجماع ولا اللذة التي تعقبه. إنما الشيء الذي لا يتفق والجنة هو الإثارة. فلنحفظ هذا جيداً: كانت اللذة موجودة في الجنة لا الإثارة.

نستطيع أن نجد من خلال نظرية سكوت مفتاحاً لتبرير لاهوتي (وبكلمة أخرى مفتاحاً لربانية) للبراز. فطوال الفترة التي سمح للإنسان فيها أن يسكن الجنة، إما أنه (تماماً كاليسوع حسب نظرية ثالاتين) لم يكن يتغوط، وإما أنَّ البراز لم يكن يُعتبر شيئاً كريهاً، وهذه الفرضية

أكثر قابلية للتصديق. حين طرد الله الإنسان من الجنة، أوحى إليه بطبيعته النجسة وبالقرف. وأخذ الإنسان يستر ما كان يُشعره بالعار، وما إن أزاح الحجاب حتى بهره ضوء عظيم. إذاً بعد أن اكتشف الإنسان الدنس، اكتشف في الوقت ذاته الإثارة. فمن دون البراز (بالمعنى الحرفي والمجازي للكلمة) لما كان الحب الجنسي كما نعرفه: تصحّه دقات في القلب وعمى في العواص.

كنت قد أشرت في القسم الثالث من الرواية إلى سابينا عندما كانت تقف نصف عارية مرتدية قبعتها الرجالية وإلى جانبها توماس وهو في كامل ثيابه. يَنْدَأُ أن هناك شيئاً لم أنظرق إليه. عندما كان كلّ منهما يراقب الآخر في المرأة وحين أحسست بتفاهة الموقف تشيرها، تصوّرت أنّ توماس سيُجلسها كما كانت، أي معتمرة القبعة الرجالية، فوق المرحاض، وأنّها ستفرغ أمعاءها في حضرته. أخذ قلبه يضرب مثل الطبل واختلطت عليها أفكارها فقلبت توماس على السجادة. في اللحظة التي تلت، كانت تزعق من فرط اللذة.

5

إنّ الجدال بين هؤلاء الذين يؤكدون أنّ الكون قد خلقه الله، وبين هؤلاء الذين يعتقدون بأنه وُجد وحده، يتناول أمراً يتتجاوز إدراكنا وتجربتنا. هنالك فرق كبير بين هؤلاء الذين يشكّون في الكينونة على النحو الذي أعطيت به للإنسان (قلّما يهم كيف وبواسطة مَنْ) وبين هؤلاء الذين يتبنّونها من غير تحفظ.

في أساس المعتقدات الأوروبيّة كلّها سواء كانت دينية أم سياسية، هناك دائماً الفصل الأول من سفر التكوين والذي يتفرع منه أنّ العالم خُلق كما كان يفترض به أن يكون، وأنّ الكائن طيب، وأنّ التناسل أمر محمود. فلنسمّ هذا الاعتقاد الجوهرى (الوفاق التام مع الكينونة).

إذا كانت كلمة براز يُستعاض عنها حالياً في الكتب بـ«نقط»، فهذا ليس لأسباب أخلاقية. يجب ألا نذهب إلى حد الادعاء بأنّ البراز شيء منافٍ للأخلاق! فالخلاف مع البراز خلاف ميتافيزيقي. هناك أمران من أمرتين: إما أن البراز شيء مقبول (إذاً لا تقولوا على أنفسكم بالمفاجأة وأنتم في المراحيض!), وإما أنّ الطريقة التي خلقنا بها تثير جدلاً.

يتجزء عن ذلك أنّ الوفاق التام مع الكينونة يتخد مثاله الأعلى عالماً يُنتهي منه البراز، ويتصرف كل واحد فيه وكأن البراز غير موجود. هذا المثال الجمالي يدعى «الكيتش».

«كيتش» هي الكلمة الألمانية ظهرت في أواسط القرن التاسع عشر العاطفي، ثم انتشرت بعد ذلك في جميع اللغات. ولكن استعمالها بكثرة أزال دلالتها الميتافيزيقية الأصلية وهي: إن الكلمة كيتش في الأساس نفي مطلق للبراز. وبالمعنى الحرفي كما بالمعنى المجازي «الكيتش» تطرح جانباً كل ما هو غير مقبول في الوجود البشري.

6

الثورة الداخلية الأولى لساينا على الشيوعية لم تكن ترتدي طابعاً أخلاقياً بل طابعاً جمالياً. فالشيء الذي كان ينفرها خاصة لم يكن بشاعة العالم الشيوعي أي (القصور التي تحولت إلى زرائب) وإنما قناع الجمال الذي يتستر به، وبكلمة أخرى «الكيتش» الشيوعي. ونموذج هذا الكيتش يتمثل في العيد الذي يسمى الأول من أيار.

كانت قد شاهدت مواكب الأول من أيار في تلك الحقبة حيث كان الناس لا يزالون متجمسين أو يواطئون على أن يظهروا كذلك. كانت النساء يرتدين قمصاناً حمراء أو بيضاء أو زرقاء. ولكن يعرضن من على الشرفات والنوافذ والزخارف من كل نوع: نجوم بخمس شعب وقلوب وأحرف. كانت تتقدم فصائل الموكب فرق أوركسترا صغيرة

لتوقع المشي المنتظم. وحين كان الموكب يقترب من المنصة كانت الوجوه الأكثر تقطيباً تشرق بابتسامة وكأنها تريد أن تثبت أنها راضية كما ينبغي، وبطريقة أصح، أنها موافقة كما ينبغي. وهذا الوفاق لا يتعلق بوفاق سياسي بسيط مع الشيوعية بل بوفاق مع الكائن في حد ذاته. كان عيد الأول من أيار يرتوى من المنهل العميق للوفاق التام مع الكائن. ولم يكن شعار الموكب المضممر واللامكتوب «تعيش الشيوعية» بل كان «تعيش الحياة»! قوة السياسية الشيوعية ودهاؤها يكمنان في أنهما استأثراً بهذا الشعار. وهذا الحشو التافه بالذات («تعيش الحياة») هو ما كان يدفع للالتحاق بالموكب الشيوعي حتى هؤلاء الأشخاص الذين كانوا لا يبالون إطلاقاً بالأفكار الشيوعية.

7

بعد انتهاء عشر سنوات، (كانت تعيش في أميركا آنذاك) كان أحد أصدقائها وهو سيناتور أمريكي يجول بها في سيارة ضخمة. كان أربعة صبية يجلسون متلاصقين على المقعد الخلفي. أوقف السيناتور سيارته فنزل الأولاد واندفعوا عبر مرجة كبيرة باتجاه ملعب يوجد فيه ميدان للتزلج. كان السيناتور قد بقي وراء المقود يراقب بعين حالمه القامات الصغيرة الأربع التي تندفع راكضة. ثم التفت إلى سابينا وقال وهو يرسم دائرة بيده تشمل الملعب والمرجة والأولاد: «هذا ما أدعوه السعادة».

لم تكن هذه الكلمات تعبيراً عن فرحة بالأطفال الذين يجرون وبالعشب الذي يطلع فحسب، بل كانت لفتة تفهم لأمرأة آتية من بلد شيوعي، من بلدٍ كان السيناتور مقتنعاً بأن العشب لا ينتبه فيه ولا الأطفال يجرون.

ولكن سابينا تخيلت للتوَ هذا السيناتور واقفاً فوق منصة في إحدى

ساحات براغ وعلى وجهه الابتسامة ذاتها التي يتوجه بها القادة الشيوعيون من أعلى منصاتهم إلى المواطنين المبتسمين بدورهم، السائرين في مواكب عند أسفل أقدامهم.

8

كيف يستطيع هذا السيناتور أن يعرف أنَّ في الأطفال يكمن معنى السعادة؟ هل كان يقرأ ذلك في أرواحهم؟ لكن ماذا لو انقضَّ ثلاثة منهم، ما إن يبتعدوا عن ناظريه، على الرابع وأخذوا يضربونه ضرباً شديداً متواتراً؟

لم يكن السيناتور يملك سوى حجة واحدة في صالح تأكيده: عاطفته. حين يتكلم القلب لا يعود لائقاً أن يُصدر العقل اعترافات. ففي مملكة «الكيتش» تسود ديكتاتورية القلب.

من الجلي أنه يجب أن يشارك أكبر عدد من الناس، الأحساس التي يشيرها «الكيتش»، من هنا لا حاجة تدعوه «الكيتش» لأنَّ يخالف ما هو مألوف. بل هو يستعين بصور أساسية راسخة بعمق في ذاكرة الناس: الابنة العاق، والوالد المهجور، والصبية الراکضون على مرجة، والوطن الذي جرت خياته، وذكرى الحب الأول.

«الكيتش» يُسيل دون انقطاع دمعَتَنِي ثائر. الدمعة الأولى تقول: ما أجمل أن يُهُرول صبية على مرجة.

والدمعة الثانية تقول: ما أجمل أن تتأثر الإنسانية جمِيعاً بمنظر صبية يركضون على مرجة! وحدها الدمعة الثانية تجعل «الكيتش كيتشاً».

ذلك أنَّ أخْوَة الناس جميعهم لا يمكن أن تُبنى أصلاً إلَّا على أساس «الكيتش».

لا أحد يعرف ذلك بصورة أفضل مما يعرفه السياسيون. فما إن يروا آلة تصوير على مقربة منهم حتى يهُبوا راكضين إثر أول طفل يصادفونه فيحملونه بين أذرعهم ويقبلونه على خده. «الكيتش» هو المثال الأعلى لكل السياسيين ولكل الحركات السياسية.

في مجتمع تتعايش فيه تيارات شتى وحيث يمكن لتأثير هذه التيارات أن يمحى أو يحدّ بعضها بعضاً، يبقى في المستطاع الإفلات تقريباً من محاكم «الكيتش». ويمكن للفرد عندئذ أن يحافظ على تميزه، وللفنان أن يخلق أعمالاً فنية مدهشة. ولكن في البلدان التي يستأثر فيها حزب سياسي بالسلطة كلها، نجد أنفسنا حالاً في مملكة «الكيتش» الديكتاتوري.

إذا كنت أقول ديكتاتوري فإني أقصد بذلك أن كل ما يطعن بـ«الكيتش» ملغى من الحياة: كل إظهار للفردية، (لأن أي نشاز هو بصمة في وجه الأخوة الbasme) وكل شك (لأن من يبدأ بالشك في التفاصيل الصغيرة يتوصل في نهاية المطاف لأن يشك في الحياة بحد ذاتها). كذلك السخرية (لأن كل شيء في مملكة «الكيتش» يؤخذ على محمل الجد)، وأيضاً الأم التي هجرت عائلتها، أو الرجل الذي يفضل الرجال على النساء مهدداً بذلك الشعار المقدس «تناسلوا وأملأوا الأرض».

انطلاقاً من وجهة النظر هذه، فإن ما يسمى بـ«الغولاغ» يمكن اعتباره ثغرة عفنة يرمي فيها «الكيتش» التوتالياري بأوساخه.

كانت السنوات العشر الأولى التي أعقبت الحرب العالمية الثانية هي الفترة الأكثر هولاً للرعب الستاليني. ففي تلك الحقبة بالذات

اعتُقل والد تيريزا لسبب تافه وطردت الفتاة التي كانت تيريزا والتي كان لها من العمر عشر سنوات من البيت. في ذلك الوقت، كانت سابينا في العشرين من عمرها تتبع دراستها في معهد الفنون الجميلة. كان أستاذ الماركسية يشرح لها ولزملائها في الدراسة تلك المسلمة البدائية للفن الاشتراكي التي تقول بأن المجتمع السوفياتي قد وصل به الرقي إلى درجة أن الصراع الجوهرى لم يعد صراعاً بين الخير والشر، بل بين الجيد والأفضل. لم يكن البراز (أى ما هو غير مقبول في الأساس) موجوداً إلا في الجهة الأخرى من العالم (في أميركا مثلاً) وانطلاقاً من هنا، أي من الخارج، يمكن له أن يدخل تحت شكل جسم غريب (الجواسيس مثلًا) إلى عالم «الأخيار والتخبئة».

في تلك الحقبة، الأفظع بين الحقبات كلها، كانت الأفلام السوفياتية التي تغص بها صالات السينما في البلدان الشيوعية منتشرة ببراءة غريبة. فالصراع الأكثر خطورة الذي يمكن له أن يحصل بين روسيين هو سوء التفاهم العاطفي: كأن يتوهם البطل مثلاً أن البطلة لم تعد تحبه أو أن تفكير هي الشيء نفسه حياله. وفي النهاية يرتعي كل منهما في أحضان الآخر وعبرات السعادة تنهر من أعینهما.

التفسير المتفق عليهاليوم لهذه الأفلام هو على النحو التالي: كانت هذه الأفلام تصف المثال الشيوعي فيما الواقع الشيوعي كان أكثر قفامة بكثير.

كان هذا الشرح يشير حنق سابينا: ففكرة أن عالم «الكبيتش» السوفياتي يمكن أن يصير حقيقة؛ وإمكانية أن تجبر على العيش فيه أمر يجعل بدنها يشعر. كانت تفضل دون أدنى تردد العيش في النظام الشيوعي الواقعي على الرغم من كل الاضطهادات والصفوف أمام محلات الجزاره. ففي العالم الشيوعي الواقعي، العيش ممكناً. أما في عالم المثال الشيوعي المتحقق، في هذا العالم المؤلف من البُلْه

المبتسدين الذين لا يمكن للمرء أن يتوجه إليهم بأية كلمة، فإنها قد تموت ذعراً في فترة لا تتعدي الثمانية أيام.

يبدو لي أن الشعور الذي كان «الكيتش» السوفيatic يوشه في نفس سابينا يشبه الذعر الذي عانته تيريزا أثناء حلمها الذي تسير فيه وسط النساء العاريات حول البركة، حيث كانت مرغمة على إنشاد أغاني فرحة. كانت هناك جثث عائمة على وجه الماء. ولم تكن تيريزا تستطيع أن تتوجه لأية امرأة بكلمة أو أن تطرح عليها سؤالاً واحداً. كانت تسمع جواباً واحداً فقط وهو المقطع التالي من الأغنية. ولم يكن بإمكانها أن ترمي أية واحدة منهن بنظرة متحفظة وإنما كن سيشنين بها مشيرات إلى الرجل الواقف في السلة فوق البركة؛ بأن يطلق عليها النار.

إن حلم تيريزا يفضح المهمة الحقيقة لـ«الكيتش» وهي أن «الكيتش» فناع يخفي وراءه الموت.

11

في مملكة «الكيتش» التوتاليتاري تعطى الإجابات مسبقاً محرومة بذلك أي سؤال جديد. ينتج عن ذلك أن الإنسان الذي يتساءل هو العدو الحقيقي لـ«الكيتش». السؤال هو مثل سكين يمزق القماشة المرسومة للديكور فيصبح في المستطاع رؤية ما يختبئ خلفها. هكذا شرحت سابينا لتيريزا معنى لوحاتها: من الأمام الكذب الصارخ، ومن الخلف الحقيقة التي لا يدرك كنهها.

إلا أن هؤلاء الذين يناضلون ضد الأنظمة المسماة توتاليتارية قلماً يمكنهم النضال من خلال أسللة وشكوك. فهم أيضاً بحاجة إلى قناعتهم وإلى حقيقتهم البسيطة التي يفترض أن يفهمها أكبر عدد ممكن من الناس وأن تحدث فيضاً من الدموع جماعياً.

ذات يوم، نظم حزب سياسي معرضًا للوحات سابينا في ألمانيا. أمسكت سابينا بالكتيب الذي يُعرف بها: أمام صورتها رسمت أسلاك شائكة. وفي الداخل كانت هناك نبذة عن حياتها تشبه مسيرة القديسين والشهداء: تعذّبت، وناضلت ضد الظلم، وأرغمت على ترك بلدتها المعذّب،وها هي الآن تتبع النضال. وكانت الجملة الأخيرة من النص تقول: «من خلال لوحاتها تقاتل من أجل الحرية».

اعتبرت ولكن أحداً لم يكن يفهمها.

كيف، أليس صحيحاً أن الشيوعية تضطهد الفن الحديث؟

أجبت بغضب: «عدوي ليس الشيوعية، بل هو الكيتش!».

ومنذ ذلك الحين أحاطت سيرة حياتها بالغموض. وفيما بعد حين وجدت نفسها في أميركا، توصلت حتى إلى إخفاء هويتها التشيكية. كان ذلك جهداً يائساً من قبela لتهرّب من «الكيتش» الذي أراد الناس أن يصنعوا من حياتها.

12

كانت تقف أمام حامل اللوحات الذي كان عليه لوحة غير مكتملة بعد، كان هناك رجل عجوز جالس وراءها على كنبة يراقب كل خط تخطيه بريشتها.

ثم نظر إلى ساعته وقال: «أظن أنه قد حان وقت الذهاب للعشاء».

وضعت مجموعة ألوانها جانباً وذهبت ل تستحم قليلاً في غرفة الحمام. نهض الرجل عن كنبته وانحنى ليتناول عصاه المسندة إلى الطاولة، كان باب المحترف يؤدي مباشرة إلى المرجة. كان المساء قد حلَّ

في الجانب الآخر، وعلى مسافة عشرين متراً، كان هناك بيت خشبي أبيض، نوافذ طبقته الأرضية مضاءة. كانت مشاعر سايبينا تهتز لرؤيه هاتين النافذتين تتلالان في المغيب.

كانت قد أكدت طوال حياتها عداءها لـ «الكيتش». ولكن ألم تكن تحمله هي أيضاً في أعماق نفسها؟ «كيتشها» تمثل في رؤية بيت هادئ عذب متناغم تولاه أم محبة وأب متشبع حكمة. نشأت هذه الصورة في داخلها بعد موت والديها. وبما أنّ مسار حياتها كان مختلفاً تماماً عن هذا الحلم الجميل، فإنّ إحساسها إذاً بسحره كان يزداد. كانت تُحس أكثر من مرة بأنّ عينيها تدمغان حين تشاهد على التلفزيون فليماً عاطفياً تعانق ابنة عاقفة فيه والداً مهجوراً، أو حين تشاهد عند المغيب نوافذ منزل تسكنه عائلة سعيدة.

كانت قد تعرفت إلى الرجل العجوز في نيويورك. كان غنياً ومُحباً للرسم. يعيش وحده في فيلاً في الريف مع زوجته التي كانت في العمر نفسه. كانت هناك ضمن ملكيته قبالة الفيلاً زريبة قديمة فحولها إلى محترف ودعا إليها سايبينا. ومنذ ذلك الوقت وهو يمضي أيامًا كاملة يتابع حركات ريشتها.

الآن، كان ثلاثتهم يتناولون العشاء. المرأة العجوز تنادي سايبينا بـ «ابنتي الصغيرة!»، ولكن خلافاً للمظاهر، العكس هو الصحيح: فسايبينا هنا كأم يتثبت ولداتها بتورتها، معجبين بها ومستعدّين لإطاعتها في حال شاءت أن تصدر الأوامر.

هل تكون قد وجدت أخيراً وهي على مشارف الشيخوخة الأبوين اللذين اسلخت منها وهي لا تزال شابة؟ هل وجدت أخيراً الأطفال الذين لم يتسمّ لها أن تتجهم؟

تعرف جيداً أنّ هذا وهم. فإذا قامتها عند هذين العجوزين الرائعين

ليست إلاً محطة مؤقتة. الرجل العجوز مصاب بمرض خطير، وزوجته حين تجد نفسها من دونه ستذهب للإقامة عند ابنتها في كندا. وعندئذ ستستأنف ساينما من جديد طريق الخيانات، وتترعرع في أعماق نفسها، في خفة الكائن التي لا تُحتمل، أغنية مضحكة تتحدث عن نافذتين مضيئتين تعيش خلفهما عائلة سعيدة.

هذه الأغنية تهزّ كيانها، ولكنها لا تأخذ انفعالها على محمل الجد. تعرف جيداً أن هذه الأغنية هي مجرد كذبة جميلة. وفي اللحظة التي يُعرف فيها «الكيتش» عن نفسه بصفته كذبة، يصير موقعه إذاً في جانب «اللاكيتش». وإذا فقد مقدراته السلطوية يصبح مؤثراً ككل ضعف بشري. ذلك أن لا أحد منا إنسان متفوق ولا أحد منا يستطيع أن يفلت نهائياً من قبضة «الكيتش». أيّاً يكن الاحتقار الذي يولده فيما «الكيتش»، فهو مع ذلك جزء من الوضع البشري.

13

مصدر «الكيتش» هو الوفاق التام مع الكائن.

ولكن ما هو أساس الكائن؟ هل هو الله؟ أم الإنسانية؟ أم النضال؟
أم الحب؟ أم الرجل؟ أم المرأة؟

في ما يتعلّق بهذا الموضوع هناك نظريات عدة تقابلها أنواع عدّة من «الكيتش» فهناك «الكيتش» الكاثوليكي والبروتستانتي واليهودي والشيوعي والفاشي والديمقراطي والنسوي والأوروبي والأميركي والقومي والأمي.

منذ عهد الثورة الفرنسية وأوروبا مقسمة إلى نصفين، النصف الأول يدعى اليسار، والنصف الثاني يسمى باليمين، يستحيل عملياً تحديد هذا الحزب أو ذاك استناداً إلى مبادئ نظرية معينة. ليس هناك ما

يدعو للعجب، فالأنماط السياسية لا تستند أساساً إلى مواقف عقلانية ولكنها ترتكز على تشخيصات أو صور أو كلمات، أو تستند إلى نماذج أولية تؤلف في مجموعها هذا «الكيتش» السياسي أو ذاك.

فكرة المسيرة الكبرى التي يعشقها فرانز وتُثمله، هي «الكيتش» السياسي الذي يجمع ناس اليسار في كل الأزمنة ومن كل الاتجاهات. فالمسيرة الكبرى هي هذا المشي الرائع المتقدم إلى الأمام، هي هذا المشي باتجاه الأخوة والمساواة والعدالة والسعادة وما هو أبعد أيضاً، على الرغم من الحواجز كلها لأنه يفترض أن تكون هناك حواجز وعقبات لكي تكون المسيرة «مسيرة كبرى».

دكتاتورية البروليتاريا أم الديمقراطية؟ رفض المجتمع الاستهلاكي أم زيادة الإنتاج؟ المقصولة أم إلغاء عقوبة الإعدام؟ كل هذه الأمور ليست ذات أهمية. إن ما يجعل اليساري يسارياً ليس هذه النظرية أو تلك بل مقدرتها على إدخال أية نظرية كانت إلى «الكيتش» الذي يسمى «المسيرة الكبرى».

14

لا أعني بقولي هذا أن فرانز هو نموذج «الكيتش». فكرة المسيرة الكبرى تلعب في حياته الدور نفسه الذي تلعبه في حياة سابينا الأغنية العاطفية التي تتحدث عن نافذتين مضاءتين. لأي حزب يصوت فرانز؟ أخشى بالفعل ألا يكون قد صوت في حياته إطلاقاً وأن يفضل الذهاب يوم الانتخابات في رحلة إلى الجبل. هذا لا يعني أن المسيرة الكبرى قد كفت عن التأثير عليه. ذلك أنه جميل أن تحلم بأن تكون في عداد جماعة تمشي قدمًا عبر العصور، وفرانز لم ينسَ مطلقاً هذا الحلم الجميل.

ذات يوم اتصل به أصدقاء من باريس. كانوا ينظمون مسيرة تأييداً لكمبوديا ودعوه للانضمام إليهم.

في ذلك الوقت، كانت كمبوديا تجر وراءها الحرب الأهلية والقصف الأميركي والقطائع التي ارتكبها الشيوعيون المحتلون فجعلوا عدد سكان هذا البلد الصغير يتقلص إلى الخمس، وأخيراً احتلالها من طرف جارتها الفيتنام والتي كانت مجرد أداة لروسيا في كمبوديا، كان هناك الجوع وكان الناس يموتون دون أية عناية طبية. طالبت المنظمات العالمية للأطباء مراراً بأن يُسمَح لها بالدخول إلى البلد، لكن الفيتناميين كانوا يعارضون. فقرر عندئذ مثقفون غربيون كبار تنظيم مسيرة عند الحدود الكمبودية علَّهم يفرضون، من خلال هذا العرض العظيم الذي يجري أمام أنظار العالم بأسره قبول الأطباء في البلد المحتل.

كان الصديق الذي اتصل بفرانز واحداً من أولئك الذين كان يمشي إلى جانبهم في المسيرات عبر شوارع باريس. تحمَّس أول الأمر لاقترابه غير أنه ألقى بنظره إلى الطالبة. كانت جالسة قبالته على الكتبة وعيناها تبدوان أكبر مما في الحقيقة خلف نظاراتها التي كانت «على الموضة». فأحسَّ فرانز أن عينيها كانتا تتولسان إليه كي لا يذهب، فقدَم اعتذاره لصديقه.

لكن ما إن أقفل السماعة حتى ندم. كان يستجيب لرغبات حبيبته الأرضية مهملًا حبه السماوي. ألم تكن كمبوديا نسخة مختلفة عن وطن ساينا؟ أي بلداً مجاوراً احتله الجيش الشيوعي! بلداً واقعاً في قبضة روسيا! فكر فجأة أنَّ صديقه شبه المنسي قد اتصل به بناء على إيعازِ سري من ساينا.

فالملحوقات السماوية تعرف كل شيء وترى كل شيء، وساينا

ستراه فيما لو اشتراك في هذه المسيرة وستسر لذلك وستفهم أنه بقي على وفائه لها.

فسأل صديقته صاحبة النظارة التي كانت تحسّر على كل يوم تمضي من دونه، لكن دون أن تكون أيضاً قادرة على أن ترفض له طلباً: «هل ستغضبين مني إن ذهبت إلى المسيرة على الرغم من كل شيء؟».

بعد أيام معدودة وجد نفسه على متن طائرة كبيرة في مطار باريس. كان هناك نحو عشرين طيباً بين المسافرين يواكبهم نحو خمسين مثقفاً (أساتذة وأدباء ونواباً ومغنيين وممثلين وعمرها)، ويرافقهم أربعمائة صحفي ومصور.

15

حطّت الطائرة في بانكوك. توجه الأربعمائة وسبعين طيباً ومثقفاً وصحافياً إلى الصالة الكبيرة حيث كان هناك في انتظارهم أطباء آخرون وممثلون ومغنون وفقهاء لغويون، يرافقهم مئات من الصحافيين المزودين بمفكراهم وبآلات التسجيل وألات التصوير. في عمق الصالة منصة تعلوها طاولة عريضة كان يتحلق حولها عشرون أميركيّاً باشروا بإدارة الاجتماع.

كان المثقفوون الفرنسيون الذين انضمّ إليهم فرانز يشعرون بأنهم مهانون ومهمّشون. فقد كانت فكرة القيام بمسيرة إلى كمبوديا فكرتهم، ومع ذلك، فها هُم الأميركيون يمسكون، بشكل طبيعي مثير للإعجاب، بزمام الأمور.. وزيادة في المصيبة، كانوا يتكلمون الإنكليزية دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء التساؤل هل بإمكان فرنسي أو دانمركي أن يفهم حرفاً مما يقولونه. بطبيعة الحال، كان الدانمركيون قد نسوا منذ زمن طويل أنهم كانوا يشكلون أمّة قديماً. وهكذا فإنّ الأوروبيين الوحدين

الذين فكروا في المعارضة هم الفرنسيون. وبما أنهم أناس مبدئيون، فإنهم كانوا يرفضون الاعتراض باللغة الإنكليزية متوجهين بلغتهم الأم إلى الأميركيين الجالسين على المنصة. لم يكن الأميركيون يفهمون حرفاً مما يتفوّه به الفرنسيون فكانوا يردون على كلماتهم بابتسamas لطيفة تنمّ عن المواقفة. وفي نهاية المطاف لم يعد أمام الفرنسيين من حيلة أخرى سوى صياغة اعتراضاتهم بالإنكليزية. «لماذا لا يجري التكلم إلا باللغة الإنكليزية في هذا الاجتماع؟ لا يوجد أيضاً فرنسيون هنا!».

ذهب الأميركيون دهشة كبيرة من هذا الاعتراض الغريب العجيب ولكنهم لم يتوقفوا عن الابتسام ثم وافقوا على أن تُترجم جميع الخطاب. واستغرق البحث عن مترجم، لكي يكون في المستطاع متابعة الاجتماع، وقتاً طويلاً. ثم، وبما أن الأمر كان يقتضي بأن يجري الاستماع إلى كل جملة بالإنكليزية، ثم بالفرنسية فإن الاجتماع دام وقتاً مضاعفاً إن لم يكن أكثر من مضاعف لأن الفرنسيين بأجمعهم كانوا يتقنون الإنكليزية مما يضطرهم لمقاطعة المترجم وتصحيح أخطائه والتجادل معه في شأن كل كلمة.

و جاء ظهور نجمة أميركية على المنصة تتوجّها للجتماع. من أجلها أخذ مصوروون يتذفّعون في الصالة مؤكدين على كل حرف تتفوّه به الممثلة بقعقة من آلات التصوير. كانت الممثلة تتحدث عن الأطفال الذين يتذذبون وعن الوحشية الشيوعية ودكتاتوريتها وعن حق الإنسان في العيش بأمان، والتهديدات التي تضغط على القيم التقليدية للمجتمع الرافي، والحرية الفردية، والرئيس كارتر الذي تُدمي فؤاده الأحداث في كمبوديا. قالت هذه الكلمات الأخيرة وهي تبكي.

عند هذه اللحظة نهض طيب فرنسي شاب ذو شاربين حمراوين وأخذ يزعق: «نحن هنا من أجل إنقاذ أناس يحتضرون! لسنا هنا من

أجل إحياء مجد الرئيس كارتر! يجب ألا تنحط هذه التظاهرة إلى مستوى مهرجان للدعابة الأميركيّة! لم نأت إلى هنا لكي نحتاج على الشيوعية بل من أجل العناية بمرضى!».

انضم فرنسيون آخرون تأييداً للطبيب ذي الشاربين. كان المترجم خائفًا ولم يجرؤ على ترجمة ما كانوا يقولونه. وكما منذ قليل، كان الأميركيون العشرون العجالسون على المنصة يرمقونهم بابتسamas مفعمة باللود. وكثيرون من بينهم كانوا يوافقون على ما يقولونه بإشارات من رؤوسهم. ثم خطرت لأحدهم فكرة أن يرفع قبضته فهو يعرف أن الأوروبيين يقومون بهذه الحركة تلقائياً في لحظات الحماس الجماعي.

16

كيف يحدث أن يوافق مثقفون يساريون (لأن الطبيب ذي الشاربين كان واحداً منهم) على السير في تظاهرة تعادي مصالح بلد شيوعي، في الوقت الذي ألغت فيه الشيوعية جزءاً لا ينفصّم من اليسار حتى هذا التاريخ؟

حين تصير جرائم البلد المسماة بالاتحاد السوفيتي مفضوحة للعيان، يجد اليساريُّ نفسه أمام خيارين: إما أن يبصق على حياته السابقة ويقلع عن المشي في المسيرات وإما (وهذا أمر محرج تقريباً) أن يجعل الاتحاد السوفيتي أحد العوائق التي تحول دون المسيرة الكبرى؛ وأن يتبع طريقه سائراً مع الموكب.

قلت في السابق إن ما يجعل اليسار يساراً هو «كينش» المسيرة الكبرى. هوية «الكينش» لا تُحدد من خلال استراتيجية سياسية بل من خلال صور واستعارات لغة معينة. في الإمكان إذاً خرق العادة ومعاداة مصالح بلد شيوعي، ولكن ليس من الممكن تبديل الشعارات

بشعارات أخرى. نستطيع أن نرفع قبضاتنا في وجه الجيش الفيتنامي، ولكن لا يمكن لنا أن نصرخ في وجهه قائلين «فلتسقط الشيوعية»، لأنَّ الشعار «فلتسقط الشيوعية» شعار أعداء المسيرة الكبرى. ومن لا يريد أن يفقد ماء الوجه عليه أن يبقى وفياً لطهارة «كيتشه» الخاص.

لا أقول هذا لأنَّ شرح سوء التفاهم الكامن بين الطبيب الفرنسي والنجمة الأميركيَّة التي حسبت أنها بسبب من أنايتها، ضحية الحساب ومبغضي النساء. كان الطبيب الفرنسي في الواقع يبرهن عن حساسية جمالية كبيرة: فكلمات «الرئيس كارتر»، «قيمنا التقليدية»، «الوحشية الشيوعية»، تشكّل جزءاً من لغة «الكيتش» الأميركي ولا علاقة لها «بكيتش» المسيرة الكبرى.

17

في صباح اليوم التالي صعدوا جميعاً في الباصات ليعبروا تايلندا باتجاه الحدود الكمبودية. في المساء، وصلوا إلى قرية صغيرة حيثُ خُصصت لهم بضعة بيوت صغيرة مبنية على أوتاد. كان النهر بفيضاناته المرعبة يرغم الناس على السكن في الطبقات العليا. أما عند أسفل الأوتاد فكانت تحتشد الخنازير. كان فرانز ينام في غرفة يشاركه فيها أربعة أستاذة جامعيين. وكان يتمنى إلى سمعه أثناء نومه نخير الخنازير وشيخير أستاذ رياضيات شهير إلى جانبه.

عند الصباح، ركب الجميع في الباص. على بعد كيلومترتين من الحدود كان المرور ممنوعاً. كانت هناك فقط طريق ضيقة تؤدي إلى المركز العسكري الرابض على الحدود. توقفت الباصات. حين نزل الفرنسيون اكتشفوا أنَّ الأميركيين قد تقدموهم مرة أخرى وتصدروا طليعة الموكب. كانت هذه اللحظة هي الأكثر حرجاً، لأنَّها اقتضت أن يتدخل المترجم من جديد فحمي وطيس الجدال. ولكن في نهاية

المطاف توصل الجميع إلى تسوية تقضي بأن يتصدر أميركي وفرنسي ومترجمة كمبودية طليعة الموكب، ويتبعهم الأطباء وجميع الآخرين. فوجدت الممثلة الأميركية نفسها في المؤخرة.

كانت الطريق ضيقة ومحفوفة بحقول الألغام. كانوا يقعون في كل دققتين على ممر متعرج مؤلف من كتلتين باطنون تعلوهما أسلاك شائكة، وبين الكتلتين ممر صغير، مما اضطرهم للمشي الواحد خلف الآخر.

كان يتقدم فرانز على مسافة خمسة أمتار شاعر ألماني شهير ومحظى كان قد كتب تسعمائة وثلاثين أغنية من أجل السلام ضد الحرب. كان يحمل في نهاية عصا طويلة علمًا أبيض يتلاعماً جداً مع لحيته الكثيفة السوداء ويميزه عن الآخرين.

كان المصوروون يروحون ويجيئون عدواً حول هذا الموكب الطويل. كانوا يلتقطون الصور فيركضون إلى الأمام ثم يتوقفون فيتراجعون ويقرفصون ثم يعودون للجري من جديد إلى الأمام. من وقت لآخر كانوا يهتفون باسم رجل أو امرأة من المشاهير فيلتفت المدعو بطريقة آلية في اتجاههم ويداؤن في هذه اللحظة بالذات بالتقاط الصور.

18

بدا أن هناك حادثاً وشيك الوقوع فأبطأ الناس الخطى والتفتوا إلى الوراء.

رفضت النجمة الأميركية التي جعل مكانها في مؤخرة الموكب، أن تتحمل وقتاً أطول لهذا الهوان فقررت أن تهاجم. أخذت تركض وكان ركضها كما يفعل الراکض في سباق الخمسة آلاف متر حين يرى

أنه لا يزال في مؤخرة الفريق، فيجمع قوله مندفعاً إلى الأمام ومتجاوزاً جميع المتباهين.

كان الرجال يتسمون بانزعاج ويفسحون المجال للراكرة المتصرفة الشهيرة، ولكن هناك نساء بدأن بالصرخ قائلات: «في الصف! هذه ليست مسيرة لنجمة السينما!».

لم تدع الممثلة مكاناً للخجل بل تابعت تقدمها راكضة يتبعها خمسة مصورين وكاميرaman اثنان.

أمسكت امرأة فرنسيّة، وهي أستاذة في الألسنّة، الممثلة من معصّمها وقالت لها (بلغة إنكليزية شنيعة): «هذه المسيرة أقيمت للأطّباء كي ينقذوا الكمبوديين المرضى من الموت. نحن لا نقيم هنا استعراضاً للنجوم!».

كان معصّم الممثلة محكماً داخل يد أستاذة الألسنّة وكأنه داخل كمامة. لم تكن تملك القوة اللازمّة للتخلص منها.

قالت (بلغة إنكليزية ممتازة): «هذا ليس من شأنك! لقد شاركت في مئات المواتِك! في كل مكان، يجب على الناس أن يروا نجوماً! هذه رسالتنا! هذا واجبنا الأخلاقي».

- «طُرْزٌ!»، قالت أستاذة الألسنّة (برنسية ممتازة).

فهمت النجمة الأميركيّة قولها وذرفت دموعها بغزاره.

«ابقي كما أنت»، هتف لها كاميرaman.

حدّقت الممثلة طويلاً في العدسة ودموعها تناسب على وجنتيها.

19

أفلّتت أستاذة الألسنّة أخيراً معصّم النجمة الأميركيّة. هتف المغني الألماني ذو اللحية السوداء، والذي كان يحمل العلم الأبيض، باسم الممثلة.

لم تكن الممثلة قد سمعت به من قبل ولكنها كانت في لحظة الذل هذه حساسة أكثر من العادة لكل مبادرات التعاطف. فما كان منها إلا أن انطلقت في اتجاهه. نقل الشاعر - المفتى سارية علمه إلى يده اليسرى لكي يتمكن من إحاطة كتفي الممثلة بذراعه اليمنى.

أخذ المصورون والكاميراً مان ينظرون حول الممثلة والمغني. ثمة مصور أميركي شهير أراد أن يُظهر وجهيهما والعلم ضمن إطار عدسته. لم تكن هذه اللقطة سهلة نظراً لارتفاع السارية. أخذ يركض متراجعاً في حقل للرز، فوضع قدمه على لغم وحصل انفجار. تناثر جسده المهمش أشلاء وأمطر بوابل من الدم جموع المثقفين العالميين.

ارتعب المغني والممثلة وبقيا مسرين في مكانهما. رفع كلامهما نظره صوب العلم. كان ملطخاً بالدم. في البداية كان هذا المنظر يزيد من هلعهما. ولكن فيما بعد رفعا بخجل عدة مرات أعينهما وراحَا يتباشمان. كان يتعريهما شعور غريب بالاعتزاز، شعور لا عهد لهما به من قبل وهما يفكران أن العلم الذي كانوا يحملانه قد طهره الدم، واستأنفا المسير.

20

كانت الحدود مؤلفة من جدول صغير لا يمكن رؤيته لأنه على طول الحدود كان يمتد حائط ارتفاعه متر وخمسون سنتيمتراً تعلوه أكياس رمل معدّة للقناصة التاييلنديين. لم يكن الحائط ينقطع سوى في مكان واحد عند جسر مقبب يتجاوز النهر. لم يكن مسماحاً لأحد أن يتقدم. كانت فصائل احتلال فيتنامية تتمرّكز على الجانب الآخر من النهر ولكن من غير أن يكون في الإمكان رؤيتها. كانت مراكزها مموهة تماماً. ولكن لا شك أن فيتناميين محتجزين سوف يطلقون النار إن حاول أحدهم اجتياز الجسر.

اقترب بعض عناصر التظاهرة من الحائط ووقفوا على رؤوس أصابعهم. اتكاً فرانز إلى متراس بين كيسيني رمل وأخذ يراقب. لم يتمكن من رؤية شيء لأنّه مصوّراً دفعه إلى الخلف مُعتبراً أنّ له الحق في أن يأخذ مكانه.

التفت إلى الوراء. على أغصان شجرة منفردة، وبما يشبه سرب من طيور الزاغ الضخمة، كان يجلس سبعة مصورين وأعينهم محدقة بالجهة الأخرى من النهر.

في هذا الوقت أدنت المترجمة التي كانت تمشي في طليعة التظاهرة، شفتيها من قمع ضخم وأخذت تزرع بلغة الخمير باتجاه النهر: ثمة أطباء هنا يطلبون بأن يُسمح لهم بالدخول إلى الأرض الكمبودية من أجل توزيع مساعداتهم الطبية. ونشاطهم هذا لا دخل له بالسياسة، دافعهم الوحيد الاهتمام بالحياة الإنسانية.

كان الجواب الذي وفّاهم من الجهة المقابلة صمتاً لا يُصدق، صمتاً كلياً إلى حدّ أن الجميع بدأ يندهشمن القلق. وحدها قعفة الكاميرات كانت تتردد وسط هذا الصمت العظيم مثل طنين حشرة غريبة.

أحسّ فرانز فجأة أنّ المسيرة الكبرى قد شارت على نهايتها. كانت الحدود تضيق على أوروبا لتصير المساحة التي تجري فيها المسيرة الكبرى مجرد منصة صغيرة وسط الكوكب. كانت الجموع التي تتحشد في الماضي عند أسفل المنصة قد أشاحت بوجوهاً منذ زمن طويل. وكانت المسيرة الكبرى تتبع تقدمها وحيدة دون مشاهدين. نعم، كان فرانز يفكّر أنّ المسيرة الكبرى تتبع طريقها على الرغم من لامبالاة العالم ولكنها تصير متوتة ومضطربة. فأوروبا قد سارت بالأمس ضد الاحتلال الأميركي لفيتنام، واليوم تسير ضد الاحتلال

الفيتنامي لكمبوديا. بالأمس تأييداً لإسرائيل واليوم من أجل الفلسطينيين، بالأمس من أجل كوبا وغداً ضد كوبا، ودائماً ضد أميركا، وكلّ مرة ضد المجازر، وكلّ مرة دعماً لمجازر أخرى. ولكي تتمكن أوروبا من اللحاق باليقان الأحداث من غير أن يفوتها أي منها، تزداد خططاها تسارعاً بحيث إنّ المسيرة الكبرى صارت موكباً لأناس مستعجلين يسرون قفزاً، وبحيث إنّ الحلبة تتقلص يوماً بعد يوم إلى أن تصبح مجرد نقطة صغيرة.

21

هتفت المترجمة ثانية بندائها عبر مكّبر الصوت. ولكن، كما في المرة الأولى، كان الجواب الوحيد صمتاً هائلاً فظيعاً لامبالياً.

كان فرانز يراقب. كان هذا الصمت الآتي من الجهة الأخرى يلطم وجوههم جميعاً وكأنه صفة. حتى أنَّ المغني الذي يحمل العلم والممثلة الأميركيَّة بدأوا متزعجين ومترددين.

فهم فرانز فجأة كم أنهم كانوا مضحكين، هو والآخرين. ومع ذلك فإن إدراكه لهذه الحقيقة لم يكن يبعده عنهم ولا يثير فيه أي شعور بالسخرية منهم. على العكس، كان يشعر نحوهم بمحبة لامتناهية، كتلك المحبة التي نشعر بها تجاه المحكومين بالإعدام. المسيرة الكبرى تشارف على نهايتها، هذا صحيح. ولكن هل هذا سبب لكى يخونها فرانز؟ ألم تكن حياته هو أيضاً تقترب من نهايتها؟ هل عليه إذاً أن يستهتر بتظاهرة هؤلاء الذين واكبوا حتى الحدود أطباء شجاعان؟ هل في مستطاع هؤلاء الناس أن يقوموا بشيء آخر غير العرض؟ وهل في حيلتهم شيء أفضل من هذا؟

كان فرانز محظياً. أفكَّر في الصحافي الذي كان ينظم في براغ حملة تواقيع لالتماس العفو للمساجين السياسيين. كان يعرف جيداً أنَّ هذه

الحملة لن تساعد المساجين. فالهدف الحقيقي منها ما لم يكن تحرير المساجين وإنما التأكيد أنه لا يزال هناك أنساب لا يهابون شيئاً. كان العمل الذي يقوم به من باب العرض، ولكن لم تكن في يده حيلة أخرى. إذ لم يكن مخيّراً بين الفعل والعرض. كان في يده خيار واحد: إما القيام بعرض أو عدم القيام بشيء. ثمة ظروف يكون الإنسان فيها «محكوماً عليه» بأن يقوم بعرض. نضاله ضد السلطة الصامدة (سواء كانت السلطة الصامدة للضفة الأخرى من النهر أم الشرطة التي تحولت إلى آلات تسجيل صامتة مخفية داخل الجدران) يشبه نضال فرقة مسرحية تستعد لمحاجمة جيش.

رأى فرانز صديقه في جامعة السوريون يرفع قبضته مهدداً صمت الضفة الأخرى.

22

للمرة الثالثة هتفت المترجمة بندائها عبر قمع مكبّر الصوت.

ومن جديد أجابها الصمت مُحيلاً بفترة قلق فرانز إلى غضب مسعود. كان على بعد بعض خطوات من الجسر الذي يفصل تاييلندا عن كمبوديا، واجتاحته رغبة جامعة في الجري عليه وقدف شتائم فظيعة نحو السماء، والموت وسط الضجة الهائلة لطلقات البنادق.

هذه الرغبة المبالغة لفرانز تذكّرنا بشيء ما، نعم، تذكّرنا بابن سطاليين عندما انطلق راكضاً للتعلق بالأسلاك الشائكة لأنّه لم يعد في استطاعته أن يتحمل رؤية قطبيّ الوجود البشري يقتربان إلى درجة التلامس، إلى درجة أنه لم يعد هناك من فرق بين النبيل والحقير، بين الملائكة والذباب، بين الآلهة والبراز.

لم يكن فرانز يستطيع التسليم بأنّ مجد المسيرة الكبرى صار

مقتضراً على غرور مضحكت لأناس يسيرون بانتظام، وأن تختفي ضجة التاريخ العظيمة وسط صمت لا يتهي بحيث إنه لا يعود هناك فرق بين التاريخ والصمت. كان راغباً في أن يضع حياته في الميزان ليثبت أن كفة المسيرة الكبرى ستكون أثقل وزناً من كفة البراز.

ولكن ليس في الإمكان إثبات شيء من هذا القبيل. كان البراز في كفة ميزان، وجسد ابن سطالين كله في الكفة الأخرى، ولكن الميزان لم يتحرك قيد أنملة.

بدل أن يقتل فرانز نفسه، حنى رأسه ولحق بالآخرين السائرين واحدهم خلف الآخر، ليستقلّ الباص من جديد.

23

نحتاج جميعاً إلى أحد ما يراقبنا. ويمكن تصنيفنا إلى أربع فئات تبعاً لنوع النظرة التي نرغب في العيش في ظلّها.

الفئة الأولى تفتش عن نظرات لا تُحصى من العيون المجهولة، وبكلمة أخرى تفتش عن عيون الجماهير. هذه هي حال المغتبي الألماني والنجمة الأميركية. وهذه هي أيضاً حال الصحفي ذي الذقن الطويل المعقوف. لقد كان معتاداً على قرائه، وحين حظر الروس صدور مجلته الأسبوعية، أحسن أنه يعيش في جو هواه أقل كثافة بمئة مرة. إذاً لا أحد يمكن أن يقوم عنده مقام العيون المجهولة. كان لديه شعور حينذاك بأنه يختنق. ثم أدرك ذات يوم أن الشرطة تلاحق كل خطوة من خطواته وأنها كانت تتنصت على كل مخابراته الهاتفية، وأنه كان يُصور بطريقة سرية حتى عندما يكون في الشارع. عند ذلك أخذت عيون مجهولة تصحبه إلى كل مكان فتمكّن أخيراً من استعادة أنفاسه! وشعر بالغبطة! كان يخاطب آلات التسجيل المخفية داخل الجدران بلهجة مفخّمة. وكان يجد في البوليس جمهوره المفقود.

الفئة الثانية تتضمن هؤلاء الذين ليس في إمكانهم أن يعيشوا دون نظرات كثيرة مألوفة، هؤلاء الذين لا يتبعون من إقامة الحفلات وماذب العشاء. إنهم أكثر سعادة من الناس المنتسبين إلى الفئة الأولى الذين يحسبون أن الأضواء، حين يفقدون جمهورهم، قد أطفئت في قاعة حياتهم. وهذا ما يحدث لهم جميعاً بين يوم وآخر.. أما أناس الفئة الثانية فيظل في إمكانهم التوصل إلى العثور على نظرات ما. وماري - كلود وابتها تنتهي إلى هذه الفئة.

ومن ثم تأتي الفئة الثالثة، فئة هؤلاء الذين هم بحاجة إلى العيش في ظل عيون أحبابهم. ظروفهم الحياتية خطيرة قدر ما هي خطيرة الظروف الحياتية لأناس الفئة الأولى. ما إن تغمض عينا الحبيب حتى تغرق القاعة في ظلام دامس. بالإمكان تصنيف تيريزا وتوماس ضمن هذه الفئة.

وأخيراً هناك الفئة الرابعة وهي الأقل ندرة، وتتضمن أولئك الذين يعيشون في كف أنظار موهومة لكتائب غائبة. هم الحالمون، فرانز مثلاً. إذا كان قد ذهب إلى الحدود الكمبودية فهذا فقط بسبب سأينا. كان يشعر وهو يترجج في الباص على الطريق إلى كمبوديا، بأنها تحدّق إليه بنظراتها الثابتة.

ابن توماس ينتهي إلى هذه الفئة أيضاً. سوف أدعوه سيمون (وهو سيسر لإعطائه اسمًا توراتياً مثل اسم أبيه). كانت النظرة التي يتوق إليها هي نظرة توماس. كان قد طُرد من الجامعة للاشتباه في أنه كان من ضمن أصحاب حملة التواقيع. كانت الفتاة التي يعاشرها ابنة شقيق كاهن ريفي. تزوجها وأصبح سائق شاحنة زراعية في تعاونية. أصبح كاثوليكياً ممارساً وأباً لعائلة. علم أن توماس كان يسكن هو أيضاً في الريف. وهذا أدخل السعادة إلى قلبه. لقد جعل القدر حياته مما متوازن. هذا ما دفعه لأن يكتب رسالة. لم يكن يطلب ردًا بل كان

يريد شيئاً واحداً: أن يلقي توماس نظرته على حياته.

24

فرانز وسيمون هما الحالمان في هذه الرواية. بخلاف فرانز، سيمون لم يكن يحب والدته. بل كان يفتش منذ الطفولة عن أبيه. كان مستعداً للإيمان بأن إهانة ألحقت بأبيه ففسّرت إجحافه بحقه.. لم يحقد عليه قط ورفض أن يكون حليف أمه التي كانت تمضي وقتها في الذم بتوماس.

عاش معها حتى الثامنة عشرة ثم ذهب بعد حصوله على شهادة البكالوريا لتحصيل علومه في براغ. في ذلك الحين كان توماس منظف زجاج. انتظره سيمون مرات عدة لافتعال لقاء مفاجئ في الشارع، ولكن أباه لم يكن يتوقف مطلقاً.

إن كان قد تعلق بالصحافي القديم ذي الذقن الطويل والمعقوف فهذا لأنه كان يذكره بمصير والده. لم يكن الصحافي يعرف اسم توماس فالمقال عن أوديب كان منسياً، فتبه سيمون إلى وجوده وطلب منه أن يرافقه لرؤيه توماس ويعرضا عليه التوقيع على عريضة. ولم يكن أمثال الصحافي إلا من باب إدخال السرور إلى قلب الشاب الذي كان يحبه جماً.

عندما كان سيمون يفكّر في ذلك اللقاء كان يشعر بالخجل من تهبيه. من المؤكد أنه لم يعجب أباه. أما هو فأعجب بأبيه. كان يتذكر كل كلمة تفوّه بها مستتصوّباً موافقه أكثر فأكثر. هناك جملة على الأخص عقلت بذاكرته: «إدانة هؤلاء الذين لا يعرفون ماذا يفعلون، عمل بربيري». وعندما وضع عمّ صديقته الكتاب المقدس بين يديه، تأثر بكلمات يسوع التي تقول: «اغفر لهم لأنهم لا يدركون ماذا يفعلون». كان يعرف أنّ أباه ملحد ولكن التشابه بين الجملتين كان

بالنسبة له وكأنه رمز خفي يعني أن أباه يستحسن الطريق التي اختارها.

كان يعيش في القرية منذ ما يزيد على سنتين عندما تسلم رسالة دعاه فيها توماس لزيارته. كان اللقاء ودياً وأحسن سيمون بأنه على سجيته فما عاد يتلقى إطلاقاً. لا شك في أنه لم يلاحظ أنهما ليسا متفاهمين إلى الحد الذي تصور. بعد نحو أربعة أشهر تلقى برقة جاء فيها أن توماس وزوجته ماتا مهمشين في حادث شاحنة.

في ذلك الوقت سمعهم يتحدثون عن امرأة كانت في السابق عشيقة أبيه وتعيش حالياً في فرنسا. فحصل على عنوانها. وبما أنه كان في حاجة ماسة إلى عين وهمية تتبع مراقبة حياته، أخذ يكتب لها إذاً من وقت لآخر رسائل مطولة.

25

حتى آخر حياتها ظلت سابينا تتلقى الرسائل من ذلك المراسل الريفي التعيس. كثير من هذه الرسائل لم يفتح، لأن اهتمامها بالبلد الذي هو مسقط رأسها، أخذ يتناقص مع الأيام.

مات الرجل العجوز وذهبت سابينا للإقامة في كاليفورنيا. أكثر فأكثر باتجاه الغرب، وأبعد فأبعد من بوهيميا.

كانت لوحاتها تُباع بشكل جيد وكانت تحب أميركا ولكن فقط جسدياً. فتحت السطح ثمة عالم غريب عنها. إذ لم يكن لديها تحت الأرض جد أو عم. كانت تخاف من أن يغلق عليها داخل نعش وأن تُدلَّى في أرض أميركا.

لذلك كتبت وصية اشترطت فيها أن تُحرق جثتها بعد موتها، وأن يُنشر رمادها في الهواء. تيريزا وتوماس ماتا تحت شعار الثقل. أما هي فأرادت أن تموت تحت شعار الخفة. سوف تصير أخف من الهواء.

وبحسب رأي بارمينيدس، فإنّ موتها هو تحول من السلبي إلى الإيجابي.

26

توقف الباص أمام فندق في بانكوك. لم يعد أحد راغباً في تنظيم اجتماع. فتفرق الجمع إلى جماعات صغيرة وانطلقوا عبر المدينة، بعضهم ذهب لزيارة المعابد وبعضهم الآخر لزيارة المبغي. اقترح الصديق في جامعة السوربون على فرانز أن يمضيا السهرة معاً، ولكنه آثر البقاء وحيداً.

كان المساء قد حلّ عندما خرج. كان يفكر في ساينا باستمرار ويشعر أنها تحدق إليه بنظرتها الثابتة. كان يشعر أن الشك يأخذ في الاعتمال في نفسه تحت تأثير هذه النظرة لأنّه لا يعرف ماذا يجول في فكر سايننا.. هذه المرة أيضاً رمته تلك النظرة في الحيرة. تُرى، ألم تكن تهزأ منه؟ ألم تكن تجد العبادة التي يخصها بها أمراً سخيفاً؟ ألم تكن تزيد إفهامه أنه آن الأوان ليتصرف تصرف إنسان ناضج وأن يكرس نفسه كلياً لصديقه التي أرسلتها هي بنفسها إليه!

حاول أن يتخيّل الوجه الذي يرتدي نظارة كبيرة. وبدأ يتفهم بوضوح مدى السعادة التي كان يشعر بها بصحبة طالبته فبدا له سفره إلى كمبوديا أمراً مضحكاً ودون معنى. في الواقع، ما الذي أتى به إلى هنا؟ الآن، بدأ يعرف السبب. قام بهذه الرحلة ليعرف أخيراً أن حياته الحقيقة، أن حياته الواقعية الوحيدة لا تمثل في التظاهرات ولا في سايننا وإنما في طالبته صاحبة النظارة! قام بهذه الرحلة ليقنع نفسه أن الحقيقة شيء أكثر من الحلم، شيء أفضل بكثير من الحلم!

ثم فجأة، انشق من الظلام طيف وخطابه ببعض كلمات بلغة لم يفهمها. نظر إلى الطيف بدهشة ممزوجة بالتعاطف. كان المجهول

ينحنى ويبتسم ولا يكف عن الرطن بنبرة ملحة. ماذا كان يقول له؟ اعتقد لأول وهلة أنه كان يتسلل إليه للتحاق به. أمسكه الرجل من يده وجذبه. فقال فرانز في نفسه إنه يحتاج إلى مساعدة ربما. أيكون فرانز لم يأتي إلى هنا عبثاً؟ أيكون مجئه إلى هنا من أجل إسعاف أحدٍ ما؟

وفجأة انبثق شخصان آخران إلى جانب الرجل الذي كان يرطن بلغة غير مفهومة. ثم أمر أحدهما فرانز بأن يعطيهم مالاً.

عندما اختفت الفتاة الشابة صاحبة النظارة من مجال تفكيره. أخذت سايينا من جديد تراقبه، سايينا اللاحقية بقدرها العظيم، سايينا التي يشعر في حضرتها أنه صبي صغير. ها هي عيناه تراقبانه بنظرات تعتبر عن الغضب وعدم الرضى. لماذا، هل ترك نفسه تنخدع مرة أخرى؟ هل كان يدع طيته الحمقاء تستغل مرة أخرى؟

وبصرية واحدة أفلت من قبضة الرجل الذي كان يتثبت بكتمه. كان يعرف أن سايينا قد أعجبت دائمًا بقوته. فأمسك الذراع التي شهرها الرجل الآخر نحوه، أمسكها بقوة وقام بحركة جودو موقفة فأطأرها من فوق رأسه.

الآن، كان فخوراً بنفسه، عينا سايينا لم تكونا تفارقانه. لن تراه بعد اليوم مهاناً! لن تراه متراجعاً بعد الآن! ولن يعود فرانز الضعيف والعاطفي بعد اليوم!

كان يحس بحقد ممزوج بالسعادة حيال هؤلاء الرجال الذين يودون استغلال سذاجته. كان يقف محنياً قليلاً دون أن يشيخ بنظره عنهم. ولكن فجأة انهال شيء ثقيل على رأسه فتهاوى على الأرض. كان يشعر وهو نصف واع أنه يتم نقله إلى مكان ما، ثم بدأ يسقط في الفراغ. أحس بصرية عنيفة أخرى، فقد وعيه كلياً.

استيقظ بعد وقت طويل في أحد مستشفيات جنيف. كانت ماري

- كلود تنهنى فوق سريره. فأراد أن يقول لها إنه لا يرغب في رؤيتها هنا. كان يريدهم أن يعلموا الطالبة ذات النظارة الكبيرة بوجوده في المستشفى. فهو كان يفكر فيها هي دون سواها. كان يريد أن يزعق في وجهها قائلاً إنه لا يتحمل وجود أحد قرب سريره. لكنه اكتشف مذعوراً أنه غير قادر على الكلام. كان ينظر إلى ماري - كلود بحنق لامتناه، وأراد أن يستدير ناحية الحائط كي لا يراها. ولكنه لم يكن في استطاعته تحريك جسده. فحاول أن يشيح على الأقل بوجهه. ولكنه حتى لم يستطع القيام بأدنى حركة، أغمض عينيه كي لا يراها.

27

ها قد انتسب فرانز الميت أخيراً إلى زوجته الشرعية كما لم يتسب إليها من قبل. ها إن ماري - كلود تقرر كل شيء وتقوم بتنظيم مراسم الجنازة وترسل أوراق النعي وتبعث في طلب الأكاليل، وتخيط لنفسها ثوباً أسود هو في الحقيقة ثوب زفاف. نعم، إن دفن الزوج أخيراً هو عرس الزوجة الحقيقي، وهو تتويج لحياتها ومكافأة تكفر عن كل عذاباتها.

على أية حال، الكاهن يفهم ذلك جيداً ويعظم فوق القبر عن الحب الزوجي السرمدي الذي توجب عليه أن يتجاوز مهناً كثيرة ولكنه بقي للفقيد، وحتى آخر أيامه، ملجاً أميناً يستطيع الرجوع إليه في اللحظة الحرجة، حتى أن زميل فرانز الذي طلبت منه ماري - كلود أن يقول كلمة صغيرة فوق النعش حيناً فيها خصوصاً زوجة الفقيد الشجاعة.

في مكان ما في الخلف، كانت هناك الفتاة الشابة صاحبة النظارة الكبيرة، متجمعة على نفسها تستند إلى صديقة. كانت مختلفة من فرط البكاء وكانت قد ابتلعت أقراصاً كبيرة فأصيبت بتشنجات قبل انتهاء

الجنازة. كانت تتلوى من الألم وتمسك بطنها، فما كان من صديقتها إلا أن ساعدتها فخرجت من الجنازة.

28

ما إن تلقى برقية رئيس التعاونية، ركب على دراجته وانطلق. تكفل القيام بمراسم الدفن. وحفر على شاهدة القبر تحت اسم أبيه الكتابة التالية: «أراد مملكة الله على الأرض».

كان يعرف جيداً أن والده لم يكن ليستعمل هذه الكلمات مطلقاً. ولكنه كان متاكداً من أن الكتابة تعبر بدقة كما كان يريده أبوه. فملكة الله تعني العدالة وتوماس كان متعطشاً إلى عالم تسوده العدالة. إلا يحق لسيمون إذاً أن يعبر عن حياة أبيه بلغته هو؟ إلا يتوارث جميع الأبناء هذا الحق منذ عصور سحيقة؟

«بعد ضلال طويل، كانت العودة»، يمكننا أن نقرأ على شاهدة قبر فرانز. يمكن أن تؤول هذه الكتابة على أنها إشارة لرمز ديني: الضلال في الحياة الأرضية والعودة إلى أحضان الله. ولكن المطلعين على الأسرار يعرفون أن لهذه الجملة أيضاً معنى تجديفياً تماماً. من جهة أخرى، ماري - كلود تتحدث بهذا الخصوص كل يوم:

فرانز، ذاك العزيز، فرانز ذاك الشجاع، لم يستطع أن يتحمل وطأة سن الخمسين فوقع بين برائن فتاة مسكونة! لم تكن حتى جميلة. (أما لاحظتم نظارتها الكبيرة التي بالكاد تُرى خلفها؟) ولكن رجلاً في الخمسين (ونعرف ذلك جميعاً) يبيع روحه لقاء قطعة لحم فتية. ووحدها زوجته تستطيع أن تدرك شدة ألمه. كان فرانز يعيش عذاباً روحاً حقيقياً! فرانز في أعماقه رجل شريف وطيب. وإنما فكيف نفسر هذا السفر السخيف اليائس إلى بلد بعيد في آسيا؟ لقد ذهب يبحث عن موته. نعم، ماري - كلود متاكدة من هذا الأمر: من أن فرانز اختار

موته بعد طول تبصر. وخلال أيامه الأخيرة وفيما كان يشارف على الاحتضار ولم يعد حينئذ بحاجة إلى الكذب، لم يعد يومها راغباً إلا في رؤيتها هي. لم يكن قادراً على الكلام ولكنه كان يوجه شكره لها على الأقل عبر نظراته. كانت عيناه تطلبان المغفرة منها، وها قد غفرت له.

29

ماذا بقي من محتضرى كمبوديا؟

صورة كبيرة للنجمة الأميركية تحمل بين ذراعيها طفلأً أصفر.

ماذا بقي من توماس؟

كتابهُ: أراد مملكة الله على الأرض.

ماذا بقي من بيتهوفن؟

رجل مقطب الوجه، مشعر الشعر كمجنون وينطق بصوت مكتب كتابهُ: «ليس من ذلك بدّ». Esmuss sein

ماذا بقي من فرانز؟

كتابهُ: بعد ضلال طويل، كانت العودة.

وهكذا دواليك، وهكذا دواليك. قبل أن تنسى نتحول إلى «كيتش». «الكيتش» هو محطة اتصال بين الكائن والنسيان.

القسم السابع

ابتسامة كارنينا

١

كانت النافذة تطلّ على تلة تلوح فيها قامات ملتوية من أشجار التفاح. في أعلى التلة، كانت الغابة تغطي الأفق وكانت استدارة التلال تمتد إلى بعيد. عند المساء، كان قمر أبيض يزعم في السماء الشاحبة وكان هذا هو الوقت الذي تظهر فيه تيريزا على العتبة. كان القمر المعلق في السماء التي لم تُظلم بعد مثل لمبة نسيت أن تُطفأ في الصباح، وبقيت مضاءة طوال النهار في غرفة الموتى.

كانت أشجار التفاح الملتوية تنبت على التلة ولا تستطيع إحداها أن تترك المكان الذي نمت فيه جذورها. كذلك فإنَّ تيريزا وتوماس لم يعودا قادرين إطلاقاً على مغادرة هذه القرية. كانوا قد باعوا سيارتهما وجهازِي التلفزيون والراديو ليتمكنَا من شراء بيت صغير مع حديقة، مِنْ فلاحٍ ذاهب للإقامة في المدينة.

الذهاب للعيش في الريف كان إمكانية الفرار الوحيدة التي تبقّت لهم. لأنَّ الريف الذي كان يفتقر إلى السواعد باستمرار ما كانت تتفصّه المساكن. ثم أن لا أحد يهتم بالماضي السياسي لهؤلاء الذين يقبلون بالذهاب للعمل في الحقول أو في الغابات. ولا أحد كان يحسدهم.

كانت تيريزا سعيدة لأنها تركت المدينة وصارت بعيدة عن الحانة وزبائنها السكارى، وصارت بعيدة عن النساء المجهولات اللواتي يتركن رواحهن فروجهن في شعر توماس. ها إن الشرطة قد أقلعت عن الاهتمام بهما. وبما أن قصة المهندس كانت تماثل في ذاكرتها مع مشهد «مون - دو - ببير» فإنها بالكاد كانت تلاحظ الفرق بين الحلم والحقيقة. (على أية حال، هل المهندس هو حقاً في خدمة الشرطة السرية؟ ربما نعم وربما لا. ثم إن هناك الكثير من الرجال الذين يعيرون شقفهم لبعضهم من أجل مواعيدهم الغرامية، أو الذين لا يحبون مضاجعة المرأة نفسها أكثر من مرة).

كانت تيريزا سعيدة إذاً معتقدة أنها وصلت إلى هدفها: كانوا معاً هي وتوماس وحدهما، وحدهما؟ على أن تكون أكثر دقة: إن ما أدعوه الوحيدة يعني أن يقطعوا كل علاقة بأصدقائهم القدامى وبمعارفهم، أن يقطعوا حياتهما السابقة كما يقطع شريط بالمقص. ولكنهما كانوا يشعران بالسعادة في صحبة المزارعين حيث يعملان معهم، وحيث كانوا يقومان بزيارتهم من وقت لآخر أو يدعوانهم لزيارتهم.

يوم تعرفت تيريزا إلى رئيس التعاونية في مدينة المياه المعدنية التي تغيرت أسماء شوارعها لتصبح أسماء روسية، اكتشفت فجأة في داخلها صورة الريف التي خلقتها ذكريات قراءاتها أو أجدادها: عالم متناغم حيث تتحدد فيه جميع العناصر لتؤلف عائلة كبيرة تتقاسم الاهتمامات ذاتها والعادات ذاتها: في أيام الآحاد الذهاب لسماع القدس في الكنيسة، والثُّرُول حيث يتلاقي الرجال دون النساء، وصالحة هذا الثُّرُول عينه التي تقام فيها حفلة موسيقية كل سبت وحيث يأتي أهالي القرية جمِيعاً للرقص.

ولكن القرية في ظل الشيوعية لم تعد تشبه هذه الصورة القديمة. كانت الكنيسة موجودة في مجتمع مجاور، ولا أحد يذهب إليها. أما

النُّزُل فقد تحول إلى مكاتب ولم يعد الرجال يعرفون أين يستطيعون التلاقي ولم يعد في الإمكان الاحتفال بأعياد دينية، والأعياد الرسمية لم تعد تثير اهتمام أحد. أقرب سينما كانت في المدينة التي تقع على مسافة عشرين كيلومتراً. وكان الناس بعد انتهاءهم من العمل يتنادون بسعادة مفتتنين فترة الاستراحة للثرثرة فيما بينهم، ثم يعودون للانزواء داخل جدران بيوتهم الصغيرة بثناياها العصري ولكن المختار بذوق رديء يعصف فيها مثل تيار هوائي. كانوا يقبعون هناك، أعينهم مسمرة إلى جهاز التلفزيون. لم يكونوا يزورون بعضهم بعضاً. وبالكاد كانوا يذهبون أحياناً للدردشة مع الجار قبل تناول العشاء. كان الجميع يحلم بالذهاب إلى المدينة. إذ إن القرية لم تكن تمنح أي شيء من شأنه أن يشير قليلاً من الاهتمام بالحياة.

وبسبب أن لا أحد عاد يريد الإقامة في القرية فإن الدولة فقدت سلطتها عليها. المزارع الذي لم يعد مالكاً لأرضه صار يعمل في الحقول أجيراً ولم يعد متعلقاً لا بالطبيعة ولا بعمله. لم يعد لديه ما يخشى فقدانه. وبفضل هذه اللامبالاة حافظت القرية على فسحة لا يُستهان بها من الاستقلال والحرية. لم يكن رئيس التعاونية يُعين من الخارج (كما هو حال جميع المسؤولين في المدن) بل كان منتخبًا من قبل المزارعين، وواحداً منهم.

وبما أن الجميع كان راغباً في الرحيل فإن وضع تيريزا وتوماس يصير إذ ذاك استثنائياً: لقد أتيا بكامل إرادتهما. كان الآخرون يغتنمون الفرصة من أجل قضاء النهار في البلدات المجاورة. أما تيريزا وتوماس فلا يطلبان سوى البقاء حيث هما: ولم يلبثا أن تعرقا إلى القرويين أفضل مما يعرف القرويون أنفسهم.

أصبح رئيس التعاونية صديقهما المخلص. كانت لديه زوجة وأربعة أولاد وخنزير رُبَّي كأنه كلب. كان الخنزير يدعى «مفистو» وكان

مفخرة القرية ومحظ إعجابها. كان يلبي النداء ما إن يسمعه، وكان نظيفاً جداً، زهري اللون يجري بسرعة وبخطى صغيرة على كعباته الصغيرة، كما تجري امرأة ذات ريلات ضخمة على كعبيها العالدين.

كانت كارنينا متحيرة حين رأت مفيستو للمرة الأولى وأمضت وقتاً طويلاً تدور حوله ثم أخذت تستنشقه. ولكنها ما لبثت أن ارتبطت بصداقه وثيقة معه مفضلة إياه على كلاب القرية التي كانت تكرهها وكانت مربوطة إلى أوجارها تنبع ببلادة طوال الوقت دون سبب.

كانت كارنينا تقدر التدرة حق قدرها. وكانت متعلقة بهذه الصداقه مع الخنزير.

كان رئيس التعاونية سعيداً لتمكنه من مساعدة جراحه القديم وحزيناً في الوقت نفسه لأنه لا يستطيع أن يفعل له أكثر من ذلك. وكان توماس سائق شاحنة يقود المزارعين إلى حقولهم ويقوم بنقل المعدات الزراعية.

التعاونية مؤلفة من أربعة مبانٍ كبيرة لتربيبة الماشية، وإلى ذلك زريبة صغيرة تحوي أربعين بقرة عُهد بها إلى تيريزا لتصطحبها إلى الحقل مرتين في النهار. كانت الحقول المجاورة والتي يمكن الوصول إليها بسهولة مخصصة لحصاد الكلأ. كان على تيريزا اصطحاب قطيعها إذاً إلى التلال المجاورة. كانت البقرات ترعى العشب من المراعي البعيدة، وكانت تيريزا تلحق بها خلال السنة، في طول المنطقة الفسيحة التي تحيط بالقرية. وكما في المدينة الصغيرة، كانت تمسك دائمًا كتاباً بيدها تفتحه حين تصل إلى الحقول وتبدأ بالقراءة.

كانت كارنينا تصحبها دائمًا. وقد تعلمت النباح خلف البقرات الصغيرات حين يكنّ بطرات وينوين الابتعاد عن الآخريات. كانت كارنينا تشعر بمتعة بدائية، من بين الثلاثة كانت هي الأكثر سعادة إطلاقاً، إذ لم تكن وظيفتها «كمسؤولة عن الساعة» محترمة إلى هذا

الحد حتى اليوم، دون أن يكون فيها مكان للارتجال. فالزمن الذي كانت تعيش فيه تيريزا وتوماس، كان يقترب من انتظام زمن كارنينا. ذات يوم بعدما تناولا الإفطار، (كانا يملكان ساعة فراغ في هذا الوقت كل يوم) قاما بتنزهه برفقة كارنينا إلى منحدر التلة خلف البيت.

قالت تيريزا: «لا تعجبني الطريقة التي تمشي بها».

كانت كارنينا تعرج من قائمتها اليسرى. انحنى توماس متلمساً قائمتها، فاكتشف تورماً صغيراً في فخذها.

في صباح اليوم التالي أجلسها قربه على مقعد الشاحنة وتوقف في القرية المجاورة حيث يقطن بيطري. ذهب لزيارتة خلال أسبوع وعاد معلناً أنّ كارنينا مصابة بالسرطان.

بعد ثلاثة أيام، أجرى لها الطبيب البيطري عملية جراحية. عندما اصطحب كارنينا إلى البيت، لم تكن قد أفاقت من المخدر بعد. كانت نائمة على السجادة، عيناهَا مفتوحتان وتنوح. كان شعرها محلقاً عند فخذها وجرحها مخاطاً بست قطب.

بعد قليل، حاولت أن تنهض، لكن دون جدوى.

خافت تيريزا: وماذا لو لم يعد في استطاعتتها السير من جديد؟

- «لا تخافي»، قال توماس، «لا تزال تحت تأثير المخدر».

حاولت أن ترفعها ولكنها بدأت تصفق بفكّيها. كانت هذه المرة الأولى التي ترید فيها العضّ!

- «لا تعرف من أنت»، قال توماس. «لم تعرف إليك بعد».

مذداها قرب سريرهما فففت بسرعة. وغفوا بدورهما، ثم أيقظتهما فجأة عند الساعة الثالثة صباحاً. كانت تهزّ ذنبها وتتدوس تيريزا وتوماس متترنحة بهما بشراسة ودون توقف.

هذه المرة لم تستطع أن تسيطر على نفسها عندما بدأت تستعيد

وعيها كاملاً خلال الليل.. مَنْ يُعرف من أية مسافات بعيدة كانت
راجعة! مَنْ يُعرف أية أشباح واجهت! الآن وقد اكتشفت أنها في بيتها
وتعرفت إلى الكائنين الأحب إلى قلبها، لم تستطع الامتناع عن إشاعة
فرحتها التي لا توصف، تلك الفرحة التي شعرت بها عند رجوعها
ولوادتها الجديدة.

2

جاء في أول سفر التكوين أنَّ الله خلق الإنسان وجعله يسيطر على
الطيور والأسماك والماشية. وبالطبع ألف سفر التكوين إنسان، لا
حصان. وليس من المؤكد أنَّ الله أراد حقاً أن يحكم الإنسان سائر
المخلوقات. وربما الأكثر احتمالاً أن يكون الإنسان قد اخترع ذلك
لبيِّر السلطان الذي اغتصبه على البقرة. وبطبيعة الحال، الحق في
سفك دم أيَّل أو بقرة هو الشيء الوحيد الذي اتفقت عليه الإنسانية
جماعاء بتَّأْخٍ حتى خلال الحروب الأكثر دموية.

قد يبدو لنا هذا الحق بديهيَا لأننا نعتبر أنفسنا في قمة السلم.
ولكن يكفي أن يتدخل شخص ثالث في اللعبة، زائر آتٍ مثلاً من
كوكب آخر وقد أمره الله: «سوف تكون لك سلطة على كائنات
الكوكب الأخرى كافة»، فتصبح عندئذ مسلمة سفر التكوين موضع
شك في الحال. فلتتصور الإنسان وقد أوثقه أحد سكان المريخ بعربة
ثم قلبَه أحد سكان المجرة على سيخ ليسيويه، ربما سيتذكر حتماً جيتنـ
ضلـع العجل الذي اعتاد على تقطيعه في صحته، وسيقدم اعتذاره (ولو
مناخراً جداً) للبقرة.

تيريزا تقدم قطبيع بقراتها وتدفعهن أمامها. يتعين عليها دائماً أن
تزجر إحداهن لأنَّ البقرات الصغيرات لعيوب، ويبعدن عن الطريق
المرسوم ليذهبن للعب في الحقول. ها قد مرَّت ستان وكارنينا ترافق

البقرات وتبعهن كل يوم إلى المرعى. كان يسلّيها جداً أن تكون صارمة معهن، كأن تنبغ في إثرين أو أن ترجرهن. (فالله قد أعطاها حق السيادة على البقرات وهي فخورة بذلك). ولكنها اليوم تمشي بصعوبة كبيرة وتقفز على ثلاث قوائم لأنّ في قائمتها الرابعة جرحًا ينزف. تيريزا تتحني كل دقيقتين لتداعب ظهرها. خمسة عشر يوماً مرّت على إجراء العملية، ومن الجلي أن السرطان لا يتوقف عن الانتشار، وحال كارينا تسير من سبع إلى أسوأ.

أثناء المسير، التقين بجارة تزور الإسطبل متصلة جزمتها المطاطية. توقفت الجارة وسألت: «ما بها كلبتك؟ لأنها تعرجاً». أجبت تيريزا: «إنها مصابة بالسرطان ومحكوم عليها بالموت». فاحسست عندئذ بأنّ حلقها منقبض وأنها تجد صعوبة في الكلام. شاهدت الجارة دموع تيريزا فغضبت: «ماذا دهاك، مهما يكن، لا يجدر بك أن تبكي من أجل كلبة!». لم تقل ذلك عن سوء نية، فهي طيبة القلب ولكنها قالت ذلك لتواسي تيريزا وتيريزا تعرف. فهي تسكن في القرية منذ وقت طويل وتعرف جيداً أن المزارعين إذا كانوا يحبون أرانبهم كما تحب هي كارينا فإنهم لا يعودون قادرين على قتل أي منها، ولن يلبيوا حتى أن يقضوا وحيواناتهم في الوقت نفسه. وعلى الرغم من هذا الأمر فقد بدت لها ملاحظة الجارة عدائية. «أعرف»، أجبت دون اعتراض، ولكنها استدارت على عجل متابعة طريقها. أحسّ أنها وحيدة بحبها لكلبتها. كانت تفكّر وهي تبتسم بأسئلتها أن تخفي هذا الحب بعناية قصوى كمن يُخفي خيانة ما. فالحب الذي نحمله لكلبة مثير للاستنكار. لو علمت الجارة بأنها تخون توماس لربّت ريمًا على ظهرها مشجعة ولا بتسمّت لها بشكل متواطئ.

ها هي تتبع طريقها برفقة بقراتها اللواتي يتصادمن، قائلة في نفسها إنّ هذه البهائم عذبة جداً، هادئة، دون مكر، وأحياناً فرحة فرحاً

طفولياً: تخالها سيدات سمينات في الخمسين من عمرهن يتظاهرن بأنهن في سن الرابعة عشرة. لا يوجد شيء أكثر إثارة للعطف من منظر بقرات يلعبن. تيريزا تنظر إليهن بمحبة وتفكير (وهذه الفكرة تعاودها دون توقف منذ ستين) إن البشرية تعيش متطفلة على البقرة كما تعيش الدودة الوحيدة متطفلة على الإنسان: البشرية تثبت بضرورتها ثبات العقل. الإنسان هو طفيلي البقرة. وما لا شك فيه أن هذا هو التعريف الذي يمكن أن يعطيه لا إنسان للإنسان في علم الحيوان.

يمكن أن نرى في هذا التعريف مجرد مزحة ونبتسم لها بتسامح. ولكن إذا كانت تيريزا تأخذها على محمل الجد فإنها ترمي والحالة هذه بنفسها في منزلق خطر: هذه الأفكار خطيرة وتبعدها عن الإنسانية. ففي سفر التكوين، عهد الله إلى الإنسان بالسيادة على الحيوانات. وبإمكاننا أن نفسر ذلك قائلين إن الله قد أغار هذه السلطة له. الإنسان ليس مالك الكوكب بل وكيله وعليه ذات يوم أن يقدم كشفاً لحسابه. ديكارت ذهب أبعد من ذلك في هذا المنحى: جعل الإنسان «سيد الطبيعة ومالكتها». وهو منطقي جداً بالتأكيد فيما يتعلق بنفيه لوجود الروح عند الحيوانات. فحسب ما يقول ديكارت، الإنسان هو المالك والسيد فيما الحيوان ليس إلا مسيراً وألة حية، أو ما يسميه بالـ«ماكينا أنيماتا». عندما يتن الحيوان فالأمر لا يتعلق بشكوى بل بصرير تطلقه آلة تسير بشكل سئ. فحين تتن عجلة عربة فهذا لا يعني أن العربة تتالم بل إنها تحتاج إلى تشحيم. وبالطريقة ذاتها يجب أن يُفسر نحيب الحيوان. ويجب ألا نشقق على كلب يُشرح وهو حي في مختبر.

البقرات ترعى في أحد الحقول وتيريزا جالسة على أرومة شجرة وعند قدميها كارنينا تضطجع مسندة رأسها إلى ركبتيها. تتذكر تيريزا خبراً صغيراً من سطرين قرأته في جريدة جاء فيه أن جميع الكلاب قُتلت في إحدى المدن الروسية. هذا الخبر الصغير المكتوم والذي يبدو

غير مهم ظاهرياً جعلها تشعر، للمرة الأولى، بفظاعة هذا البلد الكبير المجاور.

كان هذا استيقاً لكل ما حصل فيما بعد، ففي أول ستين أعقبنا الاجتياح الروسي، لم يكن في الإمكان بعد التحدث فعلياً عن الرعب. بما أنَّ الأمة بأجمعها تقريباً كانت تشجب نظام الاحتلال، كان على الروس أن ينتقدوا من بين التشيكيين رجالاً يضعونهم في سدة السلطة. ولكن كيف نجدهم خصوصاً وأنَّ الإيمان بالشيوعية وحب روسيا باتاً أمرین مفروغاً منها؟ ذهبوا للبحث عنهم بين هؤلاء الذين يغذون في داخلهم الرغبة الحقوقة في تسديد حساباتهم مع الحياة.. كان الأمر يتطلب أن يُشدَّ أزر هذه العدائية وتغذيتها وجعلها في حالة تأهب، وتدربيها في أول الأمر ضد أي خطر محتمل. وهذا الخطر يكمن في الحيوانات.

أخذت الصحف تنشر آنذاك سلسلة مقالات وتنظم حملات في شكل رسائل للقراء. على سبيل المثال، المطالبة بإبادة الحمام في المدن، فتمنت إبادة الحمام كلياً. ولكن الحملة كانت متوجهة على الأخص ضد الكلاب. كان الناس لا يزالون يعيشون الصدمة الناتجة عن كارثة الاحتلال، أما الصحف والراديو والتلفزيون فكانت تتحدث فقط عن الكلاب ملوثة الأرضية والحدائق العامة، والمهددة لصحة الأطفال، والتي لا تنفع لشيء والتي يجب إطعامها، إلى ذلك كان يجري خلق جو من الهوس الفعلي وكانت تيريزا تخاف من أن يُسيء السفلة إلى كارنيينا. بعد مرور سنة على ذلك انصبَّ الحقد المتراكم (المجرب في البدء على الحيوانات) على هدفه الفعلي أي الإنسان. وبدأت عمليات التسريع من العمل وحملات التوقيف والمحاكمات. وهكذا استطاعت الحيوانات أخيراً أن تستعيد أنفاسها.

داعبت تيريزا رأس كارنيينا المستند بهدوء إلى ركبتيها. كانت

متمسكة تقريباً بهذه الفكرة: لا فضلَ لمن يتصرف جيداً مع أمثاله. تيريزا مضطربة لأن تكون مستقيمة مع القرويين وإلاً لما كان بإمكانها أن تعيش في جوارهم. وحتى مع توماس هي مجبرة على أن تتصرف كامرأة محبة لأنها بحاجة إليه. ليس في الإمكان قط أن نحدد بدقة إلى أي مدى تكون علاقاتنا بالآخرين من حصيلة مشاعرنا، حبنا أو لا حبنا، رقتنا أو كراهيتنا؛ وإلى أي مدى تكون علاقاتنا مشروطة مسبقاً بامتحان القوى فيما بين الأفراد.

الطيبة الحقيقية للإنسان لا يمكن أن تظهر في كلّ نفائتها وحريتها إلاّ حال هؤلاء الذين لا يمثلون أية قوة. فالمבחן الأخلاقي للإنسانية (المבחן الأكثر جذرية والذي يقع في مستوى أكثر عمقاً بحيث إنه يخفى عن أبصارنا) هو في تلك العلاقات التي تقيمها مع من هم تحت رحمتها، أي الحيوانات. وهنا تحديداً يكمن الإخفاق الجوهرى للإنسان، الإخفاق الذي تنتجه عنه كل الإخفاقات الأخرى.

اقتربت بقرة من تيريزا، ثم توقفت وأمعنت النظر فيها طويلاً بعينيها الكبيرتين البنيتين. تيريزا تعرفها وتدعوها مارغريت. كان في ودّها أن تعطي اسمًا لكل بقرة من بقراتها ولكنها لا تستطيع لأنهن كثيرات. منذ زمن، منذ ثلاثين سنة، كان أكيداً أن بقرات القرية كلها كانت تملك أسماء. (وإذا كان الاسم هو دلالة على الروح، فأستطيع القول إذاً إنهن كن يملكون روحًا، حتى ولو كان الأمر لا يعجب ديكارت). ولكن القرية أصبحت فيما بعد مصنعاً تعاونياً كبيراً، وصارت البقرات يمضين حياتهن في العيش بين مترين مربعين في الزريبة. لم يعد لديها أسماء ولم تعد سوى «آلات حية». وهكذا جعل العالم ديكارت على حق.

أمام عيني مائة أبداً تيريزا الجالسة على أرومة شجرة وهي تداعب رأس كارنينا وتفكر في إخفاق الإنسانية. وفي الوقت ذاته تنبثق صورة

أخرى أمام عيني: صورة نيتشه وهو خارج من فندق في توران، يرى حوذياً ينزل على حصانه بالسوط. فيقترب نيتشه من الحصان ويحيط عنقه بذراعه أمام ناظري الحوذى، ويهجهش في البكاء.

حدث هذا في عام 1889 عندما كان نيتشه قد تناهى كلياً عن الناس، وبكلمة أخرى في تلك الفترة تحديداً انتشر خبر مرضه العقلي. ولكن، حسب رأيي، هذا الأمر بالتحديد هو ما يعطي لهذا التصرف دلالته العميقية. جاء نيتشه يطلب لدیکارت المغفرة من الحصان. وجئونه (أي انفصاله عن البشرية) يبدأ في اللحظة التي بكى فيها من أجل الحصان.

وهذا «النيتشه» بالذات هو الذي أحبه، كما أحب تماماً تيريزا التي تداعب كلبتها المريضة حتى الموت فوق ركبتيها. أراهما جنباً إلى جنب يتبعان عن الطريق حيث تتبع الإنسانية «سيدة الطبيعة ومالكتها» تقدّمها إلى الأمام.

3

أنجبت كارنينا فطيرتين على شكل هلالين ونحلة، وكانت تنظر بدهشة إلى ذريتها الغريبة. كانت الفطيرتان ترکنان ساكتتين أما النحلة المذهولة فكانت تترنح. وبعد قليل طارت واختفت.

عندما استفاق تيريزا، أخبرت توماس هذا الحلم الذي رأته. ووجد كلاهما تعزية فيه: كان هذا الحلم يُحيل مرض كارنينا إلى حَبَل، ومشهد الولادة كان هزلياً ومؤثراً معاً: فطيرتان ونحلة.

شع في داخلها من جديد أمل غامض، فقامت وارتدت ملابسها. كان نهارها يبتدىء في القرية أيضاً بالجولات الشرائية. كانت تذهب إلى السمنان لتشتري حليباً وخبزاً وفطائر. ولكن حين نادت كارنينا في ذلك

اليوم لتصحبها، بالكاد رفعت الكلبة رأسها. وكانت هذه هي المرة الأولى التي ترفض فيها المشاركة في الاحتفال الذي تصرّ عليه دائمًا بعناد.

ذهبت إذاً من دونها. «أين كارنينا؟» سألت البائعة وقد جهزت فطيرة لها. هذه المرة، حملت نفسها الفطيرة في فقتها. ما إن صارت على العتبة حتى أخرجتها لتربيها لكارنينا. كانت تريد أن تأتي نفسها لتأخذها ولكن الكلبة بقيت نائمة دون حراك.

كان توماس يدرك مدى حزن تيريزا، فأخذ الفطيرة بنفسه من فمه وزحف قبالة كارنينا، ثم اقترب منها ببطء.

كانت كارنينا تنظر إليه وشعاع من الاهتمام بدأ يلتمع في عينيها، ولكنها لم تنہض. قرَب توماس وجهه إلى مسافة قريبة جداً من خطمها. دون أن تحرِّك جسدها، أخذت الكلبة في خطمها القطعة التي تبرز من فم توماس. ثم أفلت توماس الفطيرة ليتركها كاملة لكارنينا.

تراجع توماس وهو لا يزال زاحفاً، ثم تكُون وأخذ ينبع. كان يريد أن يتظاهر بأنه يقاتل من أجل الحصول على الفطيرة. أجبت الكلبة صاحبها وهي تدمدم. وحصل أخيراً ما كانا ينتظرانه! عادت لكارنينا الرغبة في اللعب! لا يزال لدى كارنينا حبّ الحياة!

هذه الدمدمة كانت ابتسامة كارنينا. كان في نيتها أن يجعلها هذه الابتسامة تدوم أطول وقت ممكن. من جديد اقترب توماس زاحفاً نحو الكلبة وأمسك طرف الفطيرة التي تبرز من خطمها. كان وجهاهما قريبين جداً الواحد من الآخر وأحسن توماس بلهاث الكلبة، وبالويرات الطويلة النابتة حول خطمها تدغدغ وجهه. أرسلت الكلبة دممدة وهزت خطمها فجأة. كان لكل منها نصف فطيرة يلتقطها بين أسنانه. ارتكبت

كارنينا خطأها القديم فأفلتت ما تحتفظ به من فطيرتها للاستحواذ على القطعة التي في فم سيدتها. كانت قد نسيت كالعادة أنّ توماس ليس كلباً وأنّ لديه يَدَيْن. لم يفلت توماس الفطيرة التي كانت في فمه وتناول النصف الذي سقط على الأرض بيده.

هتفت تيريزا: «توماس، لا تأخذ لها فطيرتها».

أفلت توماس نصفي الفطيرة أمام كارنينا. فالتهمت النصف الأول بسرعة، ولكنها احتفظت بالنصف الآخر طويلاً في فمها وبإصرار، لكي تثبت لسیدنیا أنها ربحت المعركة.

كانا ينظران إليها مرددين أنّ كارنينا كانت تبتسم، وأنها ما دامت تبتسم، فإنّ هناك أملاً في الحياة، حتى ولو كان محكماً عليها بالموت.

في صباح اليوم التالي بدا وكأنّ حالتها تحسنت. تناولاً إفطارهما. في مثل هذا الوقت كان يتمنى لهما أن يصطحبا الكلبة في نزهة. كانت تعرف هذا وتبدأ بالقفز عادة من حولهما بلجاجة قبل لحظات الشروع في النزهة. ولكن هذه المرة، حين وضعت تيريزا لها الرسن والطوق، نظرت إليهما طويلاً دون حراك. كانا منتصبين أمامها ويجهدان لأن يتظاهرا بأنهما سعيدان (بفضلها ومن أجلها) لكي يبيّنا فيها بعضاً من المزاج الطيب. بعد قليل، اقتربت الكلبة منهمما وكأنها أشفقت عليهما. اقتربت تعرج على قوائمهما الثلاث لكي يضعوا لها الطوق.

قال توماس: «تيريزا، أعرف أنك على خصم مع آلتكم الفوتوغرافية. ولكن خذيهما معك اليوم!».

أذعنـت تيريزا وفتحـت الخزانـة لتفتـش عن آلة التصـوير المخـفـية والمـنسـية في إحدـى الزـواـيا. أضافـت تومـاس: «سوفـ تكونـ سـعيدـينـ جداً ذاتـ يومـ لـالتـقـاطـناـ هـذهـ الصـورـ. كـارـنيـناـ كـانـتـ جـزـءـاًـ مـنـ حـيـاتـناـ».

- «هل قلْتَ كائِنَّا؟»، قالت تيريزا وكأنَّ أفعى لسعتها. كانت الآلة أمامها في عمق الخزانة ولكنها لم تقم بحركة. «لن آخذ الآلة معي. لا أريد أن أفكر أن كارنينا لن تعود بیننا. تتكلم عنها من الآن وكأنها جزء من الماضي!».

- «لا تعصبي مثي!» قال توماس.

- «لست غاضبة منك»، قالت تيريزا بهدوء، «أنا أيضًا مرأت كثيرة فاجأت نفسي وأنا أفكر فيها وكأنها صارت جزءاً من الماضي. ومرات كثيرة لُمت نفسي على ذلك! من أجل هذا، لن آخذ الكاميرا معي».

كانا يمشيان على الطريق دون أن ينبسا بكلمة، كان الصمت الطريقة الوحيدة التي يتجنبا التفكير في كارنينا وكأنها جزء من الماضي. لم يكونا يشيحان بيصرهما عنها وكانتا معها باستمرار، متحدين الفرصة التي قد تبتسם فيها. ولكنها لم تكن تبتسم بل تمشي فقط دائمًا على قوائمها الثلاث.

- «إنها تقوم بذلك فقط من أجلنا»، قالت تيريزا. «لم تكن راغبة في الخروج من البيت. جاءت فقط لكي تدخل السرور إلى قلبينا».

ما قالَه كان محزنًا. ولكن، على الرغم من ذلك كانا سعيدين دون أن يدرجا. وسعادتهما لم تكن على الرغم من الحزن بل بفضلها. كانوا يمسكان بأيديهما ويريان أمام أعينهما الصورة ذاتها: كلبة عرجاء تجسّد عشر سنوات من عمرهما.

رغباً في القيام أيضًا بجولة صغيرة. ولكن كارنينا خيَّبت آمالهما عندما توقفت فجأة لتعود على أعقابها. وجُبِّت العودة إذا.

ربما في اليوم ذاته أو بعده، رأت تيريزا عندما دخلت إلى غرفة توماس بفترة أنه كان يقرأ رسالة. حين سمع الباب يصفق، أخفى الرسالة بين الأوراق فلاحظَ ذلك. وحين خرج من الغرفة رأته يدسّ

رسالة في جيبيه. ولكنه كان قد نسي المغلف. عندما صارت وحدتها في البيت، تفحصت المغلف. كان العنوان مكتوبًا بخط مجهول ولكنه واضح جداً، ويداً لها وكأنه خط امرأة.

فيما بعد، حين تلاقيا ثانية، سألته متظاهرة بأن شيئاً لم يكن، هل يتلقى رسائل في البريد.

«لا»، قال توماس، فتولى اليأس قلب تيريزا؛ يأس قاتل لأنها فقدت الاعتياد عليه. لا، لم تكن تعتقد أن بإمكان توماس أن يعاشر امرأة هنا في الخفاء، فهذا مستحيل عملياً. كانت على بيته من جميع أوقات فراغه. ولكن ربما هناك امرأة في براغ لا يزال متعلقاً بها حتى ولو لم يكن في مستطاعها أن تترك رائحة فرجها في شعره. لم تكن تعتقد أن توماس يمكن أن يتركها بسبب هذه المرأة، ومع ذلك فقد أحست بأن سعادة السنتين الأخيرتين اللتين عاشتهما في القرية، قد شوّهما الكذب، كما حدث في السابق.

عاودتها فكرة قديمة: سُكناها لم يكن توماس، بل كارنينا. من سوف يعيّن ساعة أيامهما من جديد عندما لن تعود هنا؟

كانت تيريزا تفكّر في المستقبل، في مستقبل دون كارنينا وكانت تشعر أنها متروكة فيه.

كانت كارنينا مضطجعة في إحدى الزوايا وتنوح. ذهبت تيريزا إلى الحديقة. تفحصت الأرض المعشبة بين شجرتي تفاح وقالت في نفسها إنهم سيدفنان كارنينا هنا، غرزت كعبها في التراب لترسم في العشب شكلاً مستطيلاً. ستكون هذه مساحة قبرها.

«ماذا تفعلين؟» سألهما توماس الذي باعها بالشكل الذي باعنته فيه منذ ساعات معدودات عندما كان يقرأ الرسالة.

لم تجب. كان يرى يديها ترتجفان: كانت هذه هي المرة الأولى

منذ وقت طويل. أمسك يديها، فتملصت منه.

«هل هذا قبر كارنينا؟»

لم تُجب.

كان صمتها يُغضِّب توomas فانفجر غاضباً: «لقد لُمْتني لأنني فكرت فيها بصيغة الماضي. وأنتِ ماذا تفعلين؟ تريدين دفتها من الآن!».

أدارت ظهرها ورجعت إلى البيت.

ذهب توomas إلى غرفته وصفق الباب وراءه.

فتحت تيريزا الباب من جديد وهي تقول: «لا تفكِر إلا في نفسك. يمكنك على الأقل أن تفكِر فيها في هذه المحنَة. كانت تنام وأيقظتها. ستبدأ بالتحبيب من جديد».

كانت تعلم أنها غير عادلة (فالكلبة لم تكن نائمة) وأنها تتصرف مثلما تتصرف المرأة الساذجة الأكثر ابتدالاً حين ترغب في الإيذاء وتقتنه.

دخل توomas على رؤوس أصابعه إلى الغرفة التي كانت كارنينا تنام فيها. لكنها لم تشا أن تتركه وحيداً معها. انحنى كلامها فوق الكلبة، كلٌّ من جهته. هذه الحركة المشتركة لم تكن لفتة تسامح بل على العكس، كان كلٌّ منها وحيداً. تيريزا مع كلبتها وتوomas مع كلبته. يخالجني خوف عظيم من أن يبقيا هكذا معها حتى آخر لحظة منفصلين وكلٌّ منها وحده.

4

ليم عبارة «الحبُّ البريء» هي على هذه الأهمية بالنسبة لتيريزا؟ نحن الذين تربينا في أجواء أساطير العهد القديم، يمكننا أن نقول

إن «الحب البريء» هو الصورة التي بقيت فينا بمثابة ذكرى من الجنة: لم تكن الحياة في الجنة تشبه الرحلة ذات الخط المستقيم التي تقدمنا في المجهول، ولم تكن مغامرة. بل كانت تتحرك في سير دائري وسط أشياء معروفة، ولم تكن رتابتها ضجراً بل سعادة.

ما دام الإنسان يعيش في الريف في قلب الطبيعة محاطاً بالحيوانات الأليفة يعانق الفصوص وتكرارها، فإنه سيظل يحتفظ، وإن كان الأمر مجرد صدفة، بشيء من ذلك الحب البريء الفردوسي. حين التقت تيريزا رئيس التعاونية في مدينة المياه المعدنية، انبجست أمام عينيها صورة الريف (الريف الذي لم تعش فيه من قبل والذي لم تكن تعرفه) وشعرت بالغبطة. كان الأمر وكأنها نظرت إلى الوراء، باتجاه الجنة.

في الجنة، حين كان آدم ينحني فوق النبع، لم يكن يعرف بعد أن الصورة التي يراها كانت تمثله. ولم يكن قادراً على أن يفهم معنى وقوفات تيريزا المطلولة قبلة المرأة عندما كانت صغيرة أو جهدها لترى روحها عبر جسدها. كان آدم مثل كارنينا. فعندما كانت تيريزا تقدّر كارنينا أمام المرأة لتسلّى، كانت كارنينا لا تعرف إلى صورتها بل تنظر إلى نفسها ساهمة وبلا مبالاة كلية.

المقارنة بين كارنينا وأدام تجعلني أفكّر أنّ الإنسان في الجنة لم يكن قد صار إنساناً بعد. وبطريقة أصح، لم يكن الإنسان قد قُذف بعد إلى مدار الإنسان. أما نحن الذين قذفنا منذ زمن بعيد محلقين في نزاع الوقت الذي يسير في خط مستقيم، فلا تزال في داخلنا بقية من خيط رفيع يشدنا إلى الجنة البعيدة المغبّة، حيث كان آدم ينحني فوق النبع من غير أن يفكّر، على العكس تماماً من نرسيس، في أنّ هذه البقعة الصفراء الشاحبة التي تراءى له، هي صورته. الحنين إلى الجنة إذاً هو رغبة الإنسان في ألا يكون إنساناً.

عندما كانت صغيرة وتعثر على فوط أمها الصحية الملطخة بدم العادة الشهرية، كانت تشعر بالقرف والكراهية نحو أمها التي لم تكل نفسها حشمة أن تخفيها عن الأنظار. ولكن كارنينا كانت كلبة وبأيتها الطمت أيضاً مرة كل ستة أشهر ويدوم خمسة عشر يوماً. ولكي لا توسع الشقة، كانت تيريزا تضع بين رجلتها قطعة ضخمة من القطن وتلبسها أحد سراويلها العتيقة وتشتبه حول جسدها بواسطة شريط طويل. كان يسرّها أن ترى هذا الزي المضحك خلال خمسة عشر يوماً.

كيف يمكن أن نفسر أن طمت كلبة يثير فيها حناناً فرحاً فيما عادتها الشهرية كانت تنفرها؟ يبدو لي الجواب سهلاً: الكلبة لم تُطرد من الجنة. كارنينا تجهل كل شيء عن ثنائية الروح والجسد وتجهل ما هو القرف. لذلك كانت تيريزا تشعر أنها جيدة وهادئة جداً قربها (ومن أجل هذا، من الخطورة بمكان أن نحوال الحيوان إلى آلة حية وأن نجعل من البقرة آلة لإنتاج الحليب: ف بهذه الطريقة يقطع الإنسان الخيط الذي كان يصله بالجنة، ولا شيء يستطيع عندئذ إيقافه أو تعزيته خلال طيرانه عبر فراغ الزمن).

من خلال الفوضى المشوشة لهذه الأفكار، تبرعمت فكرة دنسة في روح تيريزا دون أن تستطيع التخلص منها: الحب الذي يربطها بكلارنينا أفضل من الحب الموجود بينها وبين توماس، أفضل منه لكن ليس أكبر. تيريزا لا تنوی اتهام أحد، لا هي ولا توماس، ولا تريد أن تؤكد أن بإمكانهما أن يتحاباً أكثر. وإنما يبدو لها أن الحب (في أفضل حالاته على الأقل) مخلوق أصلاً ليكون من طبيعة أدنى مما يمكن أن يكونه الحب بين الإنسان والكلب. وهنا بالذات تكمن غرابة التاريخ الإنساني الذي لم يخطط له الخالق على الأرجح.

إن هذا الحب لمترفع: تيريزا لا ت يريد شيئاً من كارنينا ولا تطلب

منها أن تبادلها الحب. هي لم يخطر ببالها قط أن تطرح على نفسها الأسئلة التي تعذّب عادة العشاق البشر: هل يحبني؟ هل أحب أحداً من قبل أكثر مني؟ هل حبه لي أكبر من حبي له؟ كل تلك الأسئلة التي تساور الحب والتي تعيشه وتتفحصه وتمتحنه وتدمّره ربما وهو لما يزل جنيناً. إذا كنا غير قادرين على الحب فهذا ربما لأننا نرغب في أن تكون محبوبين، أي لأننا نريد شيئاً من الآخر (الحب) بدل أن نجيئه دون شرط وألا نرغب في شيء آخر سوى حضوره.

وهناك شيء آخر: تيريزا قبلت كارنينا كما هي. لم تسع إلى تغييرها لتصير نسخة عنها. بل أذعنـت مسبقاً لعـالمـها كـكلـبة ولـم تـشاـدـرـتهـ. فـهيـ لاـ تـشـعـرـ بالـحـسـدـ منـ مـيـولـهـاـ السـرـيـةـ. وإذاـ كانـتـ قدـ سـهـرـتـ عـلـىـ تـرـيـتـهـاـ فـهـذـاـ لـيـسـ مـنـ أـجـلـ أـنـ تـغـيـرـهـ،ـ (ـكـمـاـ يـريـدـ رـجـلـ أـنـ يـغـيـرـ زـوـجـتـهـ أـوـ كـمـاـ تـغـيـرـ اـمـرـأـ زـوـجـهـاـ)ـ وـلـكـنـ فـقـطـ لـكـيـ تـعـلـمـهـاـ اللـغـةـ الـبـداـئـيـةـ الـتـيـ تـسـمـعـ لـهـمـاـ بـأـنـ يـتـفـاهـمـاـ وـبـأـنـ يـعـيـشـاـ سـوـيـةـ.

وهناك أيضاً شيء آخر: حبها لكلبتها إرادـيـ وـلـمـ يـجـبـرـهـ أـحـدـ عليهـ.ـ (ـمـرـةـ أـخـرىـ،ـ تـفـكـرـ تـيرـيزـاـ فـيـ أـمـهـاـ وـتـشـعـرـ بـأـسـىـ كـبـيرـ نـحـوـهـاـ).ـ لوـ كـانـتـ أـمـهـاـ إـحـدـىـ نـسـاءـ القرـيـةـ غـيرـ المـعـرـوفـاتـ لـكـانـ بـإـمـكـانـهـاـ أـنـ تـجـدـ فـظـاظـتـهـاـ الـمـرـحـةـ أـمـرـأـ مـحـبـبـاـ!ـ آـهـ!ـ لـكـنـ فـقـطـ لـوـ كـانـتـ أـمـهـاـ غـرـيبـةـ عـنـ الـمـدـيـنـةـ!ـ مـنـذـ الطـفـولـةـ وـتـيرـيزـاـ تـخـجلـ دـائـمـاـ مـنـ أـنـ تـحـتلـ أـمـهـاـ تـقـاسـيمـ وـجـهـهـاـ وـأـنـ تـصـادـرـ لـهـاـ ذـاتـهـاـ.ـ وـالـأـسـوـأـ مـنـ ذـلـكـ أـنـ الـوـصـيـةـ الـمـوـغـلـةـ فـيـ الـقـدـمـ وـالـتـيـ تـقـولـ:ـ «ـأـحـبـ أـبـاكـ وـأـمـكـ»ـ كـانـتـ تـجـبـرـهـاـ عـلـىـ الـقـبـولـ بـهـذـاـ الـاحـتـلـالـ وـعـلـىـ أـنـ تـصـفـ بـالـحـبـ هـذـاـ الـاعـتـداءـ!ـ هـذـهـ لـيـسـ غـلـطـةـ أـمـهـاـ إـنـ كـانـتـ تـيرـيزـاـ قـدـ قـطـعـتـ عـلـاقـتـهـاـ بـهـاـ.ـ لـمـ تـقطـعـ عـلـاقـتـهـاـ بـأـمـهـاـ لـأـنـ أـمـهـاـ كـانـتـ كـمـاـ كـانـتـ،ـ بـلـ لـأـنـهـاـ كـانـتـ أـمـهـاـ).

ولـكـنـ تـجـدـرـ الإـشـارـةـ خـصـوصـاـ إـلـىـ هـذـاـ الـأـمـرـ:ـ لـاـ يـمـكـنـ لـأـيـ إـنـسانـ أـنـ يـقـدـمـ لـلـآـخـرـ قـرـبـانـ الـحـبـ الـبـرـيءـ.ـ وـحـدهـ الـحـيـوانـ يـسـطـيعـ ذـلـكـ لـأـنـهـ

لم يُطرد من الجنة.. الحب بين الإنسان والكلب حب بريء، حب دون صراع ودون مشاهد ممزقة ودون تطور. حول تيريزا وتوماس كانت كارنينا تخط دائرة حياتها المبنية على التكرار وكانت تنتظر منها الشيء نفسه.

لو كانت كارنينا إنساناً بدل أن تكون كلبة لكان أكيداً أن تقول تيريزا منذ زمن بعيد: «اسمعي، لم يعد يعجبني أن أحمل كل يوم فطيرة في فمي. ألا يمكنك أن تقدمي لي شيئاً آخر جديداً؟». وكانت إدانة الإنسان كلها متمثلة في هذه الجملة. الزمن الإنساني لا يسير في شكل دائري بل يتقدم في خط مستقيم. من هنا، لا يمكن للإنسان أن يكون سعيداً لأن السعادة رغبة في التكرار.

نعم، السعادة رغبة في التكرار، فنكر تيريزا.

عندما كان رئيس التعاونية يذهب لتزييه مفيستو، بعد انتهاءه من العمل، ويلتقي بتيريزا، لم يكن ينسى قط أن يقول: «سيديتي لو أنتي فقط التقى من قبل! كنا ذهباً لمحاولات البناء معاً. فليست هناك أية امرأة تستطيع أن تقاوم خنزيرين!» عند هذه الكلمات، كان الخنزير يطلق نحيراً، فهو رئيسي من أجل هذا. وكانت تيريزا تصاحك مع أنها كانت تعرف مسبقاً ما سيقوله لها الرئيس. فالنكرار لم يكن يغير شيئاً من سحر هذه المزحة. بل على العكس، حتى الفكاهة في سياق الحب البريء تخضع لقانون التكرار العذب.

5

بالمقارنة مع الإنسان، لا يتمتع الكلب بأية امتيازات، إلا أنه يملك امتيازاً يمكن تثمينه: القتل رحمة به لا يحرمه القانون، فالحيوان يملك الحق في ميتة رؤوفة. كانت كارنينا تمضي على ثلاث قوائم وتمضي أوقاتاً متزايدة وهي تنوح مضطجعة في الزاوية. كان توماس وتيريزا

متفاهمين تماماً، إذ ليس لهما الحق في أن يتركاهما تشقى دون جدوى. ولكن اتفاهمها على هذا المبدأ لم يكن يجنبهما قلق الشك: كيف يمكن معرفة متى يصير العذاب غير مجد؟ وكيف نحدد اللحظة التي لا تعود الحياة فيها جديرة بأن تعاش؟

لو أن توماس لم يكن طيباً! كان بإمكانه عندئذ أن يختبئ وراء شخص ثالث. وكان بإمكانه عندئذ أن يذهب لزيارة الطبيب البيطري وأن يطلب منه حقن الكلبة بالإبرة.

إنه لأمر شاق أن يقوم المرء بنفسه بمهام الموت. كان توماس قد أعلن مراراً وبحزم أنه لن يغرس الحقيقة بنفسه وأنه سوف يستدعي الطبيب البيطري. ولكنه فهم في النهاية أن بإمكانه أن يمنحها امتيازاً ليس في متناول أي كائن بشري: سيوافيها الموت في هيئة من يحبونها.

كانت كارنينا قد أمضت الليل تتأوه. عند الصباح، فحصها توماس ثم قال لتيريزا: «لم يعد بالإمكان الانتظار».

كان عليهما أن يذهبا إلى عملهما بعد قليل. ذهبت تيريزا لإحضار كارنينا من الغرفة. حتى هذا الوقت، بقيت ممددة بلا مبالاة، (وحتى قبل قليل، حين كانت تيريزا تفحصها، لم تُبدِ أي اهتمام) ولكن عندما سمعت الباب يفتح، رفعت رأسها ونظرت إلى تيريزا.

لم تقُلَّ تيريزا على تحمل هذه النظرة، وكادت أن تخيفها. لم تكن قط تنظر إلى توماس بهذه الطريقة بل إليها وحدها. ولكن ليس بالحدة نفسها كما الآن. لم تكن نظرتها مشوبة باليأس أو الحزن، لا. كانت نظرة ثقة مربعة وغير محتملة. كانت هذه النظرة سؤالاً لجوجاً وكان كارنينا قد انتظرت طوال حياتها جواب تيريزا. كانت تحاول أن تفهمها الآن (وبالحاج أكثر من ذي قبل) أنها لا تزال مستعدة لتلقي الحقيقة منها (لأن كل ما كان يصدر عن تيريزا يمثل الحقيقة بالنسبة لها): كان

تقول لها مثلاً «أجلسي»! أو «نامي». كل هذه الأوامر هي بمثابة حقائق تماثل معها وتعطي لحياتها معنى).

كانت هذه النظرة ذات الثقة المرعبة خاطفة. عادت بعد قليل وأسندت رأسها فوق قوائهما. كانت تيريزا تعرف أن لا أحد أبداً سينظر إليها بالطريقة هذه.

لم يقدما لها قط السكاكر من قبل، ولكن منذ بضعة أيام، اشترب لها ألواحاً من الشوكولا. نزعت عنها الورقة الفضية وقطعتها قطعاً صغيرة ثم وضعتها أمام الكلبة. ووضعت أيضاً قطعة مليئة بالماء كي لا تحتاج كارنينا إلى شيء طوال الساعات القليلة التي تبقى فيها وحدها في البيت. ولكن يبدو أن النظرة التي ألقتها عليها قد أتعبتها. فلم ترفع رأسها ثانية على الرغم من أنها كانت محاطة بقطع من الشوكولا.

اضطجعَت على الأرض قرها وحملتها بين ذراعيها فتشممَتها ببطء شديد، ولعلتها بلسانها مرة أو مرتين بتعب كبير. استسلمت لهذه المداعبة بعينين مغمضتين وكأنها تريد أن تحفرها في ذاكرتها إلى الأبد. أدارت رأسها لكي تلحس لها خدتها الآخر أيضاً.

ثم وجب عليها أن تنهد للاهتمام بالبقرات. لن ترجع إلا بعد الغداء. وتوماس لم يعد بعد. كانت كارنينا لا تزال نائمة وهي محاطة بقطع الشوكولا، ولم ترفع رأسها عندما سمعت تيريزا تقترب. كانت ساقها المريضة متورمة، وانتشر الورم في أماكن أخرى. ظهرت نقطة حمراء شاحبة (لا تشبه الدم إطلاقاً) بين الشعرات.

وكما في الصباح، تمددت على الأرض قرها وأحاطتها بذراعيها مغمضة عينيها. ثم سمعت قرعًا على الباب. «دكتور! دكتور!»، ها قد أتاك الخنزير ورئيسه!. كانت غير قادرة على الكلام مع أحد. لم تقم بحركة وأبقيت عينيها مغمضتين. ثم سمعت مرة أخرى: «دكتور، الخنازير أنت لترك». ثم ساد الصمت من جديد.

رجع توماس بعد نصف ساعة. ذهب إلى المطبخ من غير أن ينبع بكلمة لتحضير الحنة. عندما رجع إلى الغرفة، كانت تيريزا واقفة وكارنينا تبذل جهداً للنهوض. عندما رأت توماس، حركت ذنبها بخفة.

«انظر!» قالت تيريزا، «لا تزال تبسم».

قالت ذلك بلهجة يشوبها التوسل وكأنها أرادت من خلال هذه الكلمات أن تلمح إلى إرجاء بسيط للإعدام، ولكنها لم تلح.

مددت بيضاء شرشفاً على السرير. كان الشرشف أبيض مزييناً برسوم تمثل أزهاراً صغيرة بنفسجية اللون. على أية حال، كانت قد جهزت مسبقاً كل شيء وفكرت في كل الأمور وكأنها تصورت موت كارنينا منذ أيام عديدة. (آه! أي هول! نحلم مسبقاً بموتِ مَنْ نحبهم).

لم تكن لديها القوة لتقفز من على السرير فحملتها بين أذرعهما ورفعها معاً. وضعها توماس على جنبها وفحص لها قائمتها. كان يبحث عن مكان حيث يكون العرق بارزاً ومرئياً بوضوح. قصّ لها الشعرات بمقص في هذا المكان.

كانت كارنينا راكعة أمام السرير وتحمل في يديها رأس كارنينا ملائقاً لوجهها.

طلب منها توماس أن تمسك القائمة الخلفية بحزم، وتماماً فوق العرق الذي كان رفيعاً ويصعب أن تُغرز الإبرة فيه. أمسكت برجل كارنينا من دون أن تبعد وجهها عن رأسها. ثم أخذت تتحدث إليها من دون توقف بصوت ناعم، وكانت الكلبة لا تفكر إلا فيها. لم تكن خائفة، لحسّت لها وجهها مرتين، فيما تيريزا همست لها: «لا تخافي، لا تخافي، هناك لن تشعر بالألم، هناك ستتحلّمين بسناجب وبأرانب بريّة. وستكون هناك بقرات ومفيستو أيضاً، لا تخافي...».

غرز توماس الإبرة في العرق وضغط على المحقق. فاهتزّت قائمة

كارنينا اهتزازاً خفيفاً، وتسارع تنفسها ثم توقف نهائياً. كانت تيريزا ما تزال راكعة على الأرض أمام سريرها وتلتصق وجهها برأسها.

وجب عليهم أن يعودا إلى العمل. وبقيت الكلبة ممددة على السرير فوق الشرشف الأبيض المزين بأزهار بنفسجية.

رجعاً عند المساء. ذهب توماس إلى الحديقة واهتدى إلى خطوط المستطيل الأربع التي رسمتها تيريزا بين شجرتي التفاح منذ أيام قليلة. وأخذ يحفر مراعياً بدقة المقاييس المرسومة، كان يريد أن يتم كل شيء حسب رغبة تيريزا.

بقيت تيريزا في البيت إلى جانب كارنينا. كانت خائفة من أن يدفنها الكلبة وهي حية، ألصقت أذنها بخطمها فخيّل إليها أنها تسمع نفسها ضعيفاً. ابتعدت فرأت أن صدرها يتحرك قليلاً.

(لا، لم تسمع غير تنفسها هي، تنفسها الذي ينقل الحركة إلى جسدها هي بطريقة غير مرئية، وفي ظنها أن صدر الكلبة هو الذي يتحرك!).

عنترت على مرأة في حقيبتها فألصقتها بخطم الكلبة.. كانت المرأة متشحة جداً فحسبت أنها ترى البخار المتتصاعد من نفس الكلبة. فصرخت بتوماس الذي كان راجعاً من الحديقة وحذاه مكسو بالوحش: «توماس، لا تزال على قيد الحياة!».

انحنى فوق الكلبة وأشار برأسه أن لا.

أمسك كلُّ من ناحيته بطرف الشرشف حيث كانت كارنينا ممددة، تيريزا من جهة القائمتين الخلفيتين وتوماس من جهة الرأس. ثم رفعاها وحملوها إلى الحديقة.

شعرت تيريزا بأن الشرشف كان مبتلاً تحت يديها. ففكّرت أن الكلبة بمجيئها إلى العالم جلبت معها بركة ماء صغيرة ويرحلّيها منه

تركت لنا بركة صغيرة. كانت سعيدة بهذه الرطوبة تحت أصابعها وكأنها وداع آخر من الكلبة.

حملها إلى ما بين شجري التفاح وأنزلها في قعر الحفرة. انحنى لتسوئي الشرشف بشكل يلف جسد الكلبة كلها. لم تكن تقوى على تحمل فكرة أن التراب الذي سيلقيانه فوقها سيلامس جسدها العاري.

توجهت بعد ذلك إلى البيت لتعود بالطوق والرسن وحفلة من قطع الشوكولا التي بقية على الأرض لم تُمس منذ الصباح. ثم ألقت بكل هذا في القبر.

كان إلى جانب الحفرة كومة من التراب المقلوب حديثاً. أمسك توماس بالرفش.

كانت تيريزا تتذكر حلمها الذي أنجبت فيه كارنينا فطيرتين ونحلة.. بدا لها فجأة أن هذه الجملة تشبه كتابة على ضريح.أخذت تخيل نصباً تذكارياً قد أقيم بين شجري التفاح نقش عليه: « هنا ترقد كارنينا. أنجبت فطيرتين على شكل هلالين ونحلة».

بدأ الظلام يشتد في الحديقة. كان الوقت لا نهاراً ولا ليلاً، وظهر قمر شاحب في السماء مثل لمبة قد نسيت مضاءة في غرفة الموتى.. كان حداوهما مغطى بالتراب. أرجعا المجرفة والرفش إلى السقيفه التي توضع فيها الأدوات من مذاي ومعاول ومناشير.

6

عندما كان توماس يجلس أمام الطاولة في غرفته حيث كان يطالع كتاباً، كانت تيريزا تأتي لموافاته وتحنني فوقه ضاغطة وجهها على رأسه. عندما قامت بهذه الحركة في ذاك اليوم، لاحظت أن توماس لم

ي肯 يقرأ كتاباً. بل كانت هناك رسالة موضوعة أمامه وكان توماس شاكراً إليها بنظرة طويلة جامدة مع أنها لا تحوي سوى خمسة أسطر مطبوعة.

قالت تيريزا بقلق: «ما هذا؟».

ودون أن يستدير، أخذ توماس الرسالة وأعطها إليها. جاء فيها أن عليه أن يذهب في هذا النهار إلى مطار المدينة المجاورة.

عندما أدارأخيراً رأسه ناحية تيريزا، قرأت في عينيه الذعر نفسه الذي أحست به للتو.

قالت: «أرفقك».

هزَ رأسه نفياً: «هذه الدعوة لا تخصّ سواي».

ردَّدت: «لا، أريد أن أرفقك» ثم صعدا في شاحنة توماس.

بعد وقت قليل وصلا إلى مدرج المطار. كان الضباب يلف المكان. كانت تتوالى أمامهما وبطريقة مبهمة أشباح طائرات. كانوا يتقلان من طائرة إلى أخرى ولكن أبواب هذه الطائرات كلها مغلقة ولم يكن هناك من وسيلة للدخول. وأخيراً وجدا طائرة بابها الأمامي مفتوح والسلالم مُنزل. صعدا الدرجات وظهر مضيف في الباب مُشيراً لهما بالمتابعة. كانت الطائرة صغيرة بالكاد تسع لثلاثين مقعداً وفارغة تماماً. تقدما عبر الممر بين المقاعد وهما لا يزالان متلامسكي الأيدي ودون أن يهتما إطلاقاً لما يجري حولهما. جلسا جنباً إلى جنب على مقعدين وألقت تيريزا رأسها على كتف توماس. تبدد الهلع الأولى ليحل مكانه الحزن.

الهلع صدمة، لحظة عمي كلي. الهلع مجرد من أي مسحة جمال. لا نرى خلاله إلا النور المبهر للحدث المجهول الذي ننتظره. وخلافاً لذلك، الحزن يفترض مسبقاً أننا نعرفه. كان توماس وتيريزا

يعرفان ماذا كان يتظارهما. أخذ بريق الهلع يحتجب لينكشف العالم في إضاءة مغبضة وعذبة تجعل الأشياء أكثر جمالاً من ذي قبل.

لحظة قرأت تيريزا الرسالة، لم تكن تشعر بحب لتوomas. كانت تفكّر فقط أنه يجب ألا تتركه ثانية واحدة. كان الهلع يخنق كل المشاعر الأخرى وكل الانطباعات الأخرى. الآن وقد التصقت به (كانت الطائرة تحلق وسط الغيوم) زال الخوف وأحسست بالحب. كانت تعرف أنّ هذا الحب لا قياس له ولا حدّ.

حطّت الطائرة أخيراً. نهضَا وتوجّها نحو الباب الذي فتحه المضيف. كانا يقفان متعانقين على الدرجات في أعلى السلم. شاهدا في الأسفل ثلاثة رجال يضعون كاغوليات^(*) على رؤوسهم ويحملون بنادق في أيديهم.. . كان التردد غير مجيد لأنّ لا وسيلة للفرار. نزلوا الدرج ببطء. وعندما وضعا أقدامهما على المدرج، رفع أحد الرجال بندقيته وصوّبها. لم تُحدث صوتاً ولكن تيريزا أحسّت بأنّ توomas الذي كان يلتتصق بها منذ دقيقة ويحيطها بذراعيه قد تهاوى ساقطاً على الأرض.

أرادت أن تضمّه إليها ولكنها لم تستطع الإمساك به. سقط على باطون المدرج. انحنىت راغبة في أن ترتمي فوقه لتغمره بجسدها، ولكن حدث في هذه اللحظة شيءٌ غريب: أخذ جسده يتضاءل أمام عينيها بسرعة، بسرعة عجيبة لدرجة أنها بقيت جامدة ومسمرة في مكانها. كان جسد توomas يتقلص أكثر فأكثر حتى لم يشبه توomas بشيء. لم يبق من توomas سوى شيءٌ ضئيل جداً. وهذا الشيء الضئيل أخذ يتحرك ثم بدأ يركض فاراً على مدرج الطائرات.

نزع الرجل الذي أطلق الرصاص قناعه وابتسم بطريقة لطيفة

(*) الكاغولية: جبة للرأس لا يبرز منها إلا العينان يلبسها أعضاء الكاغول الإرهابيون.

لتيريزا. ثم التفت وأخذ يلاحق هذا الشيء الصغير الذي كان يركض متعرجاً من هنا وهناك وكأنه يتحاشى أحداً ما ويبحث عبئاً عن ملجاً. دارت المطاردة بضع لحظات، ثم ألقى الرجل بنفسه فجأة على الأرض فانتهت المطاردة.

ثم نهض وجاء إلى تيريزا. كان يحمل لها الشيء في يديه. وكان هذا الشيء يرتجف خوفاً. كان الشيء أربناً برياً فقدَمه إلى تيريزا. عندئذ اختفى الرعب والحزن. سُرت لأنها أمسكت بهذا الحيوان الصغير بين يديها، حيوان صغير لتمتلكه وتضمه إلى صدرها.. ذرفت الدموع من السعادة. كانت تبكي دون أن تتوقف عن البكاء ولا ترى شيئاً من خلال دموعها. ثم حملت الأرنب البري إلى بيتها وهي تقول في نفسها إنها اقتربت أخيراً من مبتغاها، وإنها كانت حيث ترغب أن تكون وحيث لم يعد هناك داعٍ للهرب.

اتجهت عبر شوارع براغ وبلغت بيتها بسهولة. بيتهما الذي عاشت فيه مذ كانت صغيرة. لم يعد أبوها وأمها يسكنان فيه. استقبلها عجوزان لم ترهما من قبل ولكنها كانت تعرف أنهما والد جدتها وأم جدتها. كان وجه كليهما مجعداً كقشرة شجرة، وكانت تيريزا سعيدة لأنها تسكن معهما. ولكنها الآن، رغبت في أن تكون وحدها مع حيوانها الصغير. اهتدت دون صعوبة إلى الغرفة التي كانت تسكن فيها منذ سن الخامسة، حين قرر والداها أنها باتت تستحق أن تكون لها غرفة خاصة بها.

كانت الغرفة مؤثثة بسرير وطاولة صغيرة وكرسي. على الطاولة كان هناك مصباح مضاء يتظارها منذ ذلك الوقت. وفوق هذا المصباح كانت تستلقي فراشة جناحاها مفتوحان مزيتان بعيدين كبيرتين ملوتين. كانت تيريزا تدرك أنها توشك أن تلامس الهدف. فتمددت على السرير وألصقت الأرنب البري إلى وجهها.

كان جالساً أمام الطاولة التي كان يجلس إليها دائماً لقراءة الكتب.. كان أمامه ظرف مفتوح ورسالة.. قال تيريزا: أتلقي من وقت لآخر رسالة.. لم أكن أتمنى أن أتحدث بشأنها إليك. وهي من ابني. فعلت كل ما في وسعي لأنتحاشي أي اتصال بين حياتي وحياته. وانظري بأي طريقة انتقم القدر مني. فهو قد طرد من الجامعة منذ بضع سنوات ويعمل الآن سائقاً لشاحنة زراعية في إحدى القرى. صحيح أن لا اتصال بين حياتي وحياته. ولكنهما رسمتا جنباً إلى جنب في الاتجاه نفسه مثل خطين متوازيين.

قالت تيريزا وكأنَّ حملاً قد أزبَعَ عنها: ولماذا لم تشاًنْ تخبرني عن هذه الرسائل؟

- لا أعرف، كان الأمر يُنفرني.

- وهل يراسلك مراراً؟

- من وقت لآخر.

- وعمَّ يحدثك؟

- عن نفسه.

- وهل مهم ما يقوله؟

- نعم. أمه كما تعرفيين كانت شيوعية مسورة. قطع علاقته بها منذ وقت طويـل. وارتبط بأشخاص كانوا في مثل وضعنا. حاولوا أن يقوموا بنشاط سياسي. بعضهم موجود الآن في السجن. ولكنه خاصـهم أيضاً وابتعد عنـهم. يصفـهم «بالثوار الأبدـين»؟.

- هل تصالح مع هذا النظام؟

- لا إطلاقاً، إنه مؤمن ويعتقد أنَّ الإيمان هو أساس كل شيء.

وبحسب رأيه، كلّ واحد متنى يجب أن يعيش الحياة اليومية وفقاً للقواعد التي نصّ عليها الدين، دون أن يقيم أي اعتبار للنظام. يجب أن نتجاهل النظام. وبحسب رأيه كذلك، إذا كنّا مؤمنين بالله فنحن قادرون وبالتالي على أن نُرسّي في أي ظرف كان من خلال مسلكنا ما يسمّيه «مملكة الله على الأرض». ويشرح لي أيضاً أن الكنيسة هي المؤسسة الاختيارية الوحيدة في بلادنا المتفلتة من رقابة الدولة. مما يجعلني أسئل هل ممارسته للدين هي لمقاومة النظام بشكل أفضل أم أنه مؤمن حقاً.

- حسناً! اطرح عليه هذا السؤال!

تابع توماس: كنت دائماً من المعجبين بالمؤمنين. كنت أعتقد أنهم يملكون الموهبة الخاصة للإدراك الخارج عن النطاق الحسي، والذي امتنع عليّ. ولكنني أدرك الآن، مُتمثلاً بابني، أنّ كون المرأة مؤمناً أمر سهل جداً. فعندما وجد ابني نفسه في موقع حرج اهتمّ به أناس كاثوليكيون فاكتشف فجأة الإيمان. ربما قرر ذلك كعرفان للجميل. فالقرارات الإنسانية سهلة بشكل لا يصدق.

- ألم تُجب يوماً على رسائله؟

- لم يكتب عنوانه.

ثم أضاف: «يوجد بالطبع عنوان القرية على ختم البريد. يكفي أن أبعث برسالة إلى التعاونية المحلية».

كانت تيريزا تشعر بالذنب لشكوكها في توماس. وأرادت أن تصلح خطأها باندفاعة كريمة مباغطة نحو ابنه: «لماذا لا تكتب له إذاً؟ لماذا لا تدعوه؟».

قال توماس: إنه يشبهني. عندما يتكلم يقوم تماماً بالتكشيرية ذاتها رافعاً شفته العليا. أن أرى فمي بالذات يتكلم عن مملكة الله، يبدو لي أمراً غريباً جداً.

انفجرت تيريزا ضاحكة.

وصحّح توماس معها.

قالت تيريزا: توماس، لا تكون صبيانيّ التفكير.. إنها حكاية قديمة أنت وزوجتك الأولى. لماذا تعنيه هو هذه الحكاية؟ ما هو الشيء المشترك بينه وبينها؟ إذا كان ذوقك سيئاً في شبابك، فهل هذا سبب كافٍ لكي تؤذى أحداً ما؟.

- لكي أكون صادقاً معك، هذا اللقاء يجعلني متهيّباً. ولهذا السبب بالذات، لا رغبة لي في رؤيتك. لا أعرف لماذا كنت عنيداً إلى هذا الحدّ. ذات يوم نأخذ قراراً لا نعرف كيف، فيضع هذا القرار قوة استمراره. ومع كلّ سنة تمرّ يصعب علينا تغييره أكثر.

قالت له: «ادعه لزيارتكم!».

حين كان راجعاً بعد الظهر من الإسطبل، سمعَتْ أصواتاً صادرة عن الطريق. عندما اقتربت رأت شاحنة توماس. كان توماس منكباً على معالجة أحد الدواليب، وحوله جماعة تراقبه منتظرة أن ينتهي من التصليح.

كانت جامدة، شاخصة: كان توماس يبدو عجوزاً. كان شعره رماديّاً والرعونة التي يتصرّف بها لم تكن روعة طبيب أصبح سائق شاحنة وإنما روعنة رجل لم يعد شاباً.

فتذكرت مقابلة حديثة العهد مع رئيس التعاونية، قال خلالها إنّ شاحنة توماس في حالة سيئة جداً. قال ذلك على سبيل المزاح وليس على سبيل الشكوى، ولكنه مع ذلك بدا قلقاً.. ثم قال وهو يصحّح: «توماس يعرف ما في الجسم البشري أكثر مما يعرف ما في المحرك». ثم أسرّ إليها بأنه قام بعدها إجراءات مع الإدارة لكي يتمكّن توماس من ممارسة الطب في المقاطعة. فعلم أن الشرطة لن تسمح له بذلك أبداً.

اختفت خلف جذع شجرة كي لا يراها الرجال المحبوطون بالشاحنة ولكنها لم تُشيخ ببصريها عنهم. كان قلبها مثقلًا بالندم: لقد ترك زوريغ بسببيها ليرجع إلى براغ. وحتى في براغ لم تكفّ هي عن مناكرته، وحتى أمام كارنينا المحتضرة، كانت قد عذبته بشكوكها.

في صميم أعماقها كانت تلومه دائمًا على عدم محبته لها بما فيه الكفاية. كانت تعتبر حبها له فوق كل ملامة بينما حبه لها كان تنازلاً بسيطاً.

ها هي ترى الآن كم كانت ظالمة بحقه: لو أنها كانت تحب فعلًا توماس هذا الحب الكبير، لبقيت معه في الخارج! هناك كان توماس سعيدًا وكانت حياة جديدة تُفتح أمامه! وهي تركته وذهبت! بالطبع كانت مقتنةً آنذاك بأنها تصرف بمروءة كي لا تكون عيناً عليه. ولكن هذه المروءة، هل كانت شيئاً آخر سوى خدعة؟ فهي كانت تعرف أنه سيعود لموافاتها! استدعته لتجذبه أكثر فأكثر نحو الأسفل كما تجذب الساحرات المزارعين إلى الأمكنة السبخة وتركتهم يغرقون هناك.. ثم استغلت لحظة مغص أصيب به في معدته لكي تبتز منه وعداً بالذهاب سوية للعيش في الريف! كم كانت محظاة! كانت قد نادته ليلحق بها وهو إنها في كل مرة تضعه قيد التجربة لكي تتأكد من أنه يحبها. نادته إلى أن وجد نفسه هنا: غزاه الشيب، متعب، أصابعه المتصلبة لم يعد باستطاعتها قط أن تمسك بمقبض الجرّاح.

ها قد وصلا إلى نهاية المطاف، إلى أين بإمكانهما الذهاب بعد؟ لن يُسمح لهما أبداً بالذهاب إلى الخارج. وليس في إمكانهما أيضاً الرجوع إلى براغ لأن لا أحد سيمنحهما عملاً. وماذا يفيد الذهاب إلى قرية أخرى!

يا إلهي، أكان الأمر يقتضي فعلًا المعجزة حتى هنا لكي تتيقن من حبه لها!

نجح توماس أخيراً في معالجة دولاب الشاحنة. فقفز الصبية على جوانب الشاحنة ودوى المحرّك.

رجعت إلى البيت واستحمت. كانت تتمدد في المياه الساخنة وتفكّر أنها استغلّت طوال حياتها ضعفها لتواجه توماس. كلنا نميل لأن نرى في القوة مذنبًا وفي الضعف ضحية بريئة. ولكن تيريزا فهمت الآن: كان العكس هو الصحيح في مثل وضعها. حتى أحلامها كانت، وكأنها عارفة بنقطة الضعف الوحيدة عند هذا الرجل القوي، تعرض له مشاهد عن عذاب تيريزا لتجبره على التراجع! كان ضعف تيريزا ضعفاً عدائياً يجبره في كلّ مرة على الرضوخ. إلى أن جاء الوقت الذي كف فيه عن أن يكون قوياً وتحول إلى أرنب بين يديها. كانت تفكّر طوال الوقت في هذا الحلم.

خرجت من المغطس وذهبت لترتدي فستان سهرة. كانت تريد أن تكون في أبيه حلة لتعجبه وتدخل المسرة إلى قلبه.

كانت تزرّر الزّر الأخير عندما ظهر توماس فجأة في البيت يتبعه رئيس التعاونية ومزارع شاب شاحب الوجه بشكل واضح.

قال توماس: «قليلًا من الشراب، بسرعة! قليلاً من مشروب قوي جداً!».

ركضت تيريزا لكي تفتش عن قنية من مشروب الخوخ. سكبت من هذا المشروب في قدح، فأفرغه الرجل الشاب في جوفه دفعه واحدة.

في أثناء ذلك، كان يشرح له ما حدث: خلع الرجل الشاب كتفه أثناء العمل فصرخ زاعقاً من الألم. لم يكن أحد يعرف ماذا يفعل. ثم نودي على توماس الذي أرجع بضربيه واحدة كتفه إلى مكانها.

شرب الرجل الشاب قدحاً آخر، ثم قال لتوماس:

- زوجتك رائعة جداً، اليوم.

قال الرئيس: «أيها الغبي، السيدة تيريزا هي دائماً جميلة».

قال الشاب: «أعرف أنها جميلة دائماً. ولكنها اليوم وضعفت ثوبها جميلاً فصارت أجمل من كل الأيام. لم نرك من قبل في هذا الثوب، هل أنت ذاهبة في زيارة؟».

- لا، ارتديته من أجل توماس.

قال الرئيس: «أنت محظوظ يا دكتور. زوجتي ليست تلك السيدة البورجوازية التي تلبس أزيه الثياب لكي تسرّني».

قال الشاب: «إذاً، من أجل هذا تخرج مع خنزير بدل أن تخرج مع زوجتك». وضحك طويلاً.

قال توماس: كيف حال مفيستو. لم أره منذ، على الأقل...
(بدا وكأنه يفكر) ساعة.

قال الرئيس: «أخذ يضجر مني».

قال الرجل الشاب لتيريزا: «عندما أراك في هذا الثوب الجميلأشعر برغبة في الرقص معك. هل ستركتني أرقص معها يا دكتور؟».
فقالت تيريزا: «جميعنا سنذهب إلى الرقص».

قال الفتى لتوماس: «هل تأتي معنا؟».

سأل توماس: «إلى أين؟».

وأشار الفتى إلى بلدة في الجوار يوجد فيها فندق وحانة وحلبة للرقص.

ثم قال الرجل الشاب للرئيس بلهجة قاطعة: «أتّي معنا». وبما أنه كان يشرب كأسه الثالثة من مشروب الخوخ، أضاف: «إذا كان مفيستو كثيّاً، فلنصطحبه معنا! وهكذا سنذهب برفقة خنزيرين! وكلّ الجميلات

سيقعن أرضاً لدى رؤيتهن خنزيرين قادمين باتجاههن!». ثم أطلق ضحكة طويلة.

قال الرئيس: «إذا كان مفистو لا يزعجكم، سأصطحبه مهني». ثم صعد الجميع في الشاحنة.

جلس توماس وراء المقود، وجلست قربه تيريزا. أما الرجلان الآخرين فأخذَا مكانِيهما في الخلف، مع قنينة شراب نصف فارغة. كانا قد غادرا القرية عندما تذَّكر الرئيس فجأة أنه نسي مفистو في البيت. فصاح بتوماس ليقفِّل راجعاً.

فقال الرجل الشاب: «لا داعي لهذا العناء، خنزير واحد يكفي». فهدأ الرئيس.

كان النهار يشرف على الانتهاء. وكانت الطريق تبدو متعرجة. وصلوا إلى المدينة وتوقفوا أمام الفندق. لم يكن توماس وتيريزا قد قصداه من قبل. كان هناك درج يؤدي إلى تحت الأرض حيث توجد حانة وحلبة رقص وبضع طاولات. كان هناك رجل سمين يعزف على بيانو ترافقه على الكمان سيدة في مثل سنّه. كانا يعزفان أنغاماً تعود إلى أربعين سنة.. وكان هناك أربعة أو خمسة أزواج يرقصون على الحلبة.

جال الرجل الشاب الصالة كلها بعينيه ثم قال: «ليست هناك أية واحدة من أجلي هنا!». ودعا حالاً تيريزا إلى الرقص.

جلس الرئيس وتوماس إلى طاولة فارغة، وأمر بزجاجة نيد.

اعتراض توماس: «لا يمكنني أن أشرب. فأنا أقود!».

قال الرئيس: «وماذا بعد؟ سنمضي الليلة هنا. سأحجز غرفتين». عندما رجعت تيريزا مع الشاب من الحلبة، دعاها الرئيس للرقص. ثم رقصت أخيراً مع توماس.

قالت له وهما يرقصان: «توماس، أنا السبب في كل سوء لحق بك. بسببي أنا جئت إلى هنا. أنا التي أنزلتك إلى هذا المستوى المنحط، الذي لا يوجد ما هو أسلف منه».

فاعتراض توماس قائلاً: «لا بد أنك تهذين. ثم ماذا تعنين بقولك «ما هو أسلف منه؟».

- لو أنها بقينا في زوريخ لكنت الآن تُجري العمليات لمرضاك.

- ولكنِّي أنت تلتقطين الصور.

فقالت تيريزا: «لا يمكننا المقارنة. بالنسبة لك عملك يهمك أكثر من أي شيء في العالم. أما أنا فيمكنتني أن أقوم بأي شيء ولا أبالى. أنا لم أخسر شيئاً. أنت من خسر كل شيء».

قال توماس: «تيريزا، ألم تلاحظي أنني سعيد هنا؟».

- كانت رسالتك أن تقوم بإجراء العمليات.

- رسالة؟ تيريزا، إن ما تقولينه شيء تافه. لا رسالة لي. ولا أحد يملك رسالة. إنها لتعزية لا تقدر بأن نشعر بأننا أحجار وأن لا رسالة لدينا.

استناداً إلى لهجته، بدا مستحيلاً أن نشك في صدقه. استعادت مشهد بعد الظهر: كان يعالج الشاحنة فاكتشفت أنه صار عجوزاً. ها قد وصلت إذًا إلى مبتغاها: كانت قد رغبت دائمًا في أن يصير عجوزاً. وفكرت مرة أخرى في الأرنب الذي أصقته إلى وجهها في غرفتها التي كانت تعيش فيها عندما كانت صغيرة.

لكن ماذا يعني هذا؟ ماذا يعني أن تتحول إلى أرانب؟ هذا يعني أن ننسى قوتنا. هذا يعني أنه لم تعد لدينا القوة، لا نحن ولا الآخر.

كانا يروحان ويجيئان مؤدين حركات راقصة على أنغام البيانو والكمان. كانت تيريزا تلقي رأسها فوق كتفه. وكما في الطائرة التي

حملتهما عبر الضباب، كانت تشعر الآن بالسعادة الغريبة نفسها، وبالحزن الغريب نفسه. وهذا الحزن، كان يعني: «لقد أصبحنا عند المحطة الأخيرة»، وهذه السعادة تعني: «إلا أننا ما زلنا سوية». كان الحزن هو القالب/ والسعادة هي المحتوى، والسعادة تملأ مساحة الحزن.

رجعا إلى طاولتهم. ثم رقصت أيضاً مرتين، مرة مع الرئيس ومرة مع الشاب الذي كان ثملأ إلى درجة أنه تهاوى على الحلة. ثم صعد الأربعة ودخلوا إلى غرفهم.

أدّار توماس المفتاح وأضاء الشريя. رأت سريرين متلاصقين وقربهما طاولة سرير وفوقها مصباح. طارت فراشة ليلية كبيرة مذعورة من الضوء عن الأجاجور، وأخذت تحوم في الغرفة. من الأسفل كان يتناهى إلى سمعهما الصدى الخافت لعزف البيانو والكمان.

المحتويات

القسم الأول: الخفة والثقل	5
القسم الثاني: الروح والجسد	39
القسم الثالث: الكلمات غير المفهومة	77
القسم الرابع: الروح والجسد	129
القسم الخامس: الخفة والثقل	171
القسم السادس: المسيرة الكبرى	245
القسم السابع: ابتسامة كارينا	281

میلان کوندیرا

کائن لا تحتمل خفته

تبعد حياة توماس تيريزا، وفرانز سابينا، برقتها وجورها، بإنسانيتها ووحشيتها، بما تقبل وما ترفض... تدور حول فكرة أساسية: السيطرة.

السيطرة هي أهم ما يسعى إليه الإنسان، وقد جاء في أول سفر التكوين أن الله خلق الإنسان وجعله يسيطر على الطيور والأسماء والماشية.

تستدرج تيريزا توماس إلى فتح الشفقة والإحساس بالذنب، مما يجعله مستعداً لتلبية رغباتها. وتتجه سابينا فرانز القوي البنية لتسطير على مشاعره، ثم تهجّر بسبب ضعفه. ويستخدم السلطة كل الأدوات لإضعاف المجتمع والسيطرة عليه نهائياً. ويستخدم المناضل الشعارات الطنانة، ليقدم نفسه كمثال. رغم الشمن الذي قد يدفعه.

في هذه الرواية التي تعتبر أهم أعماله، يواجه كوندیرا الأوهام: وهو المسيرة الكبرى، وهو السير إلى الأمام، وهو الحب البريء...

وعلى خلفية الاجتياح الروسي لتشيكوسلوفاكيا عام 1968، وأفكار الشيوعية "التي تلغى الصراع في المجتمع" والديمقراطية "التي تحرر الإنسان" يطرح كوندیرا أسئلة كثيرة.

هل الثقل حقاً فطيع؟ وجميلة هي الخفة؟

ماذا علينا أن نختار، الخفة أم الثقل؟

ديكتاتورية البروليتاريا أم الديمقراطية؟ المقصلة أم إلغاء عقوبة الإعدام؟ رفض المجتمع الاستهلاكي أم زيادة الإنتاج؟

إنها رواية، تقرأ، ثم تُقرأ، لعدة مرات، وفي كل مرة نكتشف أنها تلامس شيئاً فيها.

ISBN 978-9953-68-271-6



9 789953 682716

المركز الثقافي العربي



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سبدنا)

بيروت: ص.ب 113/5158

markaz@wanadoo.net.ma

cca_casa_bey@yahoo.com